

ج. م. كويتزي

عصر "مايكل ك" وحياته

(رواية من جنوب أفريقيا)

ترجمة وتقديم: سمير عبد ربه

المركز القومي للترجمة



عصر " مايكل ك " وحياته

(رواية من جنوب أفريقيا)

المركز القومى للترجمة
تأسس فى أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

سلسلة الإبداع القصصى
المشرف على السلسلة: خيرى دومة

- العدد: 2249
- عصر "مايكل ك" وحياته
- ج. م. كويتزى
- سمير عبد ربه
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة:
Life & Times of Michael K
By: J.M. Coetzee

شارع الجبلاية بالأوبرا– الجزيرة– القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

عصر " مايكل ك " وحياته

(رواية من جنوب أفريقيا)

تـــأليف: ج. م. كويتزى

(نوبل ٢٠٠٣)

ترجمة وتقديم: سمير عبد ربه



2015

كويتزى، چون ماكسويل، ١٩٨٣ ـ ١٩٩٩.

عـصـر مـايـكل ك وحـيـاته: روايـة من جـنـوب أفريقيا/ تأليف: ج. م. كويـتـزى، تـرجمة وتقديم: سـمـيـر عـبـد ربه. ـ الـقـاهـرة : المـركـز الـقـومى للترجمة، ٢٠١٥.

٢٢٠ص؛ ٢٤ سم.

تدمك ٧ ٠١٦٢ ٩٢ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ القصص الأفريقية.

أ ـ عبد ربه، سمير (مترجم، مقدم)

ب ـ العنوان.

رقم الإيداع بدار الكتب ٥٢١٨/ ٢٠١٥

I. S. B. N 978 - 977- 92 - 0162 - 7

ديوى ٨٩٢,٣

المحتويات

تقديم

«لو لم يكن هناك سوى شكل أدبى واحد وطريقة تواصل لغوية
واحدة لأصابنا الفناء بفعل الضجر والملل» «وول سوينكا»

لعل «سوينكا» يعبر بتلك المقولة عن الضرورة الملحة للكتابة الإبداعية بمختلف أشكالها، وعن مدى أهميتها لمواجهة كل ما تموج به القارة الأفريقية السوداء من متناقضات غريبة وصراعات عنيفة إلى جانب غياب الحد الأدنى من الحرية التى دونها لا تستقيم الكتابة، ولا يصبح للفن ذلك المذاق الساحر، ولعلها تعكس أيضا حتمية الكتابة، وتفسر فى الوقت نفسه ذلك التفرد الإبداعى الذى تتميز به القارة الأفريقية السوداء عموما وجنوب أفريقيا على وجه التحديد، ومن هنا فإننى أجد صعوبة بالغة كلما حاولت الكتابة عن الإبداع الأدبى فى أفريقيا، وتزداد حدة هذه الصعوبة عند الكتابة عن أدب جنوب أفريقيا الذى يختلف كثيرا عن آداب الشعوب

الأخرى من حيث درجة الثراء، حيث إن الموسيقى والرقص والكتابة الإبداعية بمختلف أشكالها هى أجمل أنواع الفنون فى ظنى؛ فلقد صرت مفتونا بمجمل الإبداع الأفريقى، غير أن آداب جنوب أفريقيا وفنونها احتلت المرتبة الأولى فى ذلك الافتنان.

قبل تناول الرواية التى بين أيدينا بالعرض، وقبل التعريف بصاحبها تجدر الإشارة إلى أن تعدد الأجناس واختلاف الثقافات، إلى جانب تسلط الأقلية البيضاء التى كانت ـ وفى ظنى أنها ما زالت ـ تنتهج سياسة التمييز العنصرى (الأبارتايد Apartheid) يجعل الحديث عن الإبداع فى جنوب أفريقيا وعن الحركة الروائية بشكل خاص مختلفا بعض الشىء عن مثيله عند بقية الشعوب، ولعله يفسر ذلك الثراء والتميز الذى يتمتع به.

بدأت الكتابة الإبداعية فى جنوب أفريقيا فى منتصف القرن التاسع عشر مع ظهور البعثات التبشيرية، وكان يغلب عليها ـ فى ذلك الوقت ـ طابع اللغة الشفاهية الدارجة، ومع اتساع دائرة الإبداع نشأ الحلم بعمل دور للنشر تقوم بطبع مختلف الإبداعات، لكن حكومة جنوب أفريقيا العنصرية آنذاك حالت دون تحقيق هذا الحلم، ولم تتوقف عن مصادرة كثير من الأعمال وزج أصحابها فى السجون؛ مما جعل كثيرًا من المبدعين الذين يكتبون باللغات الأفريقية الأصلية أو لغة الزولو يتجهون إلى الكتابة باللغة

الإنجليزية، حتى يتسنى لهم نشرها بالخارج وبالتحديد فى أمريكا وأوروبا، كما غادر بعضهم جنوب أفريقيا تجنبًا للمصادرة والرقابة والاعتقال.

فى مثل تلك الأجواء نشأ الكاتب الجنوب أفريقى من أصل أوروبى Afrikaner(*) «جون ماكسويل كويتزى .J. M. Coetzee» صاحب هذه الرواية المهمة، التى أطلق عليها اسم (عصر مايكل ك وحياته Life & Times Of Michael K)

حصل " كويتزى" على جائزة نوبل فى الآداب عام ٢٠٠٣، ويعد الكاتب الثانى من جنوب أفريقيا الذى يحصل على الجائزة نفسها بعد الكاتبة الشهيرة «nadine Gordimer نادين جورديمر»، التى حصلت عليها فى عام ١٩٩١، والتى تناولت فى أعمالها المتعددة مختلف أشكال القهر والعنصرية، وكما حصلت "نادين جورديمر" على جائزة بوكر حصل عليها أيضًا "كويتزى" مرتين عن رواية (Disgrace العار) ثم عن هذه الرواية التى بين أيدينا Life& Times Of Michael K عصر مايكل ك. وحياته)، وقد ولد"جون ماكسويل كويتزى" فى كيب تاون بجنوب أفريقيا فى التاسع من فبراير عام ١٩٤٠، وهو أكبر إخوته الثلاثة وكانت والدته تعمل

(*)AFRIKANER أفريكانى: شخص جنوب أفريقى من أصل أوروبى. (المترجم)

بالتدريس بإحدى المدارس الابتدائية، أما والده فقد التحق بالخدمة مع قوات جنوب أفريقيا فى شمال أفريقيا وإيطاليا فى الفترة من ١٩٤١ ـ ١٩٤٥ وعلى الرغم من أن والديه ليسا من أصل إنجليزى فإن اللغة الإنجليزية كانت هى اللغة السائدة فيما بينهم فى المنزل.

تلقى «كويتزى» تعليمه الابتدائى فى كيب تاون بإحدى المدن القريبة من (Worcester) ورسيستر، ثم التحق فى التعليم الثانوى بمدرسة فى كيب تاون يقوم بإدارتها الرهبان الكاثوليك، وتخرج فيها فى عام ١٩٥٦، ثم التحق بالجامعة عام ١٩٥٧ وتخرج فيها عام ١٩٦٠ ـ ١٩٦١ بنجاح كبير مع مرتبة الشرف فى مادة اللغة الإنجليزية ومادة الرياضيات، وبعد ذلك سافر إلى إنجلترا؛ حيث مكث هناك ثلاث سنوات فى الفترة من ١٩٦٢ ـ ١٩٦٥، وعمل هناك منسقاً لبرامج الكمبيوتر فى الوقت نفسه الذى كان مشغولًا فيه بأطروحته عن الروائى «فورد مادوكس فورد»، وأثناء ذلك وبالتحديد فى عام ١٩٦٣ تزوج من امرأة تدعى «فيليبا جوبر» المولودة عام ١٩٣٩، وقد توفيت عام ١٩٩١، وأنجب ولداً يدعى ـ Nicolas نيكولاس» عام ١٩٦٦ لكنه توفى عام ١٩٨٩، «وأنجب كذلك بنتًا عام ١٩٦٨ واسمها Gisela «جيزيلا».

سافر «كويتزى» إلى الولايات المتحدة الأمريكية فى عام ١٩٦٥، والتحق بقسم المتخرجين فى جامعة تكساس بأوستن؛ حيث حصل منها على درجة الدكتوراه عام ١٩٦٨ فى اللغة الإنجليزية، وتعلم اللغويات واللغة الألمانية، وكانت أطروحته عن أعمال «صموئيل بيكيت» المبكرة.

عمل بعد ذلك ولمدة ثلاث سنوات من ١٩٦٨ ـ ١٩٧١ كأستاذ مساعد للغة الإنجليزية فى جامعة نيويورك، وعند رفضهم طلبه بالموافقة على التصريح بالإقامة الدائمة فى الولايات المتحدة الأمريكية عاد إلى جنوب أفريقيا، ومنذ ١٩٧٢ حتى ٢٠٠٠ عمل فى جامعة كيب تاون كأستاذ بارز ومتميز فى الأدب.

ما بين الأعوام ١٩٨٤ و٢٠٠٣ ظل يقوم بالتدريس فى أمريكا بشكل متقطع بجامعة نيويورك وجامعة جونز هوبكنز وهارفارد وستانفورد وشيكاغو؛ حيث ظل لمدة ست سنوات عضوًا فى لجنة الفكر الاجتماعى.

أما عن «كويتزى» المبدع فلقد بدأ الكتابة الإبداعية عام ١٩٦٩، وقد نشرت له الأعمال الأدبية التالية حسب الترتيب الزمنى:

ـ (Dusklands) بلاد الظلام المنشورة فى جنوب أفريقيا جوهانسبرج ١٩٧٤.

ـ (In The Heart Of The Country في قلب الوطن) ـ لندن ١٩٧٧، التى حصل بموجبها على جائزة جنوب أفريقيا وجائزة الأعمال الأدبية الرئيسية، وكذلك جائزةCAN ، وقد تم نشرها فى كل من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية.

ـ (Waiting For The Barbarians فى انتظار البرابرة) ـ لندن ١٩٨٠.

ـ (life & times of michael k عصر ما يكل ك وحياته) - لندن ١٩٨٣، التى كانت سببًا فى شهرته واحتلاله مكانًا مرموقًا ومتميزًا فى أوساط جنوب أفريقيا الأدبية، ولدى كل قراء الأدب فى العالم، والتى حصلت ـ كما أشرنا ـ على جائزة بوكر.

ـ (Foe العدو) ـ لندن ١٩٨٦.

ـ (Age Of Iron عصر القوة) ـ لندن ١٩٩٠.

ـ (The Master Of Petersburgحاكم بطرسبورج) ـ لندن ١٩٩٤.

ـ (Disgrace العار) - لندن ١٩٩٩ ـ جائزة بوكر.

ـ بالإضافة إلى أن «كويتزى» أصدر كتابين يندرجان تحت مسمى (دراسات قصصية)؛ وكان الأول بعنوان: (Scenes From Provin-cial : Boyhood الصبا: مشاهد من حياة الريف) لندن ١٩٩٧،

والثانى بعنوان: (الشباب) ـ لندن ٢٠٠٢، كما أصدر فى عام ١٩٩٩ سلسلة محاضرات قصصية، ثم أعقبها فى عام ٢٠٠٣ بكتاب (Elizabeth Costello إليزابيث كوستيلو) ـ لندن، أما عن كتابه (White Writing الكتابة البيضاء) الصادر عام ١٩٨٨ فهو عبارة عن مجموعة من المقالات التى تطرق خلالها إلى أدب جنوب أفريقيا وثقافتها ـ نيو هافن ـ جامعة ييل.

كتب «كويتزى» أيضًا مجموعة أخرى من المقالات عام ١٩٩٢ بعنوان: (Doubling The Point مضاعفة الغاية)؛ ويتضمن الكتاب بالإضافة إلى المقالات لقاءات صحفية مع "david Attwell" دافيد آتويل»، أما فى عام ١٩٩٦ فلقد أصدر دراسة مهمة عن الرقابة والمصادرة الأدبية ـ شيكاجو ـ مطبعة جامعة شيكاجو، وأخيرًا مجموعة أخرى من المقالات الأدبية عام ٢٠٠١ بعنوان: (Stranger Shores شواطئ الغريب).

جدير بالذكر أن "جون ماكسويل كويتزى" قام بالعديد من الترجمات عن اللغة الهولندية والأفريكانية، كما تجدر الإشارة إلى أنه هاجر إلى أستراليا عام ٢٠٠٢، ويعيش هناك مع رفيقته "Doro thy Driver دوروثى درايفر" فى (Adelaide أديليد)، بجنوب أستراليا؛ حيث يشغل منصبا شرفيا فى جامعة (أديليد)، إذن فنحن فى هذه الرواية أمام كاتب ومبدع غزير الإنتاج، وقد تناول الكثير

من النقاد أعماله الأدبية المتميزة بالدراسة والتحليل؛ خاصة هذه الرواية التى بين أيدينا إلى جانب رواية (فى انتظار البرابرة)؛ وذلك لقدرته الهائلة على خلق شخصيات يصعب نسيانها، إلى جانب أسلوبه النثرى المذهل والمثير للدهشة.

تتناول الرواية حكاية البستانى "مايكل ك"، ذلك الرجل المنعزل الذى يصبح مسئولًا عن رعاية أمه المريضة، التى تعيش حياة محفوفة بالمخاطر، والتى ظلت تحلم بتحقيق رغبتها المكبوتة فى العودة إلى الريف الهادئ، الذى عاشت فيه أثناء صباها بعد أن ترك ابنها "مايكل" عمله فى كيب تاون، وراحت تتخيل نفسها وهى تستقل القطار مع ابنها فى طريقهما إلى مسقط رأسها؛ حيث يمكن أن تعيش بعيدًا عن كل التعقيدات، وحيث يستطيع ابنها "مايكل" أن يجد وظيفة جديدة، غير أن أحلامها تلك حدثت فى ظل نظام جنوب أفريقيا العنصرى (Apartheid)، الذى يضع قيودًا محكمة على تحركات الفرد الشخصى، كان "مايكل" فردا هامشيا فى مجتمع حديث، لكن أمه كانت تعلق عليه الآمال وتتمنى لو أنه استطاع تحقيق حلمها رغم افتقاره إلى الذكاء والفطنة إلى جانب شخصيته الضعيفة.

أثناء قراءة هذه الرواية يستمتع القارئ بالنظر إليها كعمل أدبى خالص؛ لكنها إلى جانب ذلك مليئة بالأفكار والقضايا الفلسفية التى ينبغى على القارئ أن يفكر فيها لاكتشاف تميزها وقوتها.

والمتتبع لأعمال "كويتزى" يستطيع أن يدرك ببساطة أن الاضطهاد والظلم هما الموضوعان المتكرران فى كل رواياته، ويمثلان الفكرة الأساسية لهذه الرواية (عصر مايكل ك وحياته)، وعلى الرغم من أن أحداث الرواية تقع فى جنوب أفريقيا، فإن العمل لا يتضمن ذلك صراحة، وإنما تحكى الرواية عن الاضطهاد العنصرى وعن المعاملة التى يلقاها "مايكل" وكأنه غريب وخانع وذليل، إنها رواية "كويتزى" الأكثر تفردا وأظن أنها عمله الأدبى الأروع.

إن المتتبع للأعمال الفنية والأدبية فى جنوب أفريقيا أثناء - وفى ظل - نظام التمييز العنصرى يستطيع أن يكتشف بسهولة مدى انعكاس ذلك النظام على معظم الإبداعات، إن لم يكن على كل الإبداعات؛ حيث لا يخلو أى عمل فنى أو أدبى من الإشارة إليه، مثلما حدث تمامًا مع الفنانين والأدباء فى أمريكا الجنوبية إبان عصور العبودية أو فى روسيا أثناء فترة الشيوعية، لكننا نستطيع ضمن حديثنا عن هذه الرواية أن نشير إلى سبب آخر من أسباب جمالها وروعتها؛ وهو أنها لم تتعرض للحديث عن سياسة التمييز العنصرى (الأبارتايد Apartheid)، أو عن الاضطهاد الذى يعانى منه سكان البلد الأصليون ولو مرة واحدة، رغم أن الرواية فى مجملها ترتكز على الصراع العنصرى؛ فنراه قد تجاوز ذلك كله، كما يستطيع القارئ ملاحظة عدم تطرق الكاتب إلى القول: إن "مايكل"

هو أحد السكان الأصليين لهذا البلد رغم أنه كذلك، وأتصور أن "كويتزى" لا يتعمد ذلك، وإنما من الواضح أنه يكتب بتلك الطريقة عامدا لإظهار سيطرته ومهاراته وما يتمتع به من إلهام ومقدرة مذهلة فى البناء القصصى.

يبرهن "كويتزى" بعدم تعرضه لسياسة التمييز العنصرى بشكل مباشر على مهارته، ولا يكتفى بعرض جنون النظام فى جنوب أفريقيا وخبله، وإنما يذهب إلى أبعد من ذلك ويكشف عن الجنون العام للحضارة الإنسانية برمتها، ويبين لنا قدرة الشخصية الرئيسية فى الرواية على قهر تلك الحضارة بمجرد تجاهلها، تلك الشخصية المنبوذة التى لم تنل قسطًا من التعليم تنطق دومًا بالسؤال القديم: كيف يحيا الإنسان؟ ثم ينعم بالسلام حين يجيب بنفسه على السؤال إما بالتجاهل أو بعدم المبالاة.

فى هذه الرواية يتجول بنا "كويتزى" فى قلب الوجود القاسى، ومن خلال معاناة الإنسان فى رحلة غير موفقة، فنجد "مايكل ك" بطل الرواية وهو يهيم ويتنقل بين البستان ومشاهد الطبيعة؛ فى محاولة منه لإخراج نفسه بالكامل من أى شىء ينتمى إلى ما يسمى بالمجتمع، كما يتحرك منسحبا نحو الجبال؛ غير أن الجوع يجبره على العودة. ويمكننا القول: إن الرواية تعد - إلى حد بعيد - دراسة عن الجوع أو كيفية الموت جوعًا.

فى النهاية وقبل الإشارة إلى تنوع الأدب فى جنوب أفريقيا الزاخرة بمبدعيها المتميزين فى مجال القصة القصيرة والرواية والشعر والمسرح، وهم مبدعون لسنا الآن بصدد الحديث عنهم وعن أعمالهم - فإننى أرغب فى التأكيد على أن هذه الرواية (Life & Times Of Michael K عصر مايكل ك وحياته) ورواية (Waiting For The Barbarians فى انتظار البرابرة) هما فى ظنى أجمل أعمال "جون ماكسويل كويتزى" وأروعها. فكلتا الروايتين دليل على تقديم الموضوعات والأحداث الضمنية الكامنة خلف السطور؛ إذ نجد "مايكل" فى هذه الرواية والقاضى فى رواية (فى انتظار البرابرة) يمثلان أدوات للتعبير عن أحداث الحرب الكامنة وموضوعاتها، ويعبر الكاتب من خلالهما أيضًا عن الصراعات والتناقضات التى تذخر بها جنوب أفريقيا، وعن حرية الإنسان.

«كويتزى» آخرا صاحب موهبة فائقة تتجلى بوضوح فى مشاهد الرواية الرائعة وفى بنائها المحكم.

سمير عبد ربه

الفصل الأول

كانت شفاه "مايكل ك" المشقوقة هى أول شىء تلاحظه القابلة لحظة ولادته؛ وبخاصة شفته العليا المتجعدة كالقواقع، ثم فتحة أنفه اليسرى ذات الفجوة الكبيرة، حاولت للحظة إخفاء الطفل عن أمه، وراحت خلال تلك اللحظة تفتح فمه الصغير، ثم شعرت بالامتنان لوجود فتحة الفم الداخلية.

قالت للأم: يجب أن تنعمى بالسعادة؛ فلقد ساد الحظ أرجاء البيت.

لكن الأم «أنَا ك» لم يعجبها فم ابنها المفتوح وتلك القطعة الوردية الصغيرة من اللحم المتدلية من رحمها، وراحت ترتعد وهى تفكر فى ذلك الشىء الذى كان يواصل النمو داخلها طوال الأشهر الماضية، لم يستطع الطفل الرضاعة من الثدى وظل يصرخ من الجوع، فحاولت إرضاعه من زجاجة الحليب، غير أنه لم يستطع

أيضا، فقررت أن تطعمه بالملعقة الصغيرة، وعندما بدأ فى السعال وراح يبصق ما فى فمه ويصرخ شعرت بالارتباك والغيظ، ولم تقو على الصبر.

قالت لها القابلة مؤكدة: سوف يغلق فمه حين يكبر قليلا؛ لكن الشفة العليا لن تقترب من الشفة السفلى، أو لن تقترب بما فيه الكفاية، كما أن الأنف لن يستقيم.

كانت تأخذ الطفل معها إلى العمل، وظلت تأخذه معها وهو لم يزل طفلا رضيعا، وكانت الابتسامات والهمسات التى تلاحقها تسبب لها الأذى وتشعر حيالها بالغضب، فحاولت قدر استطاعتها إبعاد طفلها عن بقية الأطفال، وبعد مضى عام تلو عام بدأ «مايكل ك» الطفل يجلس ملتحفا بالبطانية، وهو يراقب أمه أثناء قيامها بتنظيف بيوت الناس وغسل ملابسهم، وتعلم فى تلك الأثناء أن يكون هادئا ومسالما.

ترك «مايكل» المدرسة بعد فترة قصيرة من التحاقه بها؛ بسبب شكله المشوه وذكائه المحدود جدا، ثم التحق بإحدى مؤسسات الرعاية على نفقة الدولة؛ حيث أمضى بقية طفولته فى صحبة أشكال مختلفة من الأطفال البائسين والتعساء، كانوا يتعلمون المبادئ الأولية للقراءة والكتابة والحساب إلى جانب جمع القمامة والكنس والغسيل والتنظيف، وترتيب الأسرة، وغسل الأطباق، ونسج

السلال، وأعمال الخشب، وأعمال الحفر، وعندما أصبح فى الخامسة عشرة من عمره ترك المؤسسة والتحق بقسم البساتين والحدائق التابع لبلدية مدينة كيب تاون؛ حيث عمل بستانيا من الدرجة الثالثة، وبعد سنوات ثلاث ترك العمل بذلك القسم، وظل عاطلا لفترة من الزمن قضى معظمها راقدا فوق السرير متأملا يديه، ثم عمل خادما ليليا فى المراحيض العامة بميدان جرين ماركت، وفى وقت متأخر من أحد أيام الجمعة وأثناء عودته من العمل قاصدا البيت تعرض له رجلان فى أحد الأنفاق، واعتديا عليه بالضرب، واستوليا على ساعته ونقوده وحذائه ثم تركاه راقدا على الأرض بضلوع مهشمة وذراع مجزوحة وإبهام مخلوعة، فما كان منه بعد تلك الحادثة إلا أن ترك ذلك العمل الليلى وعاد إلى قسم البساتين والحدائق، حيث ارتقى فى عمله ببطء حتى أصبح بستانيا من الدرجة الأولى.

لم يساعده الحظ بعمل علاقة نسائية؛ بسبب وجهه البغيض وكان من الأسهل والأفضل له أن يطفئ رغباته مع نفسه، وكانت الوظيفتان اللتان عمل بهما قد دعمتا بداخله فكرة الانعزال والانزواء والتوحد؛ فكان أثناء عمله بالمراحيض يشعر بالضيق الشديد من ضوء النيون البراق وهو ينعكس فوق البلاط مخلفا بعض الأماكن دون ظلال، أما عن عمله فى الحدائق فكان يفضل تلك التى تحوى أشجار الصنوبر الشاهقة، والتنزه وسط الزهور،

وأحيانا وفى أيام الآحاد كان يفشل فى سماع هدير منتصف النهار فيواصل العمل بنفسه طوال فترة المساء، وكان ينام متأخرا فى صباحات أيام الآحاد، ثم يذهب فى مساء اليوم نفسه لزيارة أمه.

ذات صباح متأخر من شهر يونيو وفى أوائل الثلاثين من عمره تسلم «مايكل ك» رسالة فى أثناء قيامه بتمشيط أوراق الشجر وتهذيبه فى حديقة (دو وال) وكانت الرسالة من والدته التى طلبت منه الحضور لإخراجها من المستشفى بعد أن تم شفاؤها، وضع «ك» أدوات تمشيط أوراق الشجر وتهذيبه جانبا، وسارع باستقلال الحافلة للذهاب إلى مستشفى (سومرست) وهناك وجد أمه جالسة فوق الدكة أمام بقعة من ضوء الشمس خارج المدخل وكانت ترتدى كامل ملابسها فيما عدا حذائها الذى كانت تضعه إلى جوارها، وعند رؤيتها لابنها بدأت فى البكاء ووضعت يدها أمام عينيها حتى لا يراها بقية المرضى والزائرين.

ظلت « أنّا ك» تعانى من ورم خطير فى قدميها وذراعيها لعدة أشهر، ثم زحف الورم إلى بطنها بعد ذلك، ولم تعد قادرة على الذهاب إلى المستشفى سيرا على الأقدام، كما أنها كانت تتنفس بالكاد، وأمضت خمسة أيام كاملة وهى راقدة فى الممر وسط عشرات من الضحايا الذين تعرضوا للطعن والضرب وطلقات الرصاص، وكانت أناتهم وصرخاتهم كفيلة لحرمانها من النوم، كما أن الممرضين لم يمتلكوا الوقت الكافى للاعتناء بها كامرأة عجوز

لانشغالهم بذلك العدد الكبير من الشباب الذين يموتون ببطء فى مشهد درامى مذهل، لكنهم أمدوها بالأكسجين اللازم لحظة وصولها وعالجوها بالحقن والكبسولات للتخفيف من حدة الأورام، وعندما طلبت منهم مرتبة لتنام عليها لم يجدوا أى مرتبة شاغرة ولم تكن أيضا تملك ملابس للنوم، وذات مرة أثناء استنادها إلى الحائط فى محاولة منها للذهاب إلى المرحاض قام رجل عجوز يرتدى بيجامة رمادية اللون بإيقافها، ثم عرض نفسه عليها بكلمات فاحشة، أصبح جسدها مصدر عذاب لها وعندما سألها الممرض عن الكبسولات أخبرته أنها تناولتها غير أنها كانت تكذب، ثم على الرغم من اجتيازها مرحلة ضيق التنفس فإن قدميها كانتا تتطلبان الحك الشديد، وفى اليوم الثالث كانت تتوسل لإرسالها إلى البيت، لكن توسلاتها لم تجد من يستقبلها ويعمل على تنفيذها وكانت الدموع التى ذرفتها فى اليوم السادس غزيرة ووفيرة مما ساعد فى تخفيف حدة عذابها.

طلب «مايكل ك» من مكتب الاستقبال الإذن له باستخدام الكرسى المتحرك، لكن طلبه قوبل بالرفض، فحمل حقيبة أمه وحذاءها وراح يساعدها حتى وصلا إلى موقف الحافلات على بعد حوالى خمسين خطوة من المستشفى، وهناك كان طابور الانتظار طويلا وجدول مواعيد الرحلات يعلن عن قيام حافلة كل خمس عشرة دقيقة؛ لكنهما انتظرا لمدة ساعة كاملة امتدت خلالها ظلال

الأشياء واشتدت برودة الرياح، وحين لم تقدر «أنَا ك» على الوقوف استندت إلى الحائط ووضعت قدميها أمامها وكأنها امرأة متسولة، بينما كان «مايكل» يحافظ على دوره فى الطابور، جاءت الحافلة، ولم تكن هناك مقاعد شاغرة، فأمسك «مايكل» بالدرابزين واحتضن أمه؛ حفاظا عليها من الترنح ومضت خمس ساعات طويلة قبل أن يصلا إلى حجرتهما فى (السى بوينت).

أمضت «أنَا ك» ثمانى سنوات فى العمل كخادمة منزلية لدى رجل متقاعد يمتلك مصنعا للملابس الداخلية والجوارب ويعيش مع زوجته فى منزل مكون من خمس غرف فى منطقة (السى بوينت) المطلة على المحيط الأطلنطى، وكان العقد ينص على أن تبدأ العمل فى التاسعة صباحا ولا تغادر قبل الثامنة مساء على أن تستريح لمدة ثلاث ساعات فى فترة الظهيرة، وكانت تعمل خمسة أو ستة أيام بالتناوب فى الأسبوع ولها حجرتها الخاصة داخل المبنى الكبير، كان الراتب عادلا وكان الرجل وزوجته من العقلاء والعادلين، وفى ظل صعوبة الحصول على عمل لم تكن «أنَا ك» ساخطة أو مستاءة، غير أنها منذ عام مضى بدأت تشعر بدوار وضيق فى الصدر كلما انحنت فى عملها نحو الأسفل، ثم أصابها داء الاستسقاء فاضطروا للاحتفاظ بها لعمل الطعام فقط وانخفض راتبها إلى الثلث، وقاموا باستئجار امرأة شابة للقيام بأعمال المنزل وسمحوا لها بالإقامة فى حجرتها، ظلت عدة أسابيع تعانى من حدة داء الاستسقاء، وقبل أن

تدخل المستشفى كانت طريحة الفراش لا تقدر على العمل، وفى تلك الفترة انتابها خوف شديد من اقتراب فقدانها لوظيفتها.

كانت حجرتها تحت السلالم قابلة لتركيب جهاز تكييف، لكن ذلك لم يحدث قط، وكان مرسوما على اللافتة المعلقة فوق الباب جمجمة وعظام متقاطعة باللون الأحمر ومكتوب تحتها كلمة (خطر)، ولم تكن بالحجرة كهرباء ولا أى وسيلة للتهوية، وكان الهواء عفنا على الدوام، فتح «مايكل» الباب ودخل عند أمه، ثم أشعل شمعة لكنه تراجع إلى خارج الحجرة، حيث كانت أمه تستعد للنوم وأمضى معها تلك الليلة الأولى بعد خروجها من المستشفى وكل ليالى الأسبوع التالية، وكان يقوم بتسخين الشوربة لها فوق الكانون ويعمل على راحتها قدر استطاعته ويقوم بتنفيذ المهام الضرورية، ويعمل على مواساتها وتشجيعها بتدليك ذراعيها عندما كانت تملأ قبضة يدها بالدموع، وذات مساء توقفت حركة الحافلات عن الإقلاع من محطة (السى بوينت) فاضطر لقضاء الليلة فى حجرتها؛ حيث نام فوق الحصيرة ملتحفا بمعطفه وفى منتصف الليل استيقظ من شدة البرد الذى اخترق عظامه، ولم يستطع أن ينام ولم يكن قادرا على الرحيل؛ بسبب حظر التجوال فظل جالسا فوق الكرسى وهو يرتعد حتى بزوغ أول ضوء للنهار، بينما كانت أمه تتأوه ولا تتوقف عن الشخير.

لم يحب «مايكل ك» تلك المودة وذلك العناق المتبادل بينه وبين أمه الذى فرضته عليهما تلك الأمسيات الطويلة داخل الحجرة الصغيرة، وكان منظر قدمى أمه المتورمتين مزعجا ومثيرا للقلق، وكان يستدير بعينيه بعيدا كلما حاول مساعدتها فى النزول من السرير فقد كانت الخدوش تحتل مساحة كبيرة فى كل من فخذيها وذراعيها، وعلى الرغم من ارتدائها للقفاز أحيانا فى المساء فإنه لم يستطع أن يتجنب كل ما كان يراه أثناء قيامه بمساعدتها، وكانت المشكلة التى واجهته منذ سنوات مضت خلف ورشة لإصلاح الدراجات هى محاولة معرفة الإجابة على السؤال الملح الذى لم يفارقه: (لماذا جئت إلى العالم؟) وكانت إجابته: (لقد خلقت فقط للعناية بأمى).

لم يستطع «مايكل ك» بكل ما قاله لأمه أن يخفف من خوفها لما قد يحدث لو أنها فقدت حجرتها، كانت لياليها وهى تحتضر فى ردهات مستشفى سومرست قد علمتها أن العالم لا يبالى بامرأة عجوز تعانى من مرض خطير فى وقت الحرب، كما جعلتها تشاهد نفسها وهى عاجزة عن العمل وكأنها خارجة من إحدى البالوعات، ثم تذكرت طاعة ابنها صاحب الوجه القبيح وبعض النقود التى قامت بتوفيرها فى حقيبة اليد الموضوعة داخل حقيبة السفر تحت السرير، وتلك العملة الجديدة فى كيس النقود والعملة القديمة التى حال حذرها الشديد دون تغييرها وليست لها قيمة الآن.

عندما جاء «مايكل» ذات مساء وأخبرها بتسريحه من العمل فى قسم الحدائق والبساتين التابع لبلدية مدينة كيب تاون راحت تفكر فى حلمها القديم الذى طالما راودها من وقت لآخر، بدأت تفكر من جديد فى الرحيل عن المدينة التى لم تحقق لها سوى القليل، والعودة إلى موطن صباها فى الريف الهادئ.

ولدت «أنَا ك» فى إحدى المزارع التابعة لمقاطعة الأمير ألبرت، ولم يكن والدها رجلا يمكن الاعتماد عليه، كان رجلا سكيرا وفى سنوات عمرها المبكرة كانوا يتنقلون من مزرعة إلى أخرى، وكانت أمها تعمل بإحدى المغاسل وفى مختلف أعمال المطبخ وتقوم «أنَا» بمساعدتها أحيانا، ثم انتقلوا أخيرا إلى مدينة (أودتشورن)؛ حيث التحقت «أنَا» هناك بالمدرسة لفترة قصيرة، وبعد ميلاد أول طفل لها ذهبت إلى كيب تاون، أنجبت طفلا ثانيا من رجل آخر، ثم طفلا ثالثا لم تكتب له الحياة، وأخيرا «مايكل». كانت ذكرياتها عن أيامها قبل انتقالهم إلى مدينة (أودتشورن) هى أسعد الأيام؛ حيث أيام الدفء والوفرة والاطمئنان، راحت تتذكر نفسها وهى جالسة فوق الأترية بجوار الدجاج الذى لا يتوقف عن القرقرة وخربشة الرمال، وتذكرت لحظات ترقبها للحصول على البيض من تحت الشجيرات ونومها فوق السرير فى حجرتها الخالية من الهواء فى أمسيات الشتاء وسماعها لصوت المطر المتساقط فى الخارج، كانت تحلم بالهرب من العنف المتسم بالطيش والتهور، ومن تلك الحافلات

المزدحمة وطوابير الطعام وأصحاب المتاجر المتعجرفين واللصوص والمتسولين، ومن صفارات الإنذار الليلية وحظر التجوال، ومن الصقيع والأمطار والشوارع المبللة، والعودة إلى الريف؛ حيث يمكنها الموت تحت السماوات الزرقاء.

لكنها لم تذكر شيئا عن الموت أو الاحتضار حين قررت الحديث مع «مايكل»، وإنما اقترحت عليه أن يترك عمله فى البلدية قبل أن يطردوه ويقوم بعد ذلك باصطحابها فى القطار والرحيل إلى مقاطعة الأمير ألبرت؛ حيث تستطيع تأجير حجرة للعيش، ويستطيع هو أن يبحث عن عمل فى المزرعة ومكان للسكن يعيشان فيه معا وتقوم هى بالعناية به، وفى حالة عدم توفر ذلك السكن يمكنه عندئذ أن يزورها فى العطلات ومن أجل إثبات جديتها فى تحقيق حلمها طلبت منه إخراج الحقيبة من تحت السرير، ثم فكت كيس النقود وراحت تعدها أمامه، تلك النقود التى كانت تدخرها لمثل ذلك الغرض.

توقعت أن يسألها «مايكل» عن كيفية اعتقادها احتضان تلك المدينة الصغيرة لاثنين من الغرباء أحدهما امرأة عجوز فى حالة صحية سيئة، لكنها كانت مستعدة للإجابة إلا أن «مايكل» لم يَنْتَبه الشك تجاهها ولو للحظة قصيرة؛ حيث إنه كان متيقنا طوال فترة عمله بستانيا فى بلدية كيب تاون أن أمه تركته هناك لسبب ما، وهكذا لم يتردد فى الموافقة على خطتها وحلمها الحالى دون

محاولة منه لمعرفة الحكمة من وراء خطتها، لم يَنْتَبهْ «مايكل» لأوراق البنكنوت المدسوسة بين ثنايا مرتبة السرير وفتحاتها، لكنه رأى بروحه دخانا يتصاعد بطريقة ملفوفة من داخل أحد الأكواخ عند المرج العشبى الفسيح، بينما تقف أمه فوق عتبة الباب الأمامى، مبتسمة وقد بدت عليها علامات الصحة والعافية وهى تستعد للترحيب به بعد عودته من عمل يوم طويل وشاق.

فى صباح اليوم التالى لم يذهب «مايكل» إلى العمل، وإنما قام بحشو نقود أمه فى رزمتين ووضعهما فى الشراب، وتوجه على الفور إلى محطة السكك الحديدية قاصدا مكتب الحجز الرئيسى، فقال له الموظف متسائلا وهو يهم بعملية الحجز: مقاطعة الأمير ألبرت أم أقرب محطة لها الأمير ألبرت أم الأمير ألفريد؟

لم يتوقع «مايكل» كما لم يكن يدرى أن مجرد حجز تذكرتين له ولأمه فى القطار لا يكفى، وإنما يتوجب عليه الذهاب إلى نقطة شرطة (كيب بينينسولا) للحصول على تصريح بالمغادرة، وكان أقرب حجز يستطيع الحصول عليه من موظف شباك الحجز فى الثامن عشر من أغسطس أى بعد شهرين، كما أن الحصول على التصريح يتطلب ذهابه إلى الشرطة، فراح يتوسل للموظف ويطلب منه موعدا متقدما للسفر، غير أن توسلاته باءت بالفشل، وقال له الموظف ردا على ذكر أمه المريضة: إن حالة أمك الصحية لا تعد حالة خاصة وأنصحك بعدم ذكر حالتها الصحية على الإطلاق.

توجه «ك» مباشرة من المحطة إلى ميدان (كاليدون) ووقف لمدة ساعتين فى طابور خلف امرأة تحمل طفلا باكيا، ثم قدموا له استمارتين واحدة لأمه والأخرى له، وقالت الشرطية الجالسة إلى المكتب: عليك بتثبيت حجز القطار بدبوس فوق الاستمارة الزرقاء والذهاب بعد ذلك لتقديمها فى الغرفة رقم (E-5).

هطلت الأمطار فأحضرت «أنَا ك» فوطة قديمة ووضعتها أسفل الباب حتى لا يتسرب الماء إلى الداخل، وكانت تفوح من الحجرة رائحة الديتول ومسحوق البودرة فهمست لنفسها قائلة: أشعر وكأننى كالضفدع الذى يعيش تحت الحجر، أنا لا أستطيع الانتظار حتى شهر أغسطس.

غطَّت وجهها ولاذت بالصمت وبعد لحظة اكتشف «ك» أنه لا يقوى على التنفس، فسارع بالذهاب إلى الدكان المقابل لزاوية البيت فقال له البائع: لا يوجد خبز ولا يوجد لبن، تعال غدا.

اشترى بسكويت وعلبة لبن مركز، ثم وقف تحت سقيفة من القش وراح يراقب سقوط المطر، وفى اليوم التالى تناول الاستمارات ومضى قاصدا الغرفة (E-5)؛ حيث قالوا له: سوف يتم إرسال التصريحات فى الوقت المناسب بعد مراجعتها والموافقة عليها من قبل الشرطة فى مقاطعة الأمير ألبرت.

عاد إلى العمل فى حديقة (دو وال) وقد أخبروه كما كان متوقعا أنهم لن يدفعوا له إلا فى نهاية الشهر، فقال لرئيس العمال: لا يهم فسوف أسافر أنا وأمى على أية حال.

تذكر زيارات أمه له حين كان يعمل بستانيا فى بلدية كيب تاون وكيف كانت تأتيه بأعشاب الخبز أحيانا وبسكويت الشيكولاته فى أحيان أخرى، كانا يذهبان معا للتمشية فى الملعب، ثم يتوجهان لشرب الشاى فى الصالة وفى أحد أيام الزيارة لمح عددا من الصبية يرتدون أفضل ما لديهم وينتعلون أحذية قماشية بنية اللون، كان بعضهم من الأيتام الذين ليس لهم أب أو أم، أما البعض الآخر فكان مجهول النسب وعندئذ راح يحدث نفسه قائلا: أبى ميت وأمى تعمل.

قام بترتيب بعض الوسائد والبطاطين فى ركن الحجرة وظل يمضى الأمسيات جالسا فى الظلام مستمعا إلى أنفاس أمه، كانت تنام عددا أكبر من الساعات يوما بعد يوم، وفى بعض الأحيان كان النوم يغلبه؛ حيث هو جالس وعندما يستيقظ فى الصباح كان يشعر بالصداع ولا يستطيع اللحاق بالحافلة فيمضى النهار فى التجوال بالشوارع فكل شىء متوقف ومعلق، بينما ينتظر مع أمه التصريح الذى لا يأتى.

ذات صباح مبكر من أيام الآحـاد توجه "مايكل" لزيارة حديقة (دو وال) وقام بكسر قفل المخبأ الذى يضع فيه عمال الحديقة معداتهم، ثم تناول بعض المعدات والعربة اليدوية وقام بدحرجتها إلى الوراء، وفى وسط الممشى خلف البيوت قام بتحطيم قفص قديم وألقى به نحو الرصيف على بعد قدمين مربعين، ربط العربة اليدوية فى ظهره المنتصب بسلك، ثم حاول إقناع أمه بالخروج للتنزه فوق العربة قائلا لها: إن الهواء الطبيعى بالخارج سوف يجعلك فى حال أفضل ولن يرانا أحد فالساعة قد تجاوزت الخامسة والواجهة خالية من الناس.

قالت: يستطيع الناس رؤيتنا من خلال نوافذ بيوتهم وأنا لا أحب أن يرانى أحد ولا أرغب فى تصدر المشهد.

فى اليوم التالى راقت لها الفكرة فرضخت وقبلت، ثم ارتدت القبعة والمعطف والشبشب، وراحت تجرجر قدميها عبر المساء الرمادى المتأخر، وطلبت من «مايكل» أن يضعها فوق العربة، مضى بها بموازاة الشاطئ مرورا بأحد المتنزهات المرصوفة عبر الواجهة البحرية، ولم يكن هناك أى شخص سوى رجل عجوز ورفيقته يسيران بصحبة أحد الكلاب، أمسكت «أنَا ك» بقوة فى جوانب العربة وراحت تتنفس هواء البحر البارد، بينما كان ابنها يجر العربة اليدوية لمئات من الياردات على طول طريق المتنزه ولا يتوقف إلا لكى يمنحها فرصة مراقبة الأمواج أثناء اصطدامها بالصخور، ظل يدفع العربة لمئات الياردات الأخرى، ثم توقف مرة أخرى، وبدا فى

العودة بعد أن شعر بالإحباط من وزنها الثقيل ومن عدم توازن العربة وقد مضت لحظات قبل أن تنزل من العربة وهو يقول لها: هل تسرب الهواء النقى إلى رئتيك؟

فى مساء اليوم التالى كانت الأمطار تتساقط فلم يستطيعا مغادرة الحجرة.

فكر فى عمل عربة كارو صغيرة بها صندوق محمول على زوج من العجلات، لكنه لم يكن يعرف كيفية الحصول على محاور تلك العجلات.

وذات مساء متأخر فى الأسبوع الأخير من شهر يونيو، اصطدمت سيارة جيب عسكرية أثناء سيرها بسرعة جنونية فى شارع الشاطئ بشاب كان يعبر الشارع، وقذفت به إلى الخلف وسط السيارات الواقفة فى الرصيف، ثم انحرفت السيارة الجيب حتى وقفتْ فوق أحد المروج المليئة بالأعشاب خارج ساحل (آزور)؛ حيث وجد اثنان من ركابها أنفسهما فى مواجهة زملاء الشاب الغاضبين ونشب القتال بينهم، وعلى الفور تجمع كثير من الناس وتحطم عدد كبير من السيارات الواقفة، وانتقل القتال إلى الشارع فأعلنت صفارات الإنذار حظر التجوال غير أن أحدا لم يلتزم، جاءت سيارة الإسعاف بمرافقة الدراجات النارية واتجهت نحو المزلقان بسرعة، لكنهم تصدوا لها بوابل من الحجارة، ثم بدأ رجل فى إطلاق

الرصاص من مسدسه وهو واقف فى شرفة الدور الرابع لإحدى الشقق فانطلقت الصرخات بين الناس المحتشدين واندفعوا فى اضطراب لتلافى الطلقات، ثم سارعوا إلى الاحتماء بالمبانى الكبيرة المنتشرة بموازاة شاطئ البحر وراحوا يتسابقون عبر الممرات ويدقون الأبواب ويحطمون النوافذ ومصابيح الإضاءة، أمسكوا بالرجل صاحب المسدس وقادوه من مخبئه، وظلوا يضربونه بلا وعى حتى قذفوا به فوق الرصيف مما جعل بعض المقيمين فى تلك الشقق يفضلون الاختباء خلف الأبواب المغلقة، بينما هرب البعض الآخر إلى الشوارع، وكانت ثمة امرأة محاصرة عند نهاية الممر وملابسها ممزقة فوق جسدها وشخص آخر كان يحاول التسلل والهرب، لكنه أصيب بكسر فى كاحله، حين جازف بتجنب النيران فى اللحظات نفسها التى كانوا يحطمون فيها الأبواب ويسرقون الشقق.

وفى إحدى الشقق الواقعة مباشرة فوق حجرة «أنَا ك» قام اللصوص بتمزيق الستائر وألقوا بالملابس فوق الأرض وحطموا الأثاث، ثم أشعلوا النيران، لكنها لم تنتشر وإنما نتج عنها سحابة من الدخان الكثيف، وفى المروج الخضراء الواقعة خارج ساحل (آزور) وساحل الذهب وقريبا من منطقة (كوباكابانا) احتشد جمع غفير من الجماهير والغوغاء؛ بعضهم يحمل كومات من البضائع المسروقة وراحوا يمسكون بأحجار الحديقة الصخرية ويلقون بها

فوق النوافذ المواجهة للبحر حتى تكسرت كل النوافذ ولم يسلم منها أى جزء صغير.

انطلقت سيارة الشرطة بأضوائها الزرقاء، وظلت تدور وتلف فى محيط خمسين ياردة، وحدث انفجار نارى من مسدس آلى قامت بالرد عليه طلقات مضادة من خلف حاجز للسيارات، وعندئذ عادت سيارة الشرطة مسرعة، بينما تراجع الحشد الكبير من الناس قاصدين طريق الشاطئ وهم يصرخون ويصيحون.

كانت عشرون دقيقة تفصل بين النهار وموعد حلول الظلام حين وصل أفراد الشرطة بصحبة قوات مكافحة الشغب، وسارعوا باحتلال كل الطوابق فى المبانى المتضررة، ولم يجدوا أى مقاومة من الخصوم واللصوص سارقى الشقق الذين تقهقروا وفروا هاربين للاختباء فى الأزقة والحوارى، إلا أن أحدهم وكانت امرأة ماتت بطلقة نارية؛ لأنها لم تستطع الجري بسرعة كافية واستطاع رجال الشرطة التقاط كمية كبيرة من البضائع المكدسة على طول الشوارع وفوق المروج، وفى وقت متأخر من الليل كان أصحاب الشقق يستخدمون المصابيح اليدوية فى البحث عن مقتنياتهم المسروقة، وعند منتصف الليل وقبل الإعلان عن انتهاء العملية عثروا على واحد من المشاغبين فى أحد الأركان المظلمة عند ممر إحدى البنايات على مسافة من الطريق العام، وأخذوه بعيدا، وظل الحرس فى أماكنهم طوال الليل للمتابعة، بينما تراجعت القوة الأساسية،

وفى الساعات الأولى من الصباح اشتدت الرياح وبدأت الأمطار الغزيرة فى السقوط وراحت تضرب النوافذ المهشمة فى ساحل (آزور) وساحل الذهب و(كوباكابانا) بالإضافة إلى (إيجريمونت) ومرتفعات (ماليبو) التى ما زالت حتى هذه اللحظة تشكل محمية لممرات الشحن فى الخليج.

خلال تلك الأحداث لم تبرح «أنَا ك» وابنها حجرتهما القابعة تحت السلالم، وظلا مختبئين داخلها كالفئران دون أن يتحركا رغم سماعهما لخطوات الأحذية الثقيلة القريبة وبعض الأيادى الخفية وهى تعبث بالباب المغلق، وحتى حين امتلأت الحجرة بالدخان ولم يدرك كلاهما أن الشغب وحالة الاضطراب والصراخ وطلقات النار وصوت الزجاج المهشم كانت كلها أحداثا مقصورة على المبانى المجاورة، وبينما كانا يجلسان جنبا إلى جنب فوق السرير لم يجرؤ أيهما على أن يهمس للآخر، وتأكدت لديهما حقيقة أن الحرب قد اندلعت فى (السى بوينت)، وبعد وقت طويل من منتصف الليل راحت أمه فى النوم، بينما جلس هو منصتا بآذان صاغية إلى ما يحدث بالخارج ومحدقا فى خيط الضوء الرمادى المنبعث من تحت الباب وكانت أنفاسه سريعة ومتلاحقة، عندما بدأت أمه فى الشخير ظل يربت فوق كتفها؛ كى تتوقف.

جلس «مايكل» فى وضع مستقيم مستندا بظهره إلى الحائط حتى استسلم أخيرا للنوم، وعندما استيقظ كان الضوء المنبعث من

تحت الباب أكثر إشراقا، فتح الباب وتسلل إلى الخارج فوجد الزجاج متناثرا فى الممر، وعند مدخل البناية شاهد جنديين من ظهرهما جالسين فوق الدكة، ويرتدى كل منهما خوذته وراح يحدق فى قطرات المطر وفى مياه البحر الرمادية، ثم تسلل عائدا إلى حجرة أمه وذهب إلى النوم فوق الحصيرة.

بدأ سكان ساحل (آزور) فى اليوم نفسه بترتيب الفوضى التى لحقت بهم وراحوا يحزمون أشياءهم وأمتعتهم، وبالنظر إلى الأضرار والخسائر لم يقدروا على فعل أى شىء سوى البكاء، وعندما توقفت الأمطار قام «مايكل» بمسيرة إلى شارع (أوليفانت) الواقع فى منطقة (جرين بوينت) قاصدا إرسالية سانت جوزيف التبشيرية؛ حيث كان المرء فى السابق يستطيع الحصول على طبق من الحساء وسرير للنوم دون توجيه أسئلة، ساوره الأمل أن تقيم أمه فى الإرسالية بعض الوقت بعيدا عن البناية المدمرة، لكنه لم يجد تمثال سانت جوزيف وصولجانه ولا حتى اللوحة البرونزية فوق واجهة البوابة، وكانت النوافذ مغلقة، طرق الباب المجاور للبوابة فسمع صوت ألواح الأرض الخشبية، لكن أحدا لم يفتح له الباب.

كان «مايكل» يعبر شوارع المدينة أثناء ذهابه إلى العمل، ويواصل سيره عبر الممرات بصعوبة كل يوم بصحبة حشد كبير من العاطلين والمعدمين الذين قاموا فى السنوات الماضية بتنظيف الشوارع ورصفها فى الأحياء الرئيسية، وكانوا يتوسلون أو يسرقون،

أو ينتظرون فى طوابير أمام وكالات الإغاثة، أو يجلسون بهدوء فى ردهات المبانى العامة؛ بحثا عن الدفء أو العثور على مأوى فى الليل فى ممرات المخازن والمستودعات الضيقة حول أحواض السفن أو البنايات المهجورة بجوار شارع (برى)؛ حيث لا تستطيع الشرطة المغامرة باقتحام مثل تلك الأماكن، كانت مدينة كيب تاون الكبيرة تعج بالناس القادمين من الريف؛ بحثا عن أى نوع من العمل قبل أن تفرض السلطات سيطرتها على حركة الناس وتنقلاتهم، ولم تكن فرص العمل متوفرة ولم يكن من اليسير العثور على مكان للإقامة، ففكر «ك» بينه وبين نفسه وقال: ماذا لو انضممت أنا وأمى إلى تلك الجموع الغفيرة من الأفواه الجائعة؟ وكم من الوقت الذى سأمضيه فى مساعدة أمى لعبور الشوارع بالعربة اليدوية ونحن نتوسل طلبا للطعام؟ كان يسير هائما فى الشوارع كل يوم بلا هدف، ثم يعود للحجرة غارقا فى الظلام والكآبة بعد أن يستبد به التعب ولا يجد لوجبة العشاء سوى الحساء والبقسماط وسمك الرنجة المجفف، وكان حريصا على إخفاء الموقد خلف البطانية حتى لا تتسبب النار المنبعثة منه فى شد انتباه الناس الجوعى وإلا لما استطاع هو وأمه أن ينعما بوجبة العشاء.

ظل «مايكل» وأمه يأملان فى السماح لهما بمغادرة المدينة، لكن صندوق البريد المفترض أن ترسل الشرطة إليه الإذن بالرحيل كان مغلقا ولم يكن بمقدور أحد معرفة أى شىء؛ لأن رجال الشرطة

المسئولين قد فروا بعد أحداث السلب والنهب فى تلك الليلة وتركوا مكاتبهم دون أن يقولوا كلمة واحدة تفيد بموعد عودتهم، فأرسلت «أنَا ك» ابنها إلى البيت فى محاولة للعثور على مفتاح الصندوق.

لم يكن «مايكل» قد اجتاز عتبة المبنى من قبل، ولحظة دخوله وجده فى حالة من الفوضى والارتباك، كانت الرياح القادمة من خلال النوافذ شديدة فتحطم الأثاث وتآكلت المراتب وتناثرت منها الحشرات وانتشرت شظايا الزجاج والأوانى الفخارية فى كل مكان، وكانت النباتات المزروعة ذابلة والأسِرَّة والسجاجيد مبللة، وأثناء سيره وفى محاولة منه لتخطى كل تلك العقبات التصق حذاؤه بعجينة الكعك وحبوب الإفطار والسكر وبقايا إفرازات القطط والتراب، وفى المطبخ كانت الثلاجة مقلوبة على وجهها ومحركها لا يزال يعمل وتنبعث منه أصوات كخرير المياه، وكانت الأرضية القرميدية ملطخة بالرغاوى الصفراء، وصفوف من الأباريق كانت مقلوبة فوق الأرفف وكان من اليسير على «مايكل» أن يشم رائحة نبيذ عفن وفوق الحائط الأبيض اللامع كتب شخص ما: إلى الجحيم.

قام «مايكل» بإقناع أمه بالدخول بنفسها لرؤية ما لحق بالمبنى من دمار ولم تكن قد صعدت إلى الدور العلوى فى الشهرين الأخيرين، وقفتْ فوق اللوحة عند مدخل باب حجرة الاستقبال وقد اغرورقتْ عيناها بالدموع، وقالتْ وهى تهمس لنفسها: لماذا فعلوا كل ذلك؟

لم ترغب فى دخول المطبخ وقالت: كيف سيستطيع مثل أولئك الناس الطيبون التعافى من ذلك الدمار وكيف سيجتازون تلك المحنة؟

ساعدها «مايكل» فى الوصول إلى حجرتها، لكنها لم تشعر بالاستقرار، وظلتْ تسأل مرة بعد أخرى عن المكان الذى اختبأ فيه رجال الشرطة ومن الذى سيقوم بتنظيف المكان بعد عودتهم.

ترك «مايكل» أمه وعاد إلى البناية المدمرة وأفرغ محتويات الثلاجة المقلوبة، ثم عدلها وراح يكنس الزجاج المهشم ويضعه بأحد الأركان، كما قام بمسح المياه وقام بتعبئة كثير من أكياس القمامة وتركها عند عتبة الباب الأمامى، كان بعض الطعام لا يزال صالحا للأكل فوضعه فى مكان معين، لكنه لم يحاول تنظيف الصالون وإنما عمل كل ما يستطيع؛ لتثبيت الستائر فى فجوات النوافذ، وقال لنفسه: إننى أفعل ما أفعله من أجل أمى وليس من أجل الناس كبار السن.

كان من الواضح أن رجال الشرطة لم يستطيعوا العيش فى ذلك المكان قبل إصلاح النوافذ وإزالة الروائح الكريهة عن السجاجيد، وحتى «مايكل» لم يكن يفكر قط فى الحصول على شقة لنفسه إلا حين شاهد الحمام لأول مرة.

قال لأمه وكأنه يتوسل: فقط لليلة واحدة أو ليلتين!! يمكننا عندئذ أن ننعم بفرصة النوم والتمدد بحرية ونستطيع أيضا أن نفكر فيما سوف نفعله بعد ذلك، سأضع أريكة الاسترخاء داخل الحمام وفى الصباح التالى سأعيد كل شىء إلى مكانه، أعدك بذلك ولن يستطيعوا معرفة ما حدث.

سحب الأريكة داخل الحمام ووضع فوقها مجموعة من الملاءات ومفارش المائدة، وقام بحشر ورق الكرتون المقوى بين فتحات النافذة، ثم أضاء الحمام، وكان الماء الساخن متوفرا فانتهز الفرصة وأخذ حماما ساخنا، وفى الصباح سارع بإخفاء كل الآثار الناجمة عن وجوده، وحين جاء البوسطجى لم يكن ثمة شىء يخص رجال الشرطة، وكانت الأمطار تتساقط عندما خرج وجلس تحت سقيفة الحافلة وهو يتأمل سقوط الأمطار عند منتصف الظهيرة أصبح واضحا أن رجال الشرطة لن يعودوا فلم يتردد فى العودة إلى البناية.

ظلت الأمطار تتساقط يوما بعد يوم ولم يحدث ما ينبئ عن قدوم رجال الشرطة، فراح «مايكل» يزيح المياه الراكدة ويعمل على تسليك المواسير، وعلى الرغم من تعرض البناية للرياح فإن رائحة الأرضيات العفنة لم تتوقف وأصبحت أكثر عفونة، قام بتنظيف أرضية المطبخ وذهب لوضع أكياس القمامة فى الطابق الأسفل.

لم يعد يقضى وقته فى البناية بالليل فقط وإنما طوال فترة النهار أيضا، وقد اكتشف ـ ذات مرة ـ كومة من المجلات فى دولاب المطبخ، وكان يرقد مسترخيا فوق السرير أو فى الحمام وهو يتصفح صور النساء الفاتنات والطعام الشهى، لكنه لم ينبهر بالنساء قدر انبهاره بالطعام، وعرض على أمه صورة القطعة اللامعة من لحم الخنزير المشوى المزركشة بحبات الكرز وقطع الأناناس الدائرية الموضوعة فى طبق كبير، يتزين من جوانبه بحبات التوت والكريمة وكعك الفاكهة.

قالت أمه: لم يعد الناس يأكلون مثل هذه الأشياء.

لم يوافق على ما قالته أمه وقال: إن الخنازير لا تعلمأن الحرب قائمة، وكذلك الأناناس لا يعرف شيئا عن الحرب، والطعام موجود، ولا بد من وجود شخص ما ليتناوله.

عاد إلى المكان الذى كان يسكن فيه ودفع الإيجار المتأخر، وقال للمسئول: لقد تخليت عن عملى وسأذهب أنا وأمى إلى الريف؛ كى نبتعد عن هذا القلق والتوتر ونحن الآن فى انتظار التصريح.

تناول دراجته وحقيبته، ثم خرج وتوقف عند فناء بيع الخردة، واشترى قصبة لقياس الأطوال، وكانت عربة اليد بمقعدها الخشبى موجودة؛ حيث تركها فى أحد الأزقة خلف البيوت وعاد فى التو للتخطيط فى كيفية استخدام عجلات دراجته لعمل عربة الكارو؛

حيث يمكنه القيام باصطحاب أمه فوقها للتنزه، وعلى الرغم من تحرك العجلة بسلاسة حول المحور فإنه لم يجد طريقة لمنع العجلة من الدوران السريع وظل لعدة ساعات ـ قبل أن يتوقف ـ يحاول دون جدوى فى تثبيتها بالسلك، ثم قال لنفسه: سيحدث لى شىء ما.

ثم ترك الدراجة مفككة فوق أرضية المطبخ.

عثر على راديو صغير وكان مؤشر الراديو متوقفا عند نهايته والبطاريات على وشك النفاذ، فلم يحاول كثيرا تشغيله وبالبحث فى أدراج المطبخ عثر على وصلة من السلك قام بتوصيلها بالتيار الكهربائى، فأصبح قادرا على الرقاد فى الحمام فى الظلام وهو يستمع إلى الموسيقى فى الحجرة المجاورة، وكانت الموسيقى تساعده أحيانا على النوم ولا يستيقظ سوى فى الصباح دون أن تتوقف الموسيقى، وبين قطعة من الموسيقى وأخرى كان الراديو يتحدث بلغة لا يفهم منها «مايكل» ولا كلمة واحدة غير أنه استطاع أن يلتقط بعض أسماء الأماكن البعيدة مثل «ووكرستروم» و« بيترسبورج» و«مدينة كينج وليام» وفى بعض الأحيان كان يغنى بلا نغمات ودون أن يدرى.

شاهد كل المجلات وبعد أن عاود تصفحها مرارا بدأ فى تقليب صفحات الجرائد القديمة الملقاة تحت حوض المطبخ، كانت الجرائد

قديمة جدا حتى إنه لم يتذكر أيا من الأحداث المكتوبة فيها، لكنه استطاع معرفة بعض أسماء لاعبى كرة القدم، وكان أحد العناوين الرئيسية فى واحدة من تلك الصحف يتحدث عن قاتل «كاميسكرون»، وتعرض صورته بقميصه الأبيض المقطوع ويديه المقيدتين بالأغلال واقفا بين شرطيين ترتسم على وجهيهما علامات الصرامة، وعلى الرغم من تأثير الأغلال على حركة كتفيه فإن قاتل «كاميسكرون» كان ينظر إلى الكاميرا بابتسامة هادئة توحى بالانتصار أو هكذا رآه «مايكل»، وتحت هذه الصورة كانت صورة أخرى لبندقية بحامل مكتوب عليها (سلاح القاتل)، لصق «مايكل» صفحة الجريدة فوق باب الثلاجة، وبعد ذلك بعدة أيام حين كان يعاود عمله المتقطع فى عجلات العربة اليدوية لم تبرح عيناه عينى القاتل.

ارتبك من كثرة الأشياء التى ينبغى عليه القيام بها، فحاول أولا أن يجفف الكتب التى غمرتها المياه، وراح يصفها فى خط مستقيم بالصالون، لكنه فقد اهتمامه وتوقف بعد مضي وقت طويل من المحاولة، لم يكن مهتما بالكتب من قبل قط، ولم تكن القراءة من أولوياته، ولم يجد شيئا يشد انتباهه فى قصص رجال الجيش أو فى حكايات النساء اللاتى يحملن أسماء؛ مثل «لافينيا»، مع أنه كان يقضي بعض الوقت فى نزع الصفحات من الكتب المصورة التى تحمل صورا لجزر الأيونى وبرابرة إسبانيا وبحيرات فنلندا وبالى وأماكن أخرى كثيرة من العالم.

سمع «مايكل» ذات صباح صرير الباب الرئيسى، وعندما بادر بالتوجه ناحيته وجد نفسه فى مواجهة أربعة رجال يرتدون ثياب العمل، اندفعوا بجواره دون توجيه كلمة واحدة له وشرعوا فى الاستيلاء على محتويات الشقة، فسارع بتحريك أجزاء دراجته بعيدا عن طريقهم، لكن أمه أوقفتْ واحدا من الرجال الأربعة عند السلالم حين كانت ترتدى الروب وتجرجر قدميها للخروج من الحجرة وسألته: أين الرئيس؟ أين السيد «بوهرمان»؟

تجاهلها الرجل وكأنه لم يسمع شيئا وخرج «ك» فى تلك الأثناء إلى الشارع، وراح يتحدث مع سائق الحافلة حتى سأله قائلا: هل أنتم قادمون من عند السيد «بوهرمان»؟

قال السائق: عمن تتحدث يا رجل؟

قالت أمه وهو يهم بمساعدتها فى العودة إلى سريرها: لا أعرف لماذا لم يساعدونى فى معرفة أى شىء، وماذا ينبغى إذن أن أفعل إذا طرق شخص ما الباب وأخبرنى أنه يريد أخذ كل شىء فى الحال وأنه يريد الحجرة لخادمته؟ وأين يمكننى عندئذ أن أذهب؟

جلس إلى جوار أمه فترة طويلة ظل خلالها يداعب شعرها بيده ويستمع إلى نواحها وكلمات الرثاء المتتالية المنطلقة من فمها، ثم تناول عجلتى الدراجة والقضيب الصلب ومعداته وخرج إلى الممشى؛ حيث جلس عند بقعة من الضوء للعمل من جديد على إصلاح الدراجة وظل يعمل طوال فترة ما بعد الظهر، وعندما جلَّ

المساء تمكن من تثبيت السلك حول قضيب المحور ووضع الحلقات المعدنية حوله لمنع تسرب الزيوت فوق العجلات، وبدا فى النهاية أنه قد أوشك على حل المشكلة، لكنه لم يستطع أن ينام جيدا فى تلك الليلة، كما أنه لم يتناول إلا القليل من الطعام، وكان متعجلا لمواصلة عمله والتقدم فيه فسارع بالبدء فى تفكيك مقعد عربة اليد وأعاد تشكيله على شكل صندوق ضيق بثلاثة جوانب ومقبضين طويلين قام بتوصيلهما فى محور العربة بسلك، وأصبح عندئذ يمتلك عربة هندية صغيرة، وعلى الرغم من أنه قام بعملها وإصلاحها بمشقة فإنه يستطيع أن يحمل أمه عليها، وحتى حين تهب الرياح القوية الباردة قادمة من الجهة الشمالية الغربية ولا يستطيع الناس الخروج، فإنه يكون قادرا على اصطحاب أمه بعد أن يلفها بالمعطف والبطانية والسير بها بمحاذاة البحر الذى يجعل الابتسامة ترتسم فوق شفتيها.

شعر أن الوقت قد حان وقال لنفسه: نحن نبدد وقتنا فى انتظار التصاريح، والتصاريح قد لا تأتى أبدا.

لن يستطيع «مايكل» وأمه أن يستقلا القطار دون الحصول على التصاريح وهما معرضان فى أى يوم من الأيام للطرد من الحجرة، وهل ستكون عندئذ غير قادرة على السماح له باصطحابها فى العربة اليدوية إلى مقاطعة الأمير ألبرت؟ لقد رأتْ بنفسها أنها عربة مريحة وهى تعانى من تدهور صحتها هنا؛ بسبب ذلك الجو

المشبع بالرطوبة، وأيضا لقلقها الدائم بشأن المستقبل، لكنها تعرف أنها ستستعيد صحتها بسرعة إذا ما استقرتْ فى مقاطعة الأمير ألبرت وأن الطريق إلى هناك لن يستغرق سوى يوم أو يومين على الأكثر، كما أنها متأكدة من كرم الناس وطيبتهم وأنهم لن يترددوا فى تقديم يد العون.

ظلَّ يتناقش مع أمه وقتا طويلا مستخدما كل مهاراته فى التوسل، وشرح لها كيفية اعتراضه على أن تسافر فوق العربة اليدوية المفتوحة فى ذلك الشتاء، لكنها لم توافق على تحفظاته فاستجاب لها، إن الرحلة إلى مقاطعة الأمير ألبرت قد تستغرق يوما كاملا، وهى الرحلة نفسها التى تستغرق خمس ساعات بالسيارة فقالت الأم متسائلة: وماذا سيحدث لو أن الأمطار تساقطت؟

أجاب «مايكل»: سأضع سقفا من القماش فوق العربة.

وماذا لو قامت الشرطة بإيقافنا؟

قال «مايكل»: أعتقد أن الشرطة لديها الكثير مما يجب أن تفعله، وليس من بين تلك الأشياء الكثيرة أن تشغل نفسها بالعمل على إيقاف الأبرياء من أمثالنا، الذين لا يحلمون بشىء سوى فرصة الابتعاد عن المدينة المزدحمة بالناس والسيارات، ثم لماذا تريد لنا الشرطة أن نقضى الليالى مختبئين فى حفرات الناس الصغيرة ويريدوننا أن نتوسل فى

الشوارع، ونعمل على إزعاج أنفسنا ومضايقتها. اقتنعت أمه بما قاله، ولكنها اشترطت أن يذهب إلى الشرطة أولا فى زيارة أخيرة لمعرفة أخبار التصاريح وأن تجهز هى نفسها للرحلة دون تسرع، فرح «مايكل» بما قالته أمه ووافق على الفور.

فى الصباح التالى وبدلا من انتظار الحافلة لفترة طويلة قد لا تأتى بعدها أبدا، هرول من السى بوينت، قاصدا المدينة عبر الطريق الرئيسى بعد الاطمئنان على دقات قلبه والتأكد من قوة أعضاء جسده، كان عشرات من الناس يقفون فى طوابير تحت لافتة مكتوب عليها (هيرفستايجينج للنقل)، مضت ساعة كاملة وجد نفسه بعدها أمام الشباك فى مواجهة امرأة من الشرطة ذات عينين يقظتين.

أخرج تذاكر القطار وقال لها: إننى أريد فقط أن أسأل عن التصاريح الخاصة بهذه التذاكر.

دفعت ناحيته بالاستمارات وقالت: املأ هذه الاستمارات واذهب بها إلى قسم E- S، هل معك التذاكر وبيانات الحجز؟

ثم راحت تحدِّق من فوق كتف «ك» إلى الرجل الواقف خلفه وقالت له: نعم.

قال «ك» وهو يجاهد لكى تعاود الانتباه له: لا، لكننى قدمت طلبا بالفعل من أجل الحصول على التصريح فهل وصل التصريح أم لا؟ هذا كل ما أريد معرفته الآن.

● قبل أن تتمكن من الحصول على التصريح يجب أن تكون قد انتهيت من عملية الحجز، هل قمت بالحجز إذن؟ ومتى؟

● فى الثامن عشر من أغسطس لكن أمى.......

● باقى شهر كامل على الثامن عشر من أغسطس، وإذا كنت قد قدمت طلبا للحصول على التصريح كما تقول، وإذا تمت الموافقة على طلبك فسوف يأتى التصريح وسيتم إرساله إلى عنوانك.

ثم نادت على الشخص الذى يليه قائلة: التالى.

قال «مايكل» : وهذا ما أريد معرفته؛ لأننى يجب أن أفكر فى خطط أخرى فى حالة عدم الموافقة على التصريح؛ لأن أمى مريضة.

ضربت المرأة بيدها فوق المنضدة؛ كى تجبره على السكوت وقالت: لا تبدد وقتى وهأنذا أقول لك للمرة الأخيرة: إن التصريح سيصل إليك إذا وافقوا، ألا ترى كل أولئك الناس فى الطابور؟ وهل أنت غير قادر على الفهم؟ أم أنك مغفل وأحمق؟

رفعتْ نفسها فوق المنضدة وراحت تحدِّق بحدة من فوق كتف «ك» ثم استطردتْ وهى تشير إلى الواقف خلفه: التالى، نعم، أنت.

لكن «ك» لم يتزحزح من مكانه، وبدا أنه يتنفس بطريقة متسارعة وهو يتفرس ما حوله بعينين جاحظتين مما جعلها تعاود

النظر إليه على مضض، ثم نظرت إلى شاربه الرقيق وشفته الكبيرة وقالت: التالى.

فى اليوم التالى وقبل حلول الفجر بساعة قام «مايكل» بإيقاظ أمه من النوم، وأثناء ارتدائها لملابسها وتجهيز نفسها راح يملأ العربة الكارو بأغراضهما ويحشو الصندوق بالبطاطين والوسائد ويربط الحقيبة حول قضيب العربة، غطى العربة بغطاء بلاستيكى أسود فبدت شبيهة بعربة الأطفال الطويلة، وحين شاهدتها أمه هزَّتْ رأسها وقالتْ: أنا لا أعرف، لا أعرف، لا أعرف ولا أستطيع الصعود.

مضى وقت طويل فى محاولة إقناعها بالصعود إلى العربة الكارو التى أدرك فجأة أنها لم تكن فى الحقيقة كبيرة بما يكفى لصعودها بطريقة سهلة، كانت العربة قادرة على تحمل وزنها، ولكن كان عليها أن تجلس متكورة تحت الغطاء البلاستيكى الأسود ولم يكن بمقدورها أن تحرك أطراف جسدها، وضع «مايكل» بطانية فوق قدميها، ثم قام بحشو كيس من الطعام وموقد الغاز وزجاجة من الوقود وبعض أطراف وبقايا الملابس داخل أحد الصناديق، لمح ضوءا ينبعث من الشقق المجاورة، ثم استطاع هو وأمه أن يسمعا صوت ارتطام الأمواج فوق الصخور، فهمس لنفسه قائلا: إنه يوم أو يومان فقط ونصل إلى هناك.

أشارتْ الأم برأسها قائلة: لا تتحرك كثيرا من جانب لآخر حفاظا على التوازن.

بدأ «مايكل» فى إخفاء وجهها بقفازتها الصوفية وانحنى ناحيتها وقال: أترغبين فى البقاء يا أمى؟ إذا كنت ترغبين فى البقاء فإننا نستطيع البقاء.

هزتْ رأسها فسارع بارتداء قبعته ورفع المقابض، وراح يجر العربة عبر الطريق المليء بالضباب.

مضى عبر أقصر الطرق بمحاذاة المنطقة المدمرة، وحول خزانات الوقود القديمة، ووسط دمار وخراب البنايات المحروقة، مرورا بأحواض السفن وهياكل المخازن الملطخة بالسواد التى استولت عليها عصابات الشوارع فى العام الماضى، لم يتوقفا فى سيرهما غير أنهما لم يسلما ـ فى تلك الساعة المبكرة ـ من نظرات بعض الناس المحدقة، وكانت وسائل نقل الغرباء قد بدأت تظهر فى الشوارع، وكذلك سيارات النقل المحملة بالقضبان والدراجات ذات الصناديق بعجلاتها الثلاث المثبتة عند محاورها الخلفية، وثمة سلال وصناديق مكدسة فوق عربات يد من مختلف الأحجام وأكثر من مائة عربة كارو تمشى على عجلات وأخرى يجرها حمار.

ظل «ك» يمشى بخطوات ثابتة، ولم يتوقف إلا كل نصف ساعة؛ ليفرك يديه الباردتين ويحرك كتفيه المتألمتين، عندما اطمأن إلى

جلوس أمه بارتياح فوق العربة الكارو اكتشف أن الأمتعة الثقيلة المكدسة فى مقدمة العربة قد تسببت فى زحزحة المحور عن المركز مسافة كبيرة إلى الخلف، مما جعله يشعر بثقل أكثر وخاصة كلما اعتدلت أمه فى جلستها؛ بحثا عن الراحة، لكنه احتفظ بالابتسامة مرتسمة فوق وجهه؛ للتغلب على الإجهاد الذى يشعر به.

قال وهو يلهث: ها نحن على وشك الوصول إلى الطريق العام الخالى من العقبات، وعندئذ سنجد أنفسنا أمام شخص ما مكلف بإيقافنا.

فى وقت الظهيرة كانا يسيران فى حى (باردن إيلاند) الصناعى المخيف ومرا بالقرب من رجلين يتناولان الشطائر وهما مستندان إلى الحائط، شعر «ك» بخدر فى ذراعيه ولم يعد يشعر بهما، لكنه مضى فى سيره نصف ميل آخر، وعندما وصل إلى الطريق السريع الملىء بالأشجار القريب من النهر راح يساعد أمه فى النزول من فوق العربة، ثم عاونها فى الجلوس عند حافة العشب تحت الجسر حيث تناولا طعام الغذاء، لكنه أصيب بالدهشة من الطرق الشاغرة غير المزدحمة وذلك الهدوء الذى تمكن من خلاله أن يسمع غناء الطيور، رقد فوق الأعشاب الكثيفة ثم أغلق عينيه.

استيقظ على صوت قعقعة فى الهواء فاعتقد فى البداية أنه صوت رعد قادم من بعيد، ثم ارتفعت حدة الأصوات، وأصبحت

أكثر صخبا، وراحت تضرب قاعدة الجسر على شكل موجات من فوقهما ومن على يمينهما ومن ناحية الاتجاه المؤدى إلي المدينة جاء اثنان يرتديان زيا موحدا ويركبان دراجتين بخاريتين ويضعان الأسلحة النارية خلف ظهريهما، ثم ظهرت سيارة مصفحة من خلفهما يقف فوقها أحد رجال المدفعية، وقد تبعها موكب طويل ومتنوع من السيارات الثقيلة كانت معظمها من الشاحنات الفارغة من الحمولة، زحف «ك» ناحية أمه وجلسا جنبا إلى جنب وظلا يراقبان ما يحدث وسط ضجيج تلك السيارات والشاحنات الثقيلة، فلم يعد الجو هادئا، ولم يعد بمقدوره سماع غناء الطيور، لم يستغرق عبور القافلة سوى دقائق معدودة، وكانت شاحنة الجيش بلونها الزيتونى الأخضر وسقفها القماشى تسير فى المقدمة، ويقف فى وسطها جنديان يرتديان الخوذات العسكرية وإلى جوارها زوجان آخران من الدراجات البخارية، أما مؤخرة القافلة فكانت تتكون من عشرات السيارات والحافلات الصغيرة والشاحنات الخفيفة.

ألقى أحد راكبى الدراجات البخارية نظرة فاحصة إلى «ك» وأمه أثناء مروره بجوارهما، وفى اللحظة نفسها كان آخر اثنين من راكبى الدراجات قد انسلخا عن الموكب، وراح أحدهما ينتظر على جانب الطريق، بينما كان الآخر يعبر المنحدر ويشير إلى «ك» وأمه، قال لهما وهو يرفع حافة الخوذة: ممنوع الوقوف فى الطريق السريع.

ثم نظر إلى داخل العربة نظرات فاحصة وقال مخاطبا «ك»: هل هذه عربتك؟

أشار « ك» برأسه قائلا: نعم.

وإلى أين أنت ذاهب؟

همس «ك» بصوت متحشرج: إلى مقاطعة (الأمير ألبرت).

تساءل الرجل باندهاش وهو يصفر: بهذه العربة الكارو؟

هزَّ العربة برفق وخاطب رفيقه بشىء ما، ثم عاود الحديث مع «ك»، وقال له: عبر الطريق وعند المنحنى بالضبط توجد نقطة تفتيش، ستقف عند نقطة التفتيش وسيطالبونك بالتصريح، لا بد لك من الحصول على تصريح لمغادرة (بينينسولا).

نعم.

لا تستطيع مغادرة (بينينسولا) دون تصريح، اذهب إلى نقطة التفتيش واعرض عليهم التصريح وكل أوراقك الثبوتية.

ثم استطرد قائلا: اسمعنى جيدا، تحتاج للتوقف عند الطريق السريع وعليك أن تبتعد خمسين مترا عن جانب الطريق، هكذا هو القانون وتلك هى القاعدة، خمسون مترا من كلا الجانبين وإذا اقتربت أكثر سيطلقون عليك الرصاص دون تحذير ودون مساءلة، هل فهمت؟

أومأ «ك» برأسه فانطلق الرجل فوق دراجته؛ كى يلحق بالقافلة، ثم قال «ك» لأمه دون أن يجرؤ على النظر فى عينيها: ينبغى أن نسلك طريقا آخر أكثر أمنا.

شعر بالخزى والعار، لكنه استدار فى الحال إلى الخلف وساعد أمه فى الصعود إلى العربة، وراح يدفع العربة، حتى وصل بالقرب من سيارة جيب عسكرية كانت متوقفة عند جانب الطريق وإلى جوارها ثلاثة من الجنود يصنعون الشاى فوق أحد مواقد المخيمات، توسل إليهم بكل الطرق أن يمضى فى طريقه، لكن كل توسلاته باءت بالفشل، وقال له أحدهم: هل معك تصريح بالمغادرة؟ نعم أم لا؟ أنا لا يهمنى من تكون ولا تعنينى أمك فى شىء وما إذا كانت مريضة أم لا؟ وإذا لم تكن تملك تصريحا فلن تستطيع مغادرة هذه المنطقة، هذا كل شىء!

اتجه «ك» ناحية أمه، كانت تجلس داخل العربة وراحت من تحت سقفها القماشى تنظر بإمعان وبلا مشاعر إلى الجندى الشاب الذى أشاح بيديه، وصاح قائلا: لا تحملينني المسئولية فأنا لا أريد سوى التصريح وعندئذ سأترككما تعبران.

ظل الجندى يراقب «ك» وهو يحرك عجلات العربة وكانت إحدى تلك العجلات قد بدأت تتمايل.

بعد عبور «مايكل» وأمه الإشارة الضوئية المشيرة إلى طريق

الشاطئ ساد الظلام، وكانت المخلفات المرفوعة التى أغلقت الطريق بعد حصار البنايات السكنية قد انتقلت إلى المروج المجاورة، كان المفتاح لا يزال فى باب الحجرة تحت السلم وكانت الحجرة كما هى، لكنها بدت نظيفة أكثر مما كانت عليه؛ استعدادا لتأجيرها لساكن آخر، ارتدتْ "«أنَا ك» معطفها وألقت بنفسها فوق الفراش، بينما راح «مايكل» يحضر أمتعته من العربة الكارو حينها اكتشف أن الوسائد مبللة من الأمطار فهمس قائلا لأمه: سنحاول مرة أخرى خلال يوم أو يومين.

هزَّتْ رأسها فأضاف: إن التصريح لن يأتى يا أمى وسنحاول مرة أخرى لكننا سنتوجه فى تلك المرة عبر الطرق الخلفية، إنهم لا يستطيعون إغلاق كل الطرق المؤدية للخروج من (السى بوينت).

جلس إلى جوارها فوق الفراش واضعا يده حول ذراعيها وظلَّ هكذا حتى غلبها النوم؛ ثم صعد السلالم؛ لينام فى طابق (البوهرمان).

بعد يومين وقبل الفجر بساعة كاملة بدأ «مايكل» وأمه فى الرحيل ومغادرة منطقة (السى بوينت) من جديد وقد فقدا شعورهما بالاستمتاع الذى صاحبهما فى المغامرة الأولى، عرف «ك» منذ اللحظة أنهما سيقضيان ليالىَ كثيرة فى الطريق، وعرف أيضا أن أمه قد فقدت حماسها للسفر إلى أماكن بعيدة، إنها تعانى من

آلام فى صدرها، وكانت تجلس متيبسة كالجثة ومتجهمة داخل الصندوق فوق العربة الكارو وتحت غطاء القماش المشمع الذى قام «ك» بتثبيته؛ لكى يحفظها من الأمطار، مضى فى الطريق الجديد من خلال وسط المدينة وعبر طريق «سير لاورى» والطريق الرئيسى المؤدى إلى الضواحى بخطوات ثابتة وكانت إطارات العجلات تصدر أصواتا كالأزيز فوق الطريق الأسفلتى المبلل، ثم مضى فى طريقه بجسر (ماوبراى) للسكك الحديدية بالقرب من مستشفى الأطفال فى شارع (كليبفونتين) القديم ولم يتوقف للمرة الأولى إلا بالقرب من حاجز مكسور يؤدى إلى مجموعة من الأكواخ الحديدية المغطاة بورق الكارتون، تناول «ك» بعض الطعام مع أمه، ثم وقف عند جانب الطريق، تعلقتْ أمه بأحد ذراعيه وراحتْ تشير إلى السيارات العابرة، وكان من بين تلك السيارات ثلاث شاحنات تغطى الأسلاك نوافذها وفوانيس إضاءتها، وبعد فترة قصيرة عبرت أمامهما عربة فاخرة تجرها جياد ذات ألوان كستنائية تحيط بها عناقيد من الأجراس مثبتة فوق السرج ويقودها مجموعة من الأطفال، ظل الأطفال يسخرون من «ك» وأمه ويشيرون إليهما بإشارات قبيحة.

بعد استراحة طويلة توقفت إحدى سيارات النقل الكبيرة ووافق السائق على توصيلهما حتى منطقة الأشغال الأسمنتية، كما ساعد «ك» فى رفع عربته الكارو فوق سطح السيارة، ثم جلس مع أمه فى الكابينة، وقد ساورهما شعور بالأمان وراح يحسب عدد الكيلو

مترات وهو ينظر خلسة إلى العداد وما هى إلا لحظات قليلة حتى دفع أمه بكوعه دفعة خفيفة فالتقتْ عيناه بشفتيها المبتسمتين.

كانت تلك الابتسامة هى الشىء الوحيد السعيد فى ذلك اليوم، وبعد أن وصلا إلى منطقة الأشغال الأسمنتية، ظلا خارجها لمدة ساعة، لكن وعلى الرغم من تدفق المشاة وراكبى الدراجات لم تعبر أى سيارات من أى نوع سوى سيارات المجارى، تراجعت الشمس وهبَّت الرياح، فسحب «ك» عربته الكارو، وبدأ فى الرحيل من جديد عبر الطريق بعد أن فكر قائلا لنفسه: من الأفضل ألا يعتمد المرء على الآخرين.

لقد حرَّك محور عجلات العربة بوصتين إلى الأمام منذ أن بدأ رحلته الأولى وحتى الآن، وما إن أعاد تثبيته حتى أصبحت العربة خفيفة كالريشة، مما جعله يشد العربة بسرعة أكثر تجاوز على إثرها رجل آخر يجر عربة يد محملة بأغصان الأشجار، لكنه لم يشأ أن يتجاوزه دون إلقاء التحية، جلستْ أمه فى وضع عمودى داخل صندوق العربة المظلم الصغير وقد انحنت رأسها إلى الأمام بعد أن أغلقتْ عينيها.

بزغ قمر ضبابى من خلال السحب قبل الوصول إلى الطريق الرئيسى بنصف ميل، فتوقف «ك» وساعد أمه فى النزول من العربة وراحا يمشيان وسط أشجار (بورت جاكسون) المنخفضة؛ بحثا عن

مكان آمن لقضاء تلك الليلة، وفى ذلك العالم من أوراق الأشجار المتفرقة والأرض الرطبة المبللة بالندى وتلك الروائح العفنة لم يكن ثمة مأوى أفضل من الآخر، فقرر «ك» العودة إلى جانب الطريق، ثم قال لأمه وهو يرتعش: إنه ليس مكانا مناسبا ولكن ينبغى علينا التكيف معه خاصة وأنها ليلة واحدة.

قام بإخفاء عربته الكارو بقدر ما استطاع بعيدا عن الأنظار بعد أن حمل الحقيبة، ثم أمسك بذراع أمه وتحسس طريقه عائدا لقضاء الليلة وسط الشجيرات.

تناولا طعاما باردا ورقدا فوق أوراق الأشجار المبللة فتسرب البلل إلى ملابسهما، وعند منتصف الليل بدأت الأمطار الخفيفة فى التساقط، مضى «ك» نحو شجرة منخفضة وجلس تحتها بعد أن ضمَّ أمه إلى جواره، وراحت الأمطار تتساقط فوق البطانية التى يغطيان بها رأسيهما، وعندما غرقت البطانية فى المياه زحف «مايكل» على يديه وركبتيه لإحضار غطاء العربة البلاستيكى، وقام على الفور بوضع رأس أمه بين ثنايا كتفه، واستطاع عندئذ أن يسمع أنفاسها الضعيفة فأدرك للمرة الأولى أن إحساسها بالإجهاد الشديد وفقدان الأمل فى الشفاء هو سبب توقفها عن الشكوى.

كان ينتوى الرحيل مبكرا جدا على أمل الوصول إلى الطريق الجانبى المؤدى إلى (ستيلينبوش) و(بارل) قبل بزوغ الشمس، غير

أن أمه كانت لا تزال نائمة أثناء الفجر ومستلقية فوق جانبه الأيمن فلم يحتمل فكرة إيقاظها، أصبح الجو أكثر دفئا عندما انتصف الصباح وشعر بضرورة التحرك، فبدأ على الفور فى مساعدة أمه للخروج من تحت الشجيرة والعودة لمواصلة السير فى الطريق، سارعا بنقل فراشهما المبلل إلى العربة الكارو، لكن اثنين من المارة اقتربا منهما فى مكان مهجور أحدهما رجل هزيل والأخرى امرأة عجوز وقالا لهما: يمكننا تجريدكما من كل ما تمتلكان دون أن يستطيع أحد معاقبتنا.

وللتأكيد على قدرتهما القيام بعملية التجريد بادر أحد الغرباء بإظهار السكين ووضع يده فى الحقيبة، وفى اللحظة التى بدأت تتلألأ فيها شفرة السكين عاودت «ك» مشاهد الإذلال والمهانة التى سيتعرض لها من جديد بعد تجريدهما من كل شىء وخاصة حين يجد أمه تسير بعناء ومشقة فى طريق العودة إلى الحجرة فى (السى بوينت)، وحين يجلس فوق الحصيرة واضعا كلتا يديه فوق أذنيه وهو يتحمَّل يوما بعد يوم معاناة أمه وعذابات صمتها.

ذهب إلى عربته الكارو وتناول سلاحه الوحيد وقضيب المحور ولوَّح بهما فى مواجهة الشاب الذى يحمل السكين بعد أن رفع ذراعه الأيسر أمام وجهه لحمايته، استدار الشاب بعيدا عنه واتجه ناحية رفيقه وراحت «أنَا ك» تصرخ بكل قوتها فتراجع الغرباء، واصل «ك» تهديده بالقضيب دون أن يتفوه بأى كلمة، ثم استعاد

الحقيبة، وراح يساعد أمه المرتعشة فى الصعود إلى العربة أثناء تراجع اللصان عشرين خطوة إلى الوراء، سحب العربة إلى الخلف باتجاه الطريق ومضى ببطء بعيدا عنهما، لكنهما راحا يتعقبانه للحظة، وظل الرجل الذى يحمل السكين يتلاعب بشفتيه ولسانه وهو يسبه بأبشع الألفاظ ويهدده بالموت، وبعد ذلك اختفيا فجأة بين الأشجار الصغيرة بالسرعة نفسها التى ظهرا بها.

كان الطريق السريع خاليا من السيارات، لكن كثيرا من الناس كانوا يسيرون فى منتصف الطريق على غير العادة ويرتدون ملابس الأحد الجميلة، وعند جانب الطريق كانت الأعشاب الكثيفة منتشرةً وعالية، وكان سطح الطريق مشققا والأعشاب تملأ الشقوق، ووجد «ك» نفسه محاصرا بثلاث فتيات صغيرات كن يرتدين عباءات وردية اللون ويتوجهن صوب الكنيسة، توقفن وتطلعن إلى السيدة «ك» الجالسة داخل صندوق العربة ورحن يتبادلن معها الحديث، وفى المسافة الأخيرة المتبقية قبل أن يصل «ك» إلى (ستيلينبوش) أمسكتْ أكبر الفتيات بيد السيدة « ك» التى أخرجت محفظتها وناولتْ كل واحدة منهن قطعة نقدية.

قالت الفتيات لهما: لا تعبر هنا السيارات فى أيام الآحاد.

لكنهما التقيا بموكب من الفلاحين أثناء عبورهما طريق (ستيلينبوش) وقافلة من الشاحنات المضيئة وبعض السيارات التى كانت تتقدمها عربة مصفحة تحيط بها خيوط شبكية كثيفة، ويقف

عند مؤخرتها رجلان يحملان بنادق آلية ويعملان على مراقبة الطريق، انسحب «ك» بعيدا عن الطريق حتى الانتهاء من عبور تلك الشاحنة والسيارات والعربة المصفحة، ولم يسلما من نظرات الركاب الفضولية، بينما كانت الفتيات يتحدثن ببعض الكلمات التى لم يستطع «ك» سماعها.

كانت كروم العنب الجدباء منتشرة أمامهما ومن خلفهما، وأسراب من العصافير تحلق فى السماء وتستقر بعض الوقت فوق أغصان الشجيرات وحولها قبل أن ترفرف بأجنحتها وتعاود التحليق من جديد، وفى تلك الأثناء ووسط الحقول سمع «ك» وأمه صوت أجراس الكنيسة، فقفزتْ إلى ذاكرته تلك الأيام التى كان يطيل فيها السهر بالمستشفى، ويداعب وسادته مستمتعا بمشاهدة أشعة الشمس الأولى وهى تقبل التربة.

ساد الظلام عندما اقتربا من الوصول بخطوات متثاقلة إلى (ستيلينبوش)، كانت الرياح عاصفة والشوارع خالية من المارة، ولم يكن قد فكر بعد فى مكان يستطيع أن ينام فيه هو وأمه التى لم تتوقف عن السعال وصعوبة التنفس، توقف أمام أحد المقاهى واشترى بعض الفطائر بالكارى وقام بتناول ثلاث منها وتناولتْ أمه واحدة بالكاد؛ لأنها كانت فاقدة للشهية فقال لها: ألا تريدين الذهاب إلى طبيب؟

هزّتْ رأسها وربتتْ فوق صدرها وأجابتْ: لا فأنا أعانى فقط من جفاف فى الحلق.

كانتْ تعتقد أنهما سيصلان إلى مقاطعة الأمير ألبرت فى اليوم التالى أو اليوم الذى يليه، ولم يشأ «ك» أن يخيب أملها، ثم قالتْ: لقد نسيت اسم المزرعة الحقيقى ولكن يمكننا أن نسأل والناس سوف يعرفونها.

فوق جدار إحدى الزرائب كانت تنتشر أسراب من الدجاج، وثمة مضخات تمكنا من سماعها فوق الهضبة فاستطردت الأم قائلة: كان لنا منزل فى تلك الهضبة، وكانوا يزرعون الكمثرى عند الباب الخلفى ولا بد أن ذلك هو المكان الذى تبحث عنه.

ناما فى أحد الأزقة فوق سرير من ورق الكارتون المسطح وقام «مايكل» بإسناد جزء كبير من الكارتون المقوى عند حافة سريرهما، لكن الرياح أطاحت به، ظلتْ أمه تسعل طوال الليل فلم يستطع النوم، وعندما مرت سيارة الشرطة ببطء عبر الشارع وضع يده فوق فمها.

بزغ فى الأفق أول ضوء من النهار فرفع أمه فوق العربة، كان رأسها متدليا ولم تكن تعرف مكان تواجدها، استوقفتْ أول شخص شاهدته وسألته عن الطريق المؤدى إلى المستشفى ولم تعد قادرة على الجلوس فى وضع مستقيم، وكانت كلما تحركت فوق العربة؛

يحاول «مايكل» جاهدا الحفاظ على توازن العربة؛ كى لا تتقلب وبدا أنها ترتعش من الحمى، كما راحت تجاهد من أجل التنفس وكان سعالها خشنا، ثم همستْ قائلة: إن حلقى جاف جدا.

جلس «مايكل» فى المستشفى إلى جوار أمه، وظل يضمها إليه ويشجعها بالكلام حتى جاء دورها فى الكشف، وعندما رآها بعد ذلك وهى خارجة ومستلقية فوق الترولى وسط كثير من عربات الترولى الأخرى، وقد علقوا أنبوبة فى أنفها، وكانت غائبة عن الوعى، أصبح عاجزا عن فعل أى شىء، ولم يعد قادرا على التفكير، وراح يتلكأ فى ممر المستشفى، حتى طلبوا منه الخروج فمضى إلى الفناء؛ لقضاء فترة ما بعد الظهيرة فى شمس الشتاء الضعيفة، لكنه تسلل إلى الداخل مرتين لمعرفة إذا ما كان الترولى قد تحرك من مكانه أم لا، وفى المرة الثالثة مشى فوق أطراف أصابع قدميه فى هدوء حتى وصل إلى أمه، ثم انحنى فوقها ولم يستطع أن يسمع أنفاسها فسيطر عليه الخوف، وسارع نحو الممرضة الجالسة فى مكتب الاستقبال وأمسك بطرف قميصها وقال: أرجوك، تعالى بسرعة لرؤية أمى.

هزَّت الممرضة نفسها للتخلص من قبضة يده وقالت باستهجان: منْ أنت؟

مضتْ خلفه قاصدة الترولى وقامت بقياس نبض أمه وهى تحدقٍّ بعيدا، ثم عادت إلى مكتبها دون أن تنطق بكلمة واحدة لكن «ك» وقف أمامها كالكلب الأخرس وهى تدون ملاحظاتها.

قالت له بطريقة صارمة: يجب أن تسمعنى الآن، هل ترى كل أولئك الناس الموجودين هنا؟

أشارتْ ناحية الممر والعنابر واستطردتْ: كل أولئك الناس ينتظرون أيضا من يعتنى بهم وأنا حين أنتهى من عملى........

بادر بالابتعاد عنها لكنها شدته من يده وأعادته للوقوف أمامها واقتربت بوجهها من وجهه، واستطاع «مايكل» أن يلمح قطرات من الدموع الغاضبة فى عينيها، ثم قالتْ بصوت مرتفع: لا، استمع لى ولا تذهب بعيدا، إننى حين أنتهى من عملى أشعر بتعب شديد ولا أستطيع أن أتناول طعامى، كما أننى أهرع إلى النوم دون القدرة على خلع حذائى، إننى شخص واحد ولست شخصين أو ثلاثة، أنا إنسانة واحدة فقط، هل تفهم ذلك؟ أم إنك تجد صعوبة فى الفهم؟

أزاح «ك» بصره عنها وتمتم بكلام غير واضح وقال: آسف.

لم يستطع أن يقول أى شىء آخر وربما لم يكن يعرف ما ينبغى أن يقوله فسارع بالعودة إلى الفناء.

كانت الحقيبة مع أمه، ولم يكن معه نقود سوى ما تبقى بعد شرائه لوجبة الأمس المسائية، فاشترى كعكة صغيرة وشرب الماء من

الصنبور، ثم فكر بالتجوال فى الشوارع، وراح يضرب بقدميه تلك الأوراق الجافة المنتشرة فوق الرصيف، شاهد حديقة فمضى ناحيتها، وجلس على الأريكة وبدأ يحدّق فى السماء الزرقاء من خلال أغصان الأشجار العارية، وحين اقترب منه السنجاب هرول بعيدا، وفجأة انتابه هاجس أن شخصا ما قام بسرقة عربته فعاد مسرعا إلى المستشفى، لكنه وجدها حيث كانت فى مكانها، أخرج البطاطين والوسائد والموقد من فوق العربة لكنه لم يكن يعرف مكانا يستطيع أن يخفى فيه تلك الأشياء.

شاهد «مايكل» الممرضة وهى تغادر المستشفى بعد الانتهاء من فترة عملها فى السادسة مساء، فشعر بالسرور وسارع بالعودة إلى داخل المستشفى، لم تكن أمه موجودة فى الممر فتوجه إلى مكتب الاستقبال لمعرفة مكانها، لكنهم أشاروا عليه بالذهاب إلى أحد الأجنحة البعيدة؛ حيث لم يجد هناك أمه وبدا الناس كأنهم لا يعرفون شيئا مما يقول، عاد إلى مكتب الاستقبال فقالوا له: يجب أن تعود غدا صباحا.

طلب منهم أن يقضى الليلة فوق أحد المقاعد المنتشرة فى ممر المستشفى لكنهم رفضوا.

نام فى أحد الأزقة داخل صندوق من ورق الكرتون، وحلم أن أمه جاءت لزيارته وهى تحمل حزمة من الطعام وقالت له فى الحلم: إن

العربة الكارو بطيئة جدا وها هى مقاطعة الأمير ألبرت قادمة لاحتوائى.

كانت حزمة الطعام مضيئة بشكل لافت وغريب حين استيقظ من شدة البرد، ولم يستطع أن يفرد قدميه بسهولة وسمع دقات الساعة من بعيد ثلاث أو أربع مرات، كانت النجوم تتلألأ فى السماء الصافية، أصابته الدهشة؛ لأن الحلم لم يسبب له قلقا أو ارتباكا، أحاط نفسه بالبطانية، وراح يخطو خطوات سريعة فى الزقاق ذهابا وإيابا، ثم خرج من الزقاق، وبدأ يهيم فى الشارع بلا هدف، توقف أمام نافذة أحد المحلات المظلمة التى تعرض أزياء الربيع.

عندما تم السماح له أخيرا بدخول المستشفى وجد أمه فى عنبر الرعاية الخاص بالسيدات، ولم تكن ترتدى معطفها الأسود، وإنما روب المستشفى الأبيض، وكانت ترقد وعيناها مغلقتان ولا تفارقها الأنبوبة المعلقة فى أنفها، كما كانت شفتها السفلى متدلية ووجهها ذابلا وبشرة ذراعيها متجعدة، ضغط على يديها فبدا أنها لا تشعر بشىء، كان عنبر السيدات يتكون من أربعة صفوف من الأسر لا يفصل بينها سوى مسافة قصيرة جدا لا تزيد عن قدم واحد فلم يجد مكانا يجلس فيه.

فى الساعة الحادية عشر أحضر الممرض فنجانا من الشاى، ووضعه إلى جانب أمه مع قطعة من البسكويت داخل صحن

الفنجان، رفع «مايكل» رأسها ووضع الفنجان بين شفتيها، لكنها لم تتناول منه شيئا، كانت معدته فارغة وبعد طول انتظار أصبح الشاى باردا، وكان الممرض على وشك العودة لإحضار شىء آخر فقام على الفور بارتشاف الشاى فى جرعة واحدة وابتلاع قطعة البسكويت.

استعرض الأوراق المعلقة على جانب السرير. لكنه لم يعرف إذا كانت تلك الأوراق خاصة بحالة أمه أم أنها خاصة بشخص آخر، عاد إلى الممر الفاصل بين العنابر وحين أبصر رجلا يرتدى معطفا أبيض قام بإيقافه وسأله عن فرصة عمل وقال له: أنا لا أريد نقودا وإنما أى عمل يمكننى القيام به، أستطيع القيام بمسح الأرضيات أو أى شىء مماثل كترتيب الحديقة وتنظيفها مثلا.

أجابه الرجل قائلا: اذهب إلى الدور الأسفل واسأل فى المكتب.

اندفع الرجل من أمامه بسرعة حتى اختفى ولم يستطع «ك» العثور على المكتب المطلوب.

فى فناء المستشفى اندمج فى حديث مع أحد الرجال الذى سأله قائلا: هل جئت إلى هنا للعلاج ؟

هزَّ «ك» رأسه وسدد الرجل نظراته إلى وجهه بنوع من الحرج، ثم راح يحكى له بالتفصيل قصة الجرار الذى انقلب عليه فكسر

قدمه وأصاب فخذه، كما حدثه عن المسامير التى قام الطبيب بتثبيتها فى عظامه حتى قال: إنها مسامير فضية لا تصدأ أبدا وأنا أمشى الآن بدعامة من الألومنيوم.

قال « ك»: ألا تعرف أين يمكننى الحصول على طعام فأنا لم أتناول شيئا منذ الأمس.

قال الرجل بعد أن ناول «ك» قطعة من النقد: يا رجل، لماذا لا تذهب وتحضر فطيرة لكل منا؟

هرول «ك» إلى المخبز واشترى فطيرتين ساخنتين بالدجاج وجلس بجوار صديقه فوق الدكة وبدأ فى التهام الفطيرة، كانت الفطيرة لذيذة جدا وشهية فانهمرت الدموع من عينيه، ثم راح الرجل يحدثه عن نوبات الارتعاش التى تعانى منها أخته ولا يمكن السيطرة عليها، بينما كان «ك» يستمع إلى تغريد الطيور فوق الأشجار ويتساءل بينه وبين نفسه محاولا أن يتذكر: هل عرفت مثل هذه السعادة من قبل؟

أمضى ساعة كاملة إلى جوار أمه بجانب السرير أثناء الظهيرة، ثم ساعة أخرى فى المساء، كان وجهها يميل إلى اللون الرمادى ويتسم بالكآبة، وكان من العسير سماع أنفاسها، وما إن تحرَّك فمها حتى راح «ك» يراقب باهتمام شريط اللعاب وهو يطول ويقصر بين

شفتيها الذابلتين، وبدت كأنها تريد قول شىء ما غير أنه لم يستطع معرفة ذلك الشىء، كانت الممرضة التى طلبت منه الرحيل من أمامها قد أخبرته أنها تعانى من السكون الناتج عن الألم.

تساءل «ك» قائلا: لماذا؟ ولأى سبب؟

جاء الممرض بدورة الشاى المقررة، فسارع «ك» بالاستيلاء على كوب الشاى الخاص بأمه وكوب المريضة فى السرير المجاور، وقام برشفهما بطريقة نهمة وكأنه كلب مذنب.

عاد إلى الزقاق فاكتشف أن الصناديق المصنوعة من ورق الكرتون المقوى قد تمت إزالتها، نام فى تلك الليلة أمام مدخل أحد الأبواب فى الشارع، وعندما مرت الشرطة فى الشارع استيقظ، لكنه سرعان ما غرق فى النوم من جديد ولم يكن الطقس باردا كالليلة الماضية.

عاد فى الصباح إلى المستشفى، كانت امرأة أخرى رأسها مربوط بضمادات ترقد فوق سرير أمه، فوقف «ك» أمام السرير وظل ينظر باندهاش، ثم فكر قائلا لنفسه: ربما أكون قد جئت إلى العنبر الخطأ.

أوقف الممرضة وقال لها: كانت أمى ترقد هنا بالأمس، أين هى؟ أجابت الممرضة: اسأل فى المكتب.

قالت له الطبيبة: لقد ماتت أمك فى الليل ولقد فعلنا كل ما فى وسعنا لإنقاذها، لكنها لم تستجب للعلاج، وعندئذ حاولنا الاتصال بك، لكنك لم تترك لنا رقم تليفونك.

جلس فوق مقعد بأحد أركان المستشفى فقالت له الطبيبة: هل تريد الاتصال بأحد؟

كان من الواضح أن شيئا ما يحدث، لكنه لم يستطع معرفة شيء بعينه فهزَّ رأسه ولاذ بالصمت.

قدَّم له شخص ما كوبا من الشاى لم يتردد فى احتسائه، وبعد أن التفَّ الناس حوله شعر بالغضب وفقد أعصابه، ثم شبك يديه وراح يحدِّق فى قدميه، حرَّر يديه وأعاد ضمهما مرات ومرات فهل كان من المتوقع أن يقول شيئا؟

نزلوا به إلى الطابق السفلى لرؤية أمه، كانت لا تزال ترتدى الروب نفسه وذراعاها ممددتين إلى جنبيها، وقد نزعوا الأنبوبة المعلقة فى أنفها، نظر إليها لحظة قصيرة فقد بعدها إحساسه بما يدور حوله وأصبح عاجزا عن توجيه نظراته إلى أى شىء آخر.

سألته الممرضة الجالسة فى مكتب الاستقبال: هل لها أقرباء آخرون تريد الاتصال بهم؟ هل ترغب فى أن نقوم نحن بالاتصال بهم؟

قال «ك»: لا يهم.

ثم عاد للجلوس مرة ثانية فوق مقعده المنعزل بأحد أركان ممر المستشفى، وبعد ذلك وجد نفسه وحيدا حتى منتصف النهار؛ حيث جاءوا بصينية الطعام فتناولها كاملة.

كان لا يزال جالسا فى زاوية الممر حين جاء رجل يرتدى بدلة وربطة عنق للحديث معه وسأله قائلا: أخبرنى عن اسم أمك وعمرها ومحل إقامتها وديانتها وماذا كانت تعمل فى (ستيلينبوش).

صمت الرجل لحظة ثم أضاف: هل لديك الأوراق الخاصة بسفرها؟

أجاب «ك»: سوف آخذها معى إلى البيت، كان الطقس باردا حين كانت تعيش فى كيب تاون، ولم تكن الأمطار تتوقف عن السقوط مما أثر على صحتها وكنت فى طريقى لاصطحابها إلى مكان أفضل على أمل أن تتحسن صحتها ولم نفكر قط بالتوقف فى (ستيلينبوش).

توقف «ك» بعد ذلك وانتابه الخوف من الإفصاح عن أى شىء آخر وتمنى عدم مواجهته بمزيد من الأسئلة.

انصرف الرجل عنه ومضى بعيدا، لكنه عاد إليه بعد لحظة قصيرة وجلس أمامه جلسة القرفصاء، وسأله: هل سبق وأن قضيت بعض الوقت فى أحد الملاجئ أو داخل مؤسسة للمعاقين أو فى مأوى اللاجئين؟ وهل تعاقدت على طلب بالتوظيف من قبل؟

التزم «ك» بالصمت ولم يجب بشىء، فأخرج الرجل ورقة من جيبه، وأشار إلى أحد السطور الفارغة، وقال: وقع باسمك هنا.

هـزَّ «ك» رأسه فلم يستطع الرجل الانتظار وراح يوقع الورقة بنفسه.

تغيَّرت وردية العمل فى المستشفى فخرج «ك» للتجول فى موقف السيارات وظل يمشى ويتطلع إلى سماء الليل الصافية، ثم تذكر أن أحدا لم يخبره بمغادرة المستشفى، فعاد إلى الجلوس فوق مقعده الملاصق للحائط، وبعد لحظات، وحين خلا الممر من الناس هبط إلى الطابق الأسفل؛ للبحث عن أمه، لكنه لم يستطع العثور عليها وكان الباب المؤدى لها مغلقا، فراح يتسلق الحجرة الكبيرة المحاطة بالأسلاك والمليئة بأقمشة الكتان المتسخة؛ حيث نام متكورا كالقطة.

فى اليوم التالى بعد وفاة أمه وقفتْ أمامه ممرضة جديدة لم يرها من قبل وقالتْ: تعال، لقد حان وقت الرحيل يا «مايكل».

مشى خلفها حتى وصلا إلى مكتّب الاستقبال فى الصالة، كانت الحقيبة وحزمتان من الورق البنى فى انتظاره فقالت الممرضة الغريبة: لقد قمنا بتجميع ملابس المرحومة أمك وأغراضها الشخصية ووضعناها فى حقيبتها ويمكنك أن تأخذها الآن.

ارتدتْ الممرضة نظارتها وبدتْ كأنها تقرأ بعض الكلمات من البطاقة، لاحظ «ك» أن الفتاة الجالسة إلى المكتب كانت تراقبهما وتنظر إليهما بطرف عينها.

أضافتْ الممرضة قائلة: هذه الحزمة من الورق تحوى بداخلها رماد أمك، لقد تم حرق جثمان أمك هذا الصباح يا «مايكل»،

ويمكننا أن نتصرف فى الرماد بالشكل اللائق أما إذا أردت أن تأخذه معك فلك الحق فى الاختيار.

كانت حزمة الرماد أصغر من الحزمة الأخرى، لكن كلتا الحزمتين كانتا مربوطتين بعناية بشريط من الورق البنى، تحسست الممرضة حزمة الرماد بأحد أظافرها، ثم قالتْ وهى تتلمس الحزمة برفق: هل تريد أن نتولى أمر العناية بها؟

أومأ «ك» برأسه فدفعت الممرضة بالحزمة الثانية نحوه بطريقة حازمة، واستطردتْ قائلة: وضعنا هنا بعض الأشياء الصغيرة من أجلك، بعض الملابس وأدوات التجميل، قد تكون تلك الأشياء مفيدة بالنسبة إليك.

نظرتْ إلى عينيه مباشرة وابتسمتْ له فعادت الفتاة الجالسة إلى مكتب الاستقبال للانشغال بالآلة الكاتبة.

يوجد إذن مكان لحرق الجثث! هكذا فكر قائلا لنفسه، ثم راح يتخيل السيدات العجائز فى عنبر المستشفى وهن يحترقن ويتآكلن فى الفرن الملتهبة واحدة بعد الأخرى بعد أن تزول أعينهن وشفاههن من شدة الحرارة، وما هى إلا لحظة قصيرة حتى ينتهى كل شىء ويحترق ويتفتت.

قال لنفسه بصوت خفيض: يحدث ذلك دائما ولكن كيف يمكننى أن أعرف؟

سمعته الممرضة وقالتْ: وما الشىء الذى تريد معرفته؟

أشار بنفاذ صبر إلى حزمة الرماد وتساءل بنوع من التحدى: كيف لى أن أعرف؟

رفضت الممرضة أن تجيب ولكنها ربما لم تفهم السؤال.

فى موقف السيارات قام بتمزيق الحزمة الأكبر، فوجد بداخلها؛ شفرة حلاقة، وقطعة من الصابون، وفوطة صغيرة لليد، وسترة بيضاء ذات أزرار لامعة عند الكتف، وبنطلونين بلون أسود، وقلنسوة سوداء عليها شارة معدنية مكتوب فوقها (مستشفى سان جون الميدانى).

ناول الملابس للفتاة الجالسة إلى المكتب وكانت الممرضة ذات النظارة قد اختفت، ثم قال للفتاة: لماذا أعطيتمونى هذه الثياب؟

أجابتْ الفتاة دون أن تنظر إلى وجهه: لا تسألنى أنا، ربما يكون شخص ما قد تركهم ولم يكن فى حاجة إليهم أو أنه قد تعمد نسيانهم.

ألقى بقطعة الصابون وشفرة الحلاقة بعيدا، وحين بادر بإلقاء الثياب تردد كثيرا ولم يفعل فقد كانت الرائحة النتنة تفوح من ملابسه التى يرتديها.

كان من العسير أن يغادر المستشفى ويرحل رغم عدم وجود سبب لبقائه، وفى اليوم التالى راح يدفع عربته فى الشوارع القريبة من

المستشفى، ثم نام فى الليل تحت ماسورة المجارى المحاطة بسياج من الشجيرات فى أحد الأزقة، بدا له غريبا أن يستقل الأطفال دراجاتهم وهم عائدون من المدرسة إلى بيوتهم بعد الظهر وهم يدقون أجراس الدراجات ويتسابقون فى الطريق كما بدا له أيضا أن تناول الناس للطعام والشراب كل يوم أمر غريب، ظلَّ فترة من الزمن يتنقل من شارع لآخر؛ بحثا عن أى عمل فى الحدائق، لكنه تراجع بعد عدة محاولات إذ لم يستطع أصحاب البيوت إخفاء نفورهم وكراهيتهم له بمجرد فتح الأبواب فى وجهه.

تساقطت الأمطار فمضى ببطء نحو عربته الكارو؛ حيث أمضى وقتا طويلا وهو يحدِّق فى يديه، كان مزاجه سيئا وعقله مشوشا.

انخرط وسط صحبة من الرجال والنساء ممن ينامون تحت جسر السكك الحديدية ويشغلون الأماكن الشاغرة خلف محل بيع الخمور فى شارع (أندرينجا)، كان يسمح لهم باستخدام عربته الكارو فى بعض الأحيان وذات مرة حين انتابته نوبة من السخاء قدَّم لهم الموقد، لكن أحدهم حاول ذات ليلة أن يسحب الحقيبة من تحت رأسه عندما كان نائما، فحدثت مشاجرة عنيفة غادر على إثرها المكان.

توقفتْ سيارة الشرطة ذات يوم إلى جواره فى الشارع وخرج منها شرطيان وراحا يفتشان العربة، فتحا الحقيبة وقاما بتفتيش

محتوياتها، ثم نزعا شريط الورق الذى يغلف الحزمة الثانية التى كانت تحوى بداخلها صندوقا كرتونيا بداخله حقيبة بلاستيكية بها رماد أسود، كانت المرة الأولى التى يرى فيها «ك» تلك الحقيبة وذلك الرماد فتوجه بنظراته بعيدا عنها لكن الشرطى سأله: ما هذا؟

أجاب «ك»: إنها بقايا حريق جثة أمى.

قذف الشرطى بالحقيبة البلاستيكية من إحدى يديه إلى اليد الأخرى بطريقة لافتة للنظر، ثم قال شيئا لصديقه لم يتمكن «ك» من سماعه.

وقف عدة ساعات فى جانب الشارع الذى تقع فيه المستشفى فأبصرها أصغر مما كانت تبدو عليه، كانت مجرد بناية قديمة منخفضة يعلوها سقف من القرميد.

توقف لمشاهدة غروب الشمس ولم يشغل باله باحتمال تعرضه للأذى كما لم يكن يهمه أن يتعرض لأى شىء، ارتدى ملابسه الجديدة، السترة البيضاء والبنطلون الأسود والقلنسوة وراح يدفع عربته الكارو ويحركها فى أى وقت يشاء وفى الاتجاه الذى يريده، وفى بعض الأحيان كانت تنتابه نوبات من الابتهاج والمرح رغم إحساسه أنه فقد بعضا من قوته ولم يعد بقوة الاحتمال نفسه التى كان عليها من قبل غير أنه لم يكن مريضا، كان يأكل مرة واحدة فى اليوم بعد أن يشترى الكعك أو الفطائر من نقود أمه التى تركتها فى

محفظتها، وكان يشعر بالسرور من إنفاق النقود وعدم الكسب ولم يفكر فى اللحظة التى ستنتهى فيها النقود.

نزع الشريط الأسود المثبت فى بطانة معطف أمه وقام بتثبيته حول ذراعه، لكنه اكتشف أنه لم يفتقدها، كما افتقدها طيلة حياته إلا بقدر قليل.

كان يشعر بفراغ كبير ولا يجد شيئا يفعله فبدأ ينام كثيرا، وعندئذ عرف أنه يستطيع النوم فى أى مكان وفى أى وقت وأى وضع، كان الناس يتخطونه وهو مستند إلى الحائط فوق الرصيف واضعا الحقيبة بين قدميه، وحين كان النوم يباغته بقوة ويتسلل إلى داخل رأسه ويصيبها بحالة من الارتباك والتشوش لم يكن يملك الإرادة الكافية على المقاومة فيستسلم لنوم عميق دون أن تراوده الأحلام.

ذات يوم لم يجد عربته الكارو فلم يهتم وأصبح من الواضح أنه سيمضى وقتا أطول فى (ستيلينبوش)، ولم يكن ثمة شىء يوحى أن المدة ستكون قصيرة، وكان يسير مترنحا طوال اليوم ولا يعرف له طريقا فى معظم الأوقات.

كان يسير عبر شارع (بانهويك) فى يوم ما كما كان يفعل أحيانا وهو يحمل الحقيبة، وكان الصباح هادئا ومشبعا بالضباب حين سمع خطوات حوافر حصان يجرى من خلفه، وبعد أن تجاوزه

الحصان تسللت إلى أنفه فى البداية رائحة روث البهائم، كان الحصان يجر عربة صغيرة ذات صندوقين مفتوحين؛ لنقل القمامة ويقودها رجل عجوز يرتدى معطفا واقيا من المطر، مشى بجوار العربة جنبا إلى جنب لفترة من الوقت أشار خلالها الرجل العجوز برأسه إلى «ك» الذى تردد لحظة وراح يمعن النظر فى الشارع الممتد المليء بالضباب، أدرك عندئذ أن لا شىء فى الأفق يوحى بالأمان فشعر بالضياع، صعد إلى العربة وجلس بجوار الرجل العجوز وقال له: شكرا، يمكننى مساعدتك إذا شئت.

لم يكن العجوز فى حاجة إلى المساعدة ولم يكن فى حالة مزاجية تسمح له بالحديث، طلب من «ك» النزول بعد ميل واحد بعيدا عن الطريق، حيث قام بتفريغ الحمولة القذرة، بينما ظل «ك» يواصل سيره طوال النهار، وعندما حلَّ الظلام وبعد أن انتصف الليل نام فى الحديقة تحت شجرة الكينا، لكن الرياح ظلت تعصف بأوراقها طوال الليل، فلم يستطع أن ينعم بنوم هادئ، فى اليوم التالى وعند منتصف النهار واصل سيره قاصدا الشمال عبر الطريق الدولى ولم يتوقف إلا حين لاحت فى الأفق أول نقطة تفتيش، انتظر فى مكان بعيد عن الأنظار حتى أصبح متيقنا من اللحظة التى لا يقومون فيها بإيقاف السائرين على أقدامهم.

مرتْ بجواره قافلات طويلة عدة مرات وكانت تتقدمها سيارات حراسة مسلحة، لكنه شاهد الناس وهم يسيرون بطريقة عادية ويقفون دون خوف ولا يحاولون إخفاء أنفسهم ففعل مثلهمَ.

نام هذه المرة عند جانب الطريق وحين استيقظ وجد نفسه مبللا بقطرات الندى، وكان الطريق أمامه مشبعا بالضباب، والطيور ترفرف بأجنحتها فوق الأشجار وتنتقل من غصن إلى آخر وهى تغرد بصوت خافت، علَّق الحقيبة فى العصا وحملها فوق كتفه ولم يكن قد تناول طعاما منذ يومين وبدا واضحا أن قدرته على الاحتمال بلا حدود.

أبصر من خلال الضباب شعلة من النار على بعد ميل من الطريق وسمع أصواتا، وعندما اقترب من شعلة النار استطاع أن يشم رائحة لحم خنزير مقدد فانتفضت معدته وكان بعض الرجال يقفون حول النار ويمدون أياديهم؛ بحثا عن الدفء، توقف الرجال عن الحديث لحظة اقترابه منهم وراحوا يحدقون فيه، بدأ فى تحسس قلنسوته لعلهم يدركون أنه جائع، لكنهم تغافلوا عنه وكأنه غير موجود، ابتعد عنهم ومضى فى طريقه عابرا شعلة أخرى من النار على الجانب الثانى من الطريق كما تجاوز صفا من السيارات، كانت السيارات تقف ملاصقة لبعضها البعض فى طابور طويل وفوانيس الإشارات كلها مضاءة، أدرك سبب وقوف السيارات بعد لحظات، كانت شاحنة النقل الكبيرة ذات اللون الأزرق اللامع مقلوبة عند منعطف الطريق المؤدى إلى ممر ضيق وكانت عجلات المقطورة التى تجرها تسد الطريق، كما احترقت الكابينة عن آخرها واكتست الشاحنة باللون الأسود بفعل الدخان، كانت الشاحنة تحمل أنواعا

مختلفة من الطرود وأجولة الدقيق، وما إن اصطدمت بكومة ملقاة على الطريق حتى اكتسى الطريق بلون الدقيق الأبيض، استطاع «ك» بالكاد أن يرى بقية القافلة حول المنعطف وسمع أصواتا عالية لمذياعين من محطتين متنافستين وصوت أغنام بائسة من بعيد، ثم فكر للحظة فى التوقف لملء جيوبه بالدقيق المنسكب على الأرض، لكنه تساءل قائلا لنفسه: وماذا يمكننى أن أفعل به؟

مضى بخطوات متثاقلة عبر شاحنة تلو الأخرى حتى اجتاز الشاحنة المحملة بالأغنام المربوطة بإحكام فوق الشاحنة وكان بعضها يقف على أقدامه الخلفية، لمح مجموعة الجنود المتحلقين حول شعلة النار الذين تجاهلوه حين وقف يداعب قلنسوته ومضى متجاوزا إياهم بالخطوات المتثاقلة نفسها، ثم أبصر ضوءا يتلألأ من فانوسين عند مؤخرة القافلة وبعض أدوات قذف الحجارة المحترقة فى وسط الطريق.

شعر بالاطمئنان فور تجاوزه للقافلة وعرف أنه أصبح حرا، لكنه ما إن وصل إلى المنعطف التالى مباشرة حتى خرج له من بين الشجيرات جندى يرتدى زيا مموها ورفع البندقية الآلية نحو قلبه توقف «ك» فأنزل الجندى بندقيته وأشعل سيجارة وبعد أن تناول نفسا منها رفع البندقية من جديد ثم بدا على وجه «ك» وصوته أنه ميت لا محالة.

سأله الجندى : منْ أنت؟ وإلى أين أنت ذاهب؟

أوشك «ك» على الإجابة لكن الجندى قاطعه قائلا: دعنى أرى، تعال ودعنى أرى ما لديك.

كانا بعيدين عن القافلة وكانت الموسيقى الخافتة لا تزال تصدر أنغامها فى الفراغ حين فكّ «ك» الحقيبة من فوق كتفه وفتحها، تناول الجندى نفسا من سيجارته وأشار له أن يرجع إلى الخلف، ثم قلب محتويات الحقيبة بحركة واحدة فتناثر كل ما بداخلها فوق الطريق؛ الشبشب الأزرق المصنوع من اللباد والسراويل النسائية البيْضاء وزجاجة الغسول البلاستيكية ذات اللون الوردى وزجاجة أقراص الدواء وحقيبة اليد البلاستيكية ووشاح مطرز بالزهور وآخر بالأصداف عند حوافه، بالإضافة إلى المعطف الصوفى الأسود وعلبة المجوهرات والتنورة البنية وحزمة بلاستيكية بيضاء وعلبة القهوة الصفيحية وبودرة التلك وبعض المناديل والرسائل والصور الفوتوغرافية، ثم حزمة الرماد المتبقى من إحراق جثة أمه، لم يتزحزح «ك» من مكانه.

قال الجندى: من أين سرقت كل تلك الأشياء؟ أنت لص، أليس كذلك؟ أنت لص يحاول الهرب عبر الجبال.

قذف حقيبة اليد بحذائه وأضاف: دعنى أرى ما بداخلها.

تحسس علبة المجوهرات وعلبة القهوة الصفيحية وأشياء أخرى وكرر السؤال: دعنى أرى تلك الأشياء.

تراجع إلى الوراء قليلا ففتح «ك» علبة القهوة، كانت تحتوى على حلقات الستائر فأخرجها من العلبة ووضعها فى كف يده، ثم أعادها إلى داخل العلبة من جديد وأغلقها، فتح بعد ذلك علبة المجوهرات وقام بتفريغها، لكنه أصيب بالفزع وراح قلبه يدق بين ثنايا صدره حين حرَّك الجندى محتويات العلبة وعثر بداخلها على دبوس مزخرف سارع بالتقاطه ثم انتصب واقفا وهو يبتسم، أغلق «ك» العلبة وفتح حقيبة اليد وقام أيضا بتفريغها فوق الطريق كما أشار له الجندى، كانت تحوى بداخلها منديلا ومشطا للشعر ومرآة ومسحوقا للتجميل وحافظتين للنقود.

أشار الجندى إلى الحافظتين فقام «ك» بتسليمهما له حيث وضعهما الجندى داخل جيب سترته القصيرة.

لعق «ك» شفتيه وقال بغلظة: إنها ليست نقودى، إنها نقود أمى التى جاهدتْ فى العمل من أجلها.

لم يكن ذلك حقيقيا فقد كانت أمه مفلسة وليست فى حاجة إلى النقود، ومع ذلك ساد صمت غريب بينهما للحظات قليلة قال «ك» بعده متسائلا: ما السبب فى رأيك الذى تقوم من أجله المعارك والحروب! أتحدث مثل تلك المعارك حين يستولى شخص ما على نقودك مثلا؟

قال الجندى ساخرا وهو يحاكى طريقة «ك» فى الكلام والطريقة التى فتح بها فمه: ما السبب فى رأيك الذى تقوم من أجله المعارك والحروب! أنت لص، انظر إلى تلك الأشياء، إنك تستطيع أن تنام فى الأدغال وسط كومة من الذباب فلا تقل لى شيئا عن المعارك.

أشار ببندقيته نحو الكيس البلاستيكى داخل الحقيبة وقال: أرنى هذا الكيس.

خلع «ك» القلنسوة وقام بإخراج الكيس من الحقيبة فنظر إليه الجندى وقال: ما هذا؟

أجاب «ك» بثبات: رماد.

قال الجندى: افتحه.

فتح « ك» الكيس فتناول الجندى بعضا من محتوياته وراح يشمه بحذر، ثم قال وهو ينظر إلى «ك»: يا إلهى.

جلس «ك» فوق ركبتيه وبدأ فى تجميع مقتنيات أمه ووضعها داخل الحقيبة وكان الجندى يقف إلى جواره، فقال له: هل يمكننى الانصراف الآن؟

قال الجندى: ربما يكون مسموح لك بالانصراف.

وضع «ك» العصا بين يدى الحقيبة ثم رفعها فوق كتفه فقال الجندى: دقيقة واحدة فقط، هل تعمل فى سيارة للإسعاف أو فى مستشفى؟

هزَّ «ك» رأسه فقال الجندى: دقيقة واحدة، دقيقة واحدة.

ثم تناول واحدة من حافظتى النقود وسحب منها ورقة مالية ذات لون بنى من فئة عشرة راند(*) ولوَّح بها فى اتجاه «ك» وقال: اشتر لنفسك آيس كريم.

عاد «ك» إلى الوراء قليلا والتقط الورقة النقدية، ثم راح يواصل طريقه وما هى إلا دقيقة واحدة أو اثنتين حتى اختفى الجندى وسط الضباب.

لم يشعر «ك» أنه جبان، وانتابه إحساس بعدم جدوى الاحتفاظ بالحقيبة، فتسلَّق أحد المنحنيات بصعوبة وتركها بين الأدغال، لكنه احتفظ بكيس الرماد والمعطف الأسود؛ تحسبا لموجات البرد.

كان من الواضح أن القافلات قد توقفت عند نهاية الطريق فأصبح «ك» آمنا بعض الشىء، قبل غروب الشمس وجد نفسه فى مواجهة نفق يخترق أحد الجبال، وكان الحارس واقفا عند المدخل الجنوبى، ابتعد عن الطريق ومضى عبر المنحدرات مواصلا طريقه

(*) راند Rand: وحدة العملة فى جنوب أفريقيا. (المترجم)

وسط الأدغال الكثيفة المبللة بقطرات الندى، وعندما حلَّ الظلام كان يعتلى هضبة عالية تطل على الطريق المؤدى إلى الشمال؛ حيث سمع من بعيد أصوات البابون(*) ارتدى معطف أمه ونام تحت أحد الأسقف دون أن ينسى وضع العصا إلى جواره، ثم بدأ عند الفجر فى التحرك من جديد، وكان عليه أن يعبر الوادى من خلال طريق دائرى واسع؛ كى يتجنب عبور الجسر فى الشارع الرئيسى وفى تلك اللحظات مرت بجواره أولى القافلات لذلك اليوم.

ظلَّ يسير طوال اليوم وحين هبط الليل واستبد به التعب أمضى ليلته داخل كوخ مصنوع من القش فى زاوية من زوايا ملعب الرجبى المكسو بالأعشاب الذى يفصله عن الشارع صف طويل من أشجار الكينا، كانت نوافذ الكوخ محطمة ومفاصل الباب لا تعمل، وكانت الأرض مليئة بالزجاج المكسو وأوراق الصحف القديمة وركام من أوراق الشجر، كما كانت شقوق جدار الكوخ مشبعة بالعشب الأصفر الذابل وكانت القواقع متجمعة تحت مواسير المياه غير أن السقف كان سليما، قام بتجميع كومة من أوراق الشجر وأوراق الصحف وصنع منهما سريرا، لكنه لم يستطع أن ينام نوما هادئا؛ بسبب الرياح العاتية والأمطار الغزيرة.

(*) بابون baboon: قرد أفريقى ضخم قصير الذيل. (المترجم).

استيقظ ولم تكن الأمطار قد توقفت بعد، شعر بدوار من شدة الجوع، ثم وقف عند باب الكوخ وظل لمدة ساعة كاملة فى انتظار أن تتوقف الأمطار، راح خلالها يتطلع إلى المراعى والمروج والأشجار المبللة وإلى التلال المشبعة بالضباب من خلفها، ثم رفع ياقة المعطف أخيرا وسارع بالجرى تحت الأمطار المنهمرة، عند أحد أطراف ملعب الرجبى البعيدة تسلق جدارا من السلك الشائك فوجد نفسه داخل بستان من بساتين الفاكهة ملىء بالحشائش والأعشاب الضارة، كانت الفاكهة المعطوبة متناثرة فى كل مكان علىَ الأرض، ولم تكن الفاكهة فوق أغصان الأشجار فى حجمها العادى، بالإضافة إلى أنها لم تكن ناضجة بما يكفى، كانت القلنسوة متدلية حتى أذنيه وكان المعطف الأسود ملتصقا بجسده، فوقف، وراح يقضم الأجزاء السليمة من كل قطعة فاكهة، ويمضغها بسرعة كالأرنب، بينما كانت عيناه غائبتين تماما وخاليتين من أى تعبير.

كان البستان مهملا وحين بدأ «ك» التجول فى أرجائه عرف أنه مهجور ولا يوجد منْ يهتم به، حتى ساوره إحساس أنه يسير فى أرض مهجورة، كانت أشجار التفاح متناثرة فوق الأرض المنبسطة واستطاع «ك» أن يشاهد من خلفها بيوتا صغيرة مصنوعة من طوب القرميد وأسقفا من القش وبيتا ريفيا تحيط بها جدران ذات طلاء أبيض، كانت بعض الخضراوات موضوعة بعناية فوق الأرض المنبسطة الخالية من الأوساخ كالقرنبيط والجزر والبطاطس، فترك

«ك» مكانه تحت أوراق الشجر؛ حيث كان يحتمى من الأمطار، وبدأ يزحف بيديه وركبتيه تحت وابل من الأمطار، حتى استطاع أن ينزع حزمة من الجزر الأصفر المغروس فى باطن الأرض المبللة، وهو يقول لنفسه: إنها أرض الله وأنا لست لصا.

سمع صوت ارتطام فى النافذة الخلفية للبيت الريفى، وتراءى له شخص ما على شكل شبح ضخم يسارع بالهجوم عليه، وعندما امتلأ جيبه بالجزر انتصب واقفا وألقى بالجزر فوق الأرض بدلا من تناوله والاحتفاظ به تحت الأشجار كما كان ينتوى.

توقفت الأمطار أثناء الليل فعاد فى الصباح لمواصلة طريقه بملابسه المبللة، وكانت بطنه منتفخة من الطعام غير الناضج، وعندما سمع صوت القافلة وهى تقترب زحف متسللا للاختباء بين الأدغال، ثم بدأ بعد تلك اللحظة فى السير هائما بملابسه القذرة وشكله الهزيل المرهق بلا هدف وبخطوات طليقة، وقد نسى تماما أن العبور فى الطريق يتطلب الحصول على الأوراق والتصاريح اللازمة، كما لم يطرأ بذهنه أنه معرض للأذى، كان «ك» غارقا فى اللامبالاة!

عبرت إحدى القوافل تتقدمها الدراجات البخارية، كانت القافلة تتكون من سيارات مصفحة وشاحنات مليئة بالجنود الشباب ذوى الخوذات المستديرة فوق رءوسهم، استغرق عبور القافلة خمس دقائق كاملة، ظل « ك» ينظر خلالها بإمعان من مخبئه إلى الخارج،

كان المدفع فى السيارة الأخيرة ملفوفا بقطعة من القماش وغطاء من الصوف، وبدا كأنه موجه إلى عينيه قبل أن يغيب بعيدا.

نام فى الليل تحت ماسورة مياه كبيرة، وفى التاسعة صباحا من اليوم التالى كان على مرأى من مداخن وأبراج (وورسيستر)، لم يعد وحيدا فى الشارع، وأصبح وسط «مجموعة» من الناس المتشردين، ثم عبر أمامه ثلاثة شباب بخطوات رشيقة، كان الدخان الأبيض يتطاير من أفواههم وهم يتنفسون.

فى ضواحى المدينة كانت المتاريس التى لم ير «ك» مثلها من قبل إلا فى (بارل) تسد الشوارع، وكان الناس يحتشدون بكثرة حول سيارات الشرطة، ارتعش «ك» للحظة، وكانت البيوت على يساره ومصانع القرميد والطوب اللبن على يمينه، وكان الطريق الوحيد المؤدى إلى الخروج فى الخلف لكنه واصل السير.

همس قائلا للمرأة الواقفة أمامه فى الصف: ماذا يريدون؟

نظرت المرأة إليه ثم ابتعدتْ ببصرها بعيدا عنه ولم تقل شيئا.

جاء دوره فأخرج بطاقته الخضراء واستطاع أن يرى فى أول الصف وبين شاحنتين من شاحنات الشرطة أولئك الذين تجاوزوه عند نقطة التفتيش، وكذلك مجموعة من الرجال الصامتين لم تكن بينهم امرأة واحدة، وكانوا تحت حراسة رجل من رجال الشرطة

يمسك فى يديه بحبل فى نهايته كلب، قال «ك» لنفسه: قد يسمحون لى بالمرور إذا بدا لهم أننى رجل أبله.

سأله الشرطى: من أى منطقة أنت؟

كان فمه جافا فأجاب بصعوبة: من (برنس ألبرت) وأنا فى طريقى للعودة إلى هناك.

سأله عن التصريح فقال له «ك»: لقد ضاع منى.

أشار الشرطى بعصاه وقال: انتظر هناك.

قال «ك» هامسا: ليس عندى وقت كاف فلا أريد التوقف.

ثم استطرد قائلا لنفسه: هل شعروا بخوفى؟

أمسك شخص ما بذراعه، فراح يخفق كما تفعل البهائم لحظة الهجوم عليها، كان الناس فى الصف من ورائه يلوحون بالبطاقة الخضراء، ولم يجد من يستمع إليه بعد محاولات فاشلة للحديث مع بعضهم، فأشار له الشرطى الممسك بالكلب بإيماءة توحى بنفاذ صبره، وعندئذ شقَّ «ك» طريقه إلى الأمام وتقدَّم بخطواته الأخيرة نحو الأسر، بينما راح الناس من خلفه يجرجرون أقدامهم بتثاقل وكأنهم يتجنبون شيئا ملوثا، وضع الصندوق بين ذراعيه وأحكم القبض عليه ثم راح ينظر إلى عينى الكلب الصفراء.

اقتادوا «ك» بصحبة خمسين من الغرباء إلى فناء السكك الحديدية وقدموا لهم العصيدة والشاى، ثم ساقوهم فى سيارة

واحدة إلى مسار جانبى، كانت أبواب السيارة مغلقة وكان الحارس المسلح يراقبهم، ولم يكن بمقدورهم فعل أى شىء سوى الانتظار حتى وصل عدد آخر من المساجين يقترب من الثلاثين وصعدوا إلى السيارة نفسها.

رجل عجوز يرتدى بدلة كان يجلس إلى جوار «ك» بالقرب من النافذة، لمس «ك» كم سترته وسأله: إلى أين سوف يأخذوننا؟

نظر الرجل الغريب إليه متفحصا وجهه ثم هزَّ كتفيه وقال: ولماذا الاهتمام بالمكان الذى سيأخذوننا إليه؟ وهل هناك فرق؟ لا يوجد سوى مكانين فقط أحدهما فى اتجاه خط السكك الحديدية والآخر فى الاتجاه المضاد، تلك هى طبيعة القطارات!

ثم أخرج قطعتين من الحلوى وقدم واحدة لـ «ك».

تقدَّمتْ قاطرة بخارية نحو مسار الطريق الجانبى والتصقتْ بالسيارة، استطرد الغريب حديثه مع «ك» الذى فقد اهتمامه بالغريب ولم يرد عليه.

بدءوا فى التحرك من مسار الطريق فى اتجاه ساحات (وورسيستر) الخلفية؛ حيث كانت النساء يغسلن الثياب، بينما يقف الأطفال فوق الأسوار يلوحون لهن بأياديهم حين مر القطار بجوارهم، نظر «ك» إلى أسلاك التلغراف الممتدة وهى ترتفع وتهبط، ثم تعاود الارتفاع والهبوط ومضت السيارة بهم ميلا بعد

ميل عبر حقول الكروم الخالية والمهجورة التى تحلق فوقها الغربان، وما إن اقتربت السيارة من الجبال حتى بدأت أصوات المحرك فى التصاعد، ارتعش «ك» وأصابه الخوف واستطاع أن يشم رائحة عرقه الممتزجة مع رائحة ملابسه العفنة.

فتح الحارس أبواب السيارة حين وصلوا إلى الموقف، وقد بدا سبب التوقف واضحا فور نزولهم من السيارة، كانتِ الصخور الكثيرة والطين الأحمر والوحل الذى دمر جزءا كبيرا من جانب التل أثناء انحداره سببا فى توقف القطار وعدم قدرته على مواصلة السير، علِق شخص ما بشىء ما فانفجر الجميع فى الضحك.

شاهدوا قطارا آخر عند الجزء المنخفض من الأرض فى الجانب الآخر وقد انحرف عن مساره، وكان بعض الرجال يصارعون كالنمل لإخراج المجرفة الآلية من الشاحنة ووضعها عند الرصيف المنحدر.

وجد «ك» نفسه ضمن مجموعة العمل المكلفة بإصلاح خط السكك الحديدية، وظل طوال فترة ما بعد الظهر يعمل مع زملائه تحت مراقبة مشرف العمال والحارس فى تحريك القضبان الملتوية وتثبيت العوارض، وفى المساء كان كثيرا من الخطوط يسمح بمرور الشاحنات الفارغة للوصول إلى أسفل المنحدر، توقفوا فجأة؛ لتناول العشاء المكون من الخبز والمربى والشاى، ثم راحوا يتسلقون التل على ضوء القاطرة الأمامى وبدءوا فى جرف الطين وإزالة الأحجار، كان التل عاليا فى البداية، فلم يجدوا صعوبة فى إلقاء الحمولة

فوق الشاحنة وبعد جرف كمية كبيرة من الطين والوحل والتخلص من كثير من الأحجار أصبح التل منخفضا، مما جعلهم يرفعون الأحجار بدلا من إلقائها من فوق التل، وبعد أن امتلأت الشاحنة عن آخرها تحركت عائدة باتجاه قضبان السكك الحديدية؛ حيث قام بتفريغها الرجال أنفسهم ولكن فى الظلام.

استعاد «ك» نشاطه من جديد بعد استراحة العشاء وقد كلفته كل الحمولات التى رفعها مجهودا كبيرا، وعندما انتصب واقفا شعر بوخزات فى ظهره، عمل أكثر وأكثر ولكن ببطء، ثم جلس بعض الوقت عند جانب الطريق واضعا رأسه بين ركبتيه، ولم تكن لديه أية فكرة عن الوقت الذى مضى عليه فى ذلك الوضع، كان الإغماء قد أصابه وكانت الأصوات تتردد داخل أذنيه باهتة وغامضة.

كان يضغط على ركبتيه حين سمع صوتا يقول: انهض!

نهض ثم جرجر قدميه فى الضوء الخافت حتى أصبح فى مواجهة مشرف العمال بمعطفه الأسود وقبعته.

كانت رأس «ك» مفككة وبدا صدى كلماته كأنه قادم من بعيد وهو يقول للمشرف: لماذا تجبروننى على العمل هنا؟

هزَّ المشرف كتفيه، ثم رفع عصاه ودفع بها صدر «ك» وقال: افعل فقط ما تؤمر به.

التقط «ك» جاروفه وراح يواصل العمل.

ظلوا يعملون بمشقة حتى منتصف الليل، وكانوا يتحركون كما يفعل السائر فى نومه من شدة التعب، ثم اقتادوهم إلى السيارة أخيرا حيث نام بعضهم فوق المقاعد، بينما تمدد البعض الآخر فوق أرضية السيارة الباردة، وكانوا جميعا متلاصقين إلى بعضهم البعض ويعانون من الإرهاق الشديد، كان برد المرتفعات قارسا فأغلقوا النوافذ، بينما كان أفراد الحراسة يرفعون أقدامهم إلى أعلى وأسفل وهم يرتعشون من قسوة البرد، وكانوا يذهبون إلى داخل السيارة بالتناوب فيما بينهم؛ لتدفئة أياديهم وهم يطلقون اللعنات ومختلف أنواع الشتائم.

كان «ك» مرهقا ويعانى من شدة البرد، فرقد محتضنا كيس الرماد بين يديه، وراح الرجل المجاور له يعانقه ويضغط عليه أثناء نومه.

فكر «ك» قائلا: ربما يعتقد بأننى زوجته التى كان نائما إلى جوارها ليلة أمس.

سرح بنظراته خارج النافذة المبللة بالضباب وراح يحلم بانتهاء تلك الليلة ورؤية الصباح، لكنه نام أخيرا ولم يشعر بشىء، وعندما فتح الحراس أبواب السيارة فى الصباح كان جسده متيبسا فوقف بصعوبة ثم سارع بالنزول.

قدموا لهم مرة أخرى العصيدة والشاى ووجد «ك» نفسه جالسا بجوار الرجل الذى بادله الحديث فى رحلة العودة من (وورسيستر).

قال الرجل : هل أنت مريض؟

حرَّك «ك» رأسه فأضاف الرجل: كنت أعتقد أنك مريض.

قال «ك» : أنا لست مريضا.

إذن لا يجب أن تكون بائسا إلى هذا الحد، نحن لسنا فى سجن وليس محكوم علينا بشىء، إنها فقط مجموعة عمل.

لم يستطع «ك» الانتهاء من تناول شريحة العصيدة الباردة المصنوعة من الدقيق، وكان طاقم الحراسة والمشرفون يسيرون بينهم ويصفقون بأياديهم؛ لحثهم على الوقوف.

قال الرجل مشيرا إلى المساجين والحرس والمشرفين: لا يوجد شىء محدد يتوجب إدانتك عليه ونحن جميعا لسنا مذنبين.

وقفوا جميعا فسارع «ك» بإلقاء ما تبقى من العصيدة فوق الأرض، مرَّ المشرف ذو الأنف المعقوف إلى جواره وضرب ضربا خفيفا بالعصا فوق معطفه، ثم قال له مبتسما وهو يربت فوق كتفيه: ابتهج يا رجل، سوف تصبح حرا فى الحال.

وصلت الجرافة الآلية إلى الجانب الآخر من المنحدر؛ حيث ظلت تعمل بانتظام فى تجريف الأرض، وعند الظهيرة كانت إحدى

الشاحنات المكشوفة مقلوبة فى الطريق، وقد أحدثت حفرة كبيرة فى الأرض بعمق ثلاثة أمتار، فتوقف المرور حتى جاء طاقم الصيانة واستطاع ردم الحفرة ورفع الشاحنة، انطلق البخار من القطار فى الجانب الشمالى؛ إيذانا بالتحرك، وكان «ك» يرتدى سترة الإسعاف البيضاء المتسخة ويحمل المعطف وكيس الرماد فى يديه، فسارع بتسلق القطار، كما فعل كثير من الرجال الصامتين المرهقين، لم يوقفه أحد وبدأ القطار فى التحرك ببطء فى اتجاه الشمال عبر مسار خط السكك الحديدية الفردى، وكان يقف فى نهاية القاطرة اثنان مسلحان من جنود الحراسة؛ لمراقبة الطريق.

طوال ساعتين من الركوب تظاهر «ك» بالنوم، وربما كان الرجل الجالس قبالته يبحث عن شىء يأكله، فقام بدفع كيس الرماد من بين أقدام «ك»، وعندما شاهد الرماد بداخله سارع بإغلاقه وإعادته إلى مكانه، كان «ك» يراقبه بعينين نصف مفتوحتين، لكنه لم يقل شيئا ولم يبد أى اعتراض.

نزلوا عند نهر (توز) بعد الظهر فى تمام الخامسة، ووقف «ك» فوق الرصيف دون أن يعرف ما سوف يحدث بعد ذلك، ربما يكتشفون أنه استقل القطار الخطأ، فيقومون بترحيله عائدا إلى (وورسيستر)، أو ربما يتحفظون عليه فى هذا المكان المنعزل والعاصف بحجة عدم امتلاكه أوراقا ثبوتية أو تصريحا بالمغادرة، وقد يكون بقية الطريق فى حالة من الطوارئ الناتجة عن كثير من

المنحدرات والمسارات الوعرة، فيقومون عندئذ بتفريق الرجال شمالا وجنوبا للعمل فى إصلاح الطريق من جديد دون مقابل بالطبع، وإنما بتقديم العصيدة والشاى فقط لضمان بقائهم أحياء.

لكن الحارسين عبرا بجانب الرجال فوق الرصيف، ومضيا فى طريقهما دون أن يتفوها بأى كلمة تاركين إياهم وسط رقعة من الأرض مليئة بالجمر ورماد الفحم؛ لاستئناف حياتهم المتوقفة.

لم ينتظر «ك» كثيرا وبدأ فى عبور الطريق، وراح يسلك المسار المؤدى إلى مواقف الحافلات وملاعب الأطفال والفنادق الصغيرة المنتشرة على طول الطريق الدولى، وكانت ألوان الحواجز الخشبية عند منعطفات الطريق باهتة، وبدا أن مواقف الحافلات مغلقة منذ زمن بعيد، غير أن دكانا صغيرا تعلن اللافتة من فوقه عن مشروب الكوكاكولا كان مفتوحا وإلى جواره قفص من البرتقال الذابل، وصل «ك» إلى باب الدكان فالتقى بامرأة عجوز تحمل قفة سوداء، فردت المرأة ذراعيها لتحيته والترحيب به وقبل أن يقترب منها ويرفع يديه؛ كى يبادلها التحية أجبرته على التراجع بعيدا عن العتبة، ثم أغلقت الباب بالقفل فى وجهه، نظر من خلال الزجاج وظل يطرق الباب ويلوح بورقة نقدية من فئة العشر راندات؛ لطمأنتها، لكن المرأة العجوز اختفت خلف منضدة الدكان العالية، جاء من بعده رجلان آخران كانا معه فى القطار وشاهدا ما حدث له فألقى أحدهما

حفنة من الحصى فوق نافذة الدكان، ثم استدار الرجلان وغادرا المكان.

ظلّ «ك» فى مكانه واستطاع أن يرى الحافة السوداء من ثياب المرأة العجوز فيما وراء صناديق الحلوى المكشوفة وخلف الأرفف، فرفع يديه قبالة عينيه، وظل ينتظر دون أن يتمكن من سماع شىء سوى صوت الرياح القادمة من المروج وصوت ارتطام لافتة الكوكاكولا فوق رأسه، أطلّت العجوز برأسها بعد لحظة من خلف المنضدة وشاهدت نظراته المحدقة داخل الدكان، كانت ترتدى نظارة بإطارات سوداء سميكة، وكان شعرها الفضى معقودا إلى الخلف، واستطاع «ك» أن يشاهد فوق الأرفف من ورائها الدقيق والسكر وبعض الطعام المعلب والمنظفات، وكانت سلة مليئة بالليمون ملقاة فوق الأرض أمام المنضدة، فعاود التلويح بالورقة النقدية عبر الزجاج، لكن المرأة العجوز لم تتزحزح من مكانها ولم تتأثر برؤية النقود.

فتح حنفية المياه المجاورة لمحطة الوقود، لكنها لم تعمل، فذهب للشراب من الحنفية الواقعة خلف الدكان وفيما وراء الواحة كانت تقف عند الموقف مجموعة كبيرة من هياكل السيارات، جرّب كثيرا من الأبواب حتى وجد باب إحدى السيارات مفتوحا واكتشف عدم وجود المقعد الخلفى للسيارة، لكنه كان مرهقا بشدة فلم يحاول البحث عن مكان مريح وآمن فى سيارة أخرى، كانت الشمس فى

طريقها للغروب خلف الجبال وتلوَّن السحاب باللون البرتقالى حين شدَّ الباب لإغلاقه، ثم رقد فوق أرض السيارة المليئة بالتراب بعد أن وضع كيس الرماد تحت رأسه وما هى إلا ثوان قليلة حتى غرق فى نوم عميق.

فى الصباح كان الدكان مفتوحا وخلف المنضدة كان يقف رجل طويل يرتدى ثيابا بلون كاكى، اشترى منه «ك» ثلاث علب من الفول، بخلطة الطماطم وعلبة من لبن البودرة وعلبة كبريت دون أى مشاكل، ثم عاد إلى خلف الموقف وأشعل النار لتسخين علب الفول، بينما راح يصب بودرة اللبن فى كفه ويلعقها بلسانه، وبعد الانتهاء من تناول علبة فول واحدة بدأ فى الرحيل عبر الطريق السريع، وكان الطريق شاقا من كثرة الوحل وكانت الشمس على يمينه، ظلَّ يمشى بثبات طوال اليوم مرورا بمساحات كبيرة من الأراضى المنبسطة الشاغرة إلا من الأشجار المنخفضة والأحجار، فلم يكن العثور على مكان للاختباء شيئا يسيرا، وكانت القافلات تعبر فى كلا الاتجاهين لكنه لم يهتم بها، وحين حلَّ المساء انطلق من الطريق وعبر السياج؛ حيث وجد مكانا لقضاء الليلة بجوار ضفة النهر القاحل، أشعل النار مرة أخرى وتناول علبة الفول الثانية بعد تسخينها، ثم نام بالقرب من جذوة النار دون الإحساس بضوضاء الليل أو الرياح الجالبة للحصى أو حفيف ورق الأشجار.

فور عبوره السياج ودخوله الواحة المليئة بالمروج أصبح السير مريحا، فلم يتوقف عن المضى فى سيره طوال اليوم، واستطاع فى الضوء الخافت أن يصطاد حمامة برمية حجر من فوق غصن الشجرة قام على الفور بقطع رقبتها وتنظيفها، ثم أحضر سيخا من الحديد وبدأ عملية الشواء، التهم الحمامة مع علبة الفول الأخيرة بنهم شديد.

فى الصباح أيقظه رجل عجوز من أبناء البلد يرتدى معطفا عسكريا ممزقا ذا لون بنى، وأخبره بطريقة غريبة وعنيفة عن ضرورة الرحيل الفورى من مكانه، فقال «ك» معترضا: لقد نمت هنا فقط ولا أبغى شيئا آخر.

قال الرجل العجوز: لا تجلب لنفسك المتاعب فسوف يعثرون عليك وسط مروجهم ويطلقون عليك الرصاص، أنت تثير القلاقل، ارحل الآن.

سأله «ك» عن الاتجاهات المناسبة والآمنة، لكن العجوز أشاح ملوحا بيديه، وبدأ فى إطفاء ما تبقى مشتعلا من النار بإلقاء القاذورات فوقها، تراجع «ك» وراح يخوض فى الوحل لمدة ساعة كاملة بموازاة الطريق السريع وحين شعر بالأمان عبر السياج مرة أخرى تناول نصف قبضة من الذرة المسحوق والسماد من حوض التغذية المجاور للسد وصنع منهما العصيدة وأكلها، ثم ملأ قلنسوته بما تبقى منها، وقال لنفسه: وأخيرا أنا ما زلت حيا.

لم يكن يسمع شيئا فى بعض الأحيان إلا صوت قدمى بنطاله وهما يصطدمان ببعضهما البعض، وكانت الطبيعة من مكان لآخر خالية من الحياة، فراح يتسلق التل، ورقد فوقه وهو يستمع إلى همسات الصمت والهدوء القاتل وشعر بدفء الشمس يتخلل عظامه.

تراءتْ له من خلف شجرة صغيرة ثلاثة مخلوقات غريبة وكلاب صغيرة بآذان كبيرة لكنها لاذت بالفرار بعيدا عنه.

فكر قائلا لنفسه: أستطيع العيش هنا حتى أموت وللأبد، لا شىء يحدث هنا وكل يوم سيكون مثل سابقه، ولا يوجد شىء يمكن قوله ولن يكون، يجب أن يأتى الناس للعيش هنا وسط ذلك الهدوء الكامل وأن يقوموا بتوريث المكان لأبنائهم وأحفادهم للأبد.

بدأ القلق الذى عانى منه طوال الطريق يتلاشى، حتى إنه كان أحيانا وهو يواصل سيره لا يعرف إذا كان مستيقظا أم نائما؟

انطلقتْ طائرتان فى السماء بسرعة كبيرة من الجنوب إلى الشمال وخلفتا وراءهما موجات متلاحقة من الضجيج وسحبا من الدخان راحت تتلاشى ببطء.

تسلَّق ربوة التل الأخيرة حين كانت الشمس تتراجع، ثم عبر الجسر، حتى وصل إلى شارع المدينة الرئيسى الواسع، وكان الضوء يميل إلى اللون البنفسجى القاتم، مر بجوار محطة الوقود

ومجموعة من المحلات والدكاكين والفنادق الصغيرة وكانت جميعها مغلقة، ثم سمع نباح كلب تبعته كلاب أخرى راحت تشاركه النباح وكانت أنوار الشارع مطفأة، كان واقفا أمام فاترينة أحد المحلات المغلقة التى تعرض ملابس الأطفال حين مرَّ من خلفه شخص ما، مضى الشخص فى طريقه، لكنه توقف فجأة ثم عاد إليه وقال: سيكون هناك حظرٌ للتجوال عندما تدق الأجراس ومن الأفضل أن تبتعد عن الشارع وترحل بعيدا.

استدار «ك» وشاهد رجلا أصغر منه يرتدى بدلة خضراء ويحمل صندوقا خشبيا، سأله الرجل الشاب: هل أنت بخير؟

أجاب «ك»: أنا لا أريد التوقف لأننى متوجه إلى مقاطعة الأمير ألبرت والطريق إلى هناك طويل جدا.

ذهب مع الشاب الغريب ونام فى بيته بعد أن تناولا وجبة من الشوربة والخبز المحمر، وكان بالبيت ثلاثة أطفال أصغرهم فتاة، كانت جالسة فوق ركبة أمها دون أن تتوقف عن التحديق فى «ك» أثناء تناوله الطعام، ولم تبعد نظراتها عنه رغم تحذيرات أمها، بينما كان الطفلان الأكبر منها منشغلان تماما بطعامهما، تردد «ك» كثيرا قبل الحديث عن رحلته، ثم قال: قابلت رجلا منذ أيام قليلة وأخبرنى أنهم سيطلقون النار على أى شخص يجدونه فى أرضهم.

هزَّ صديقه الشاب رأسه، وقال: لم أسمع بذلك مطلقا، ينبغى على الناس أن تساعد بعضها البعض، هكذا أعتقد.

فرح «ك» بكلام مضيفه الشاب وتساءل: هل أؤمن أنا بمساعدة الناس؟ قد أساعد الناس وقد لا أفعل، أنا فى الحقيقة لا أعرف مسبقا فكل شىء قابل للحدوث، لست متأكدا وأشك كثيرا فى كل ما يتعلق بالمساعدة.

ثم فكر قائلا: قد أكون إنسانا صعبا كالأرض المليئة بالأحجار.

انطفأت الأنوار، فرقد «ك» وظل فترة طويلة يستمع إلى تحركات الأطفال وأصواتهم بعد أن احتل سريرهم وناموا فوق المرتبة على الأرض، استيقظ «ك» لأول مرة أثناء الليل بعدما شعر أنه يتحدث وهو نائم، غير أن أحدا لم يسمعه على ما يبدو، وعندما استيقظ للمرة الثانية كان ضوء النهار قد سطع وكان الأب والأم يجهزان أطفالهما للذهاب إلى المدرسة، ويطلبان منهم عدم إزعاج الضيف، تحرَّك ببطء وخفة من تحت البطاطين وتسلل إلى الخارج، حيث وقف فى الهواء الطلق أمام عتبة الباب، كانت النجوم لا تزال متلألئة، وثمة بريق قرنفلى اللون كان ساطعا فى الأفق باتجاه الشرق.

خرج الولد لدعوته على الإفطار وعلى مائدة الطعام، انتابته رغبة فى الحديث، فأمسك بحافة المائدة وجلس منتصبا، كان قلبه مفعما بالمشاعر، وأراد أن يعبر عن مدى امتنانه وتقديره، لكنه لم يجد الكلمات المناسبة ولم يستطع أن يتفوه بشىء، نظر الأطفال إليه وساد الصمت، بينما كان الأب والأم يتوجهان ببصرهما بعيدا.

طلب الوالدان من الطفلين الكبار أن يسيرا مع «ك» حتى المنعطف المؤدى إلى (سيويويكسبورت)، وعندما وصلوا إلى المنعطف وقبل أن يفترق الطفلان عن «ك» قال الولد مشيرا إلى الكيس: هل هذا هو الرماد؟

أومأ «ك» برأسه وفك عقدة الكيس البلاستيكية، ثم قال له: هل تريد أن تراه؟

انحنى الولد فى البداية؛ ليشم الرماد ومن بعده فعلت أخته الشىء نفسه، ثم سأله الولد: وماذا تنوى أن تفعل بهذا الكيس؟

أجاب «ك»: سوف آخذه معى إلى المكان الذى ولدت فيه أمى منذ زمنٍ بعيد، وهى التى طلبت منى ذلك.

سأله الولد مرة أخرى: هل قاموا بإحراقها؟

شاهد «ك» هالة من القداسة فوق الرماد، وقال: لم تشعر بأى شىء، كانت مجرد روح فى تلك اللحظة.

استغرقت المسافة من (لينجسبورج) إلى مقاطعة الأمير ألبرت ثلاثة أيام؛ حيث مضى فى اتجاه الطريق الموحل وعبر منحنيات كبيرة حول بيوت الفلاحين، كان الجو حارا ذات يوم من الأيام الثلاثة، فخلع ملابسه، وألقى بنفسه فى مياه السد المهجور، وحدث ذات مرة أن توقف أحد الفلاحين عند جانب الطريق، وكان يقود

سيارة نقل صغيرة وسأله عن وجهته فأجاب «ك» بلهجة غريبة: أنا ذاهب إلى «الأمير ألبرت» لزيارة عائلتى.

لم يقتنع الفلاح بلهجته الغريبة ونبرة صوته، لكنه قال له: اصعد.

أشار «ك» برأسه فقال الفلاح مرة ثانية: اصعد، سأقوم بتوصيلك.

واصل «ك» سيره وقال: أنا بخير.

انطلقت السيارة الصغيرة بسرعة وسط سحابة من الغبار، فهرع «ك» فى الحال بعيدا عن الطريق، واقترب من حافة النهر؛ حيث ظل مختفيا إلى ما بعد غروب الشمس.

تذكر الفلاح بعد ذلك، ولم يستطع أن يستدعى فى ذهنه سوى قبعته الطويلة وأصابعه القصيرة البدينة التى أشار بها حين طلب منه الصعود، وتذكر كذلك الشعر البرونزى بين كل عقلة إصبع من أصابع الفلاح، وبدا واضحا أن «ك» لا يستطيع تذكر كل شىء، لكنه كان قادرا على استدعاء بعض التفاصيل الصغيرة فقط.

فى صباح اليوم الرابع كان يجلس القرفصاء فوق الرابية يراقب الشمس وهى تتسلل إلى مقاطعة الأمير ألبرت، وسمع صياح الديكة، وكان وميض الضوء ينبعث من زجاج النوافذ، وثمة طفل يقود حمارين فى الطريق الرئيسى، كان الجو هادئا تماما، وأثناء هبوطه من الرابية

قاصدا المدينة انتبه لصوت رجل يطلب مقابلته والحديث معه حديثا منفردا وهادئا وبلا انقطاع، لكن الرجل لم يظهر فشعر بالحيرة والارتباك، ثم توقف ليسمع من جديد، وقال لنفسه متسائلا: هل هو صوت الأمير ألبرت؟ لكن الأمير ألبرت ميت.

حاول أن يميز الكلمات، لكنها كانت خافتة جدا، ولم يستطع حتى أن يسمعها جيدا رغم انتشار الصوت فى الهواء مثلما ينتشر الضباب، توقف الصوت عن الكلام بعد لحظة فسمع من بعيد صوت الموسيقى.

مضى فى الطريق المؤدى إلى المدينة من ناحية الجنوب، ومر فى طريقه بطاحونة قديمة وبعض حدائق تحيطها السياج وكان زوج من الكلاب الملونة داخل السياج يجرى بسرعة إلى الأمام وإلى الخلف متلهفا للنيل من «ك»، كانت بعض البيوت القليلة على بعد مسافة صغيرة، وثمة امرأة شابة تجلس راكعة أمام حنفية البيت الخارجية، كانت تغسل الطاسة حين نظرت من فوق كتفها إلى «ك» الذى تحسس قلنسوته ومضى بعيدا عنها.

كانت الدكاكين والمحلات على جانبى الشارع؛ مخبز ومقهى ومتجر للملابس وبنك وورشة لحام وتاجر عمومى ومواقف سيارات، كان دكان التاجر العمومى مغلقا بسلسلة حديدية، فجلس «ك» فوق عتبة الدكان، ولم يستطع أن يفتح عينيه فى مواجهة الشمس، أغلق عينيه وقال: أخيرا، لقد وصلت وهأنذا هنا.

كان لا يزال جالسا فوق عتبة الدكان بعد مرور ساعة وكان مستغرقا فى النوم وفمه فاغرا، التفَّ حوله الأطفال وكانوا يهمسون ويضحكون، رفع أحدهم القلنسوة من فوق رأسه، وقام بارتدائها وهو يحرك فمه يمينا ويسارا فى سخرية، فانطلق زملاؤه فى الضحك، ألقى الطفل بالقلنسوة فوق الجانب الأيسر من رأس «ك»، وحاول اختطاف كيس الرماد لكن «ك» كان يقبض بكلتا يديه فوق الكيس.

جاء صاحب الدكان حاملا مفاتيحه، فتراجع الأطفال، ثم استيقظ «ك» حين بدأ الرجل يفك السلسلة الحديدية.

كان الدكان مظلما من الداخل وغير منظم، كانت مواسير الحمام الحديدية وعجل الدراجات معلقة فى السقف وإلى جوارها سيور المراوح وخراطيم التدفئة، كما كان الدكان يعج بصناديق المسامير وركام من الجرادل البلاستيكية وأرفف من البضائع المعلبة والمشروبات الكحولية والحلوى وملابس الأطفال حديثى الولادة والمشروبات المثلجة.

تقدَّم «ك» ناحية صاحب الدكان، وقال له: السيد (فوسلو) أو السيد (فيسر).

كانت تلك هى الأسماء التى استعادتها أمه من الماضى وأخبرته عنها، فاستطرد قائلا: أنا أبحث عن السيد (فوسلو) أو ربما هو السيد (فيسر) وهو فلاح.

سأله صاحب الدكان : هل تعنى السيدة (فوسلو)؟ إنها فى الفندق ولكن لا يوجد ما يسمى بالسيد (فوسلو).

قال «ك»: إننى أبحث عن السيد (فوسلو) أو السيد (فيسر) الذى كان فلاحا منذ زمن بعيد، ولكننى لا أتذكر الاسم بالضبط وإذا وجدت المزرعة فإننى سأعرفها.

* لا توجد مزرعة أو فلاح باسم (فوسلو) أو (فيسر) فهل تعنى (فيساجى)؟ وماذا تريد من الـ (فيساجى)؟

أشار "ك" إلى كيس الرماد وقال: يجب أن أضع شيئا هناك.

* لقد جئت إذن من بعيد إلى المكان الخطأ فلا يوجد أحد فى (فيساجى)، إنه مكان مهجور منذ زمن بعيد، هل أنت متأكد من أنك تريد (فيساج)؟ لقد رحل أهل (فيساج) منذ سنوات طويلة.

طلب «ك» قطعة من البسكويت بالزنجبيل فسأله صاحب الدكان: منْ الذى أرسلك إلى هنا؟ كان يجب أن يخبروك بهوية الشخص الذى تريده واسمه الكامل، قل لهم ذلك حين تقابلهم.

بدا «ك» وكأنه أحمق، ثم تمتم بكلمات مبهمة، وغادر الدكان.

مشى فى الشارع، وراح يسأل نفسه: أين يمكننى محاولة السؤال مرة أخرى؟

كان أحد الأطفال يجرى خلفه، وينادى: أيها السيد، أستطيع إخبارك بمكان الـ (فيساج).

توقف «ك» فأضاف الطفل: لكنه مكان مهجور وخال من الناس.

أشار الطفل له أن يتوجه ناحية الشمال على طول الطريق المؤدى إلى (كرودفونتاين)، ثم باتجاه الشرق بموازاة طريق المزرعة بامتداد وادى (موردين آرسريفيير).

سأل «ك»: وكم تبعد المزرعة عن الطريق الرئيسى؟ هل هو طريق طويل أم قصير؟

التبس الأمر على الطفل ولم يكن متأكدا ولم يكن أحد من زملائه يعرف فقال الطفل: ستجد الـ (فيساج) بعد الإشارة وقبل أن تصل للجبال وهو طريق طويل إذا قطعته سيرا على الأقدام.

ناولهم نقودا وطلب منهم أن يشتروا بها بعض الحلوى.

وصل إلى الإشارة فى وقت الظهيرة، واستدار نحو الطريق المؤدى إلى البيوت الخربة المهجورة، وحين شارفت الشمس على الغروب تسلق أحد المرتفعات، فشاهد مزرعة مهجورة عبر منها، وراح يتسلق السفوح والمنحنيات شديدة الانحدار حتى وصل إلى البيت، كانت كل الأبواب والنوافذ مغلقة وكان الجزء العلوى من البيت محطما وتظهر منه العوارض الخشبية، وكانت ألواح السقف الصفيحية المطلية بالزنك ملتوية. وثمة حمامة برية تطير وتحاول

الدخول فى إحدى فتحات الجزء العلوى المكسور، بينما كان أحد الألواح الصفيحية يرفرف من شدة الرياح، خلف البيت كانت الحديقة جرداء وخالية من النباتات والفاكهة، ولم يجد «ك» جراج السيارات كما كان يتوقع، وإنما مجرد سقيفة من الخشب والحديد وفى مواجهتها حظيرة للدجاج مصنوعة من السلك الشائك وشرائط من البلاستيك الأصفر المتهالك، وفى مكان مرتفع خلف البيت كانت مضخة المياه دون حنفية ولا تعمل لكن مضخة أخرى كانت تومض على بعد من الواحة والمرج العشبى.

كانت الأبواب الأمامية والخلفية مغلقة فانتزع القفل بقوة، حتى تزحزح الخطاف من مكانه، ثم راح ينظر بإمعان من نافذة الشباك لكنه لم يستطع رؤية شىء.

سارع زوج من عصافير السنونو بالطيران فور دخوله المرج العشبى، وكانت الأتربة تغطى أدوات تقليب التربة وخيوط العنكبوت تحتل جزءا كبيرا من الأرض وكانت الدنيا معتمة، فلم يستطع الرؤية إلا بالكاد. وحين تسللت رائحة الخشب والوبر والقار إلى أنفه انسحب بموازاة الجدران متخطيا المعاول والمجاريف والمواسير والأسلاك وصناديق من الزجاجات الفارغة حتى وصل إلى كومة من أجولة البذور الفارغة، سحب الأجولة إلى مكان نظيف وصنع منها سريرا.

انتهى من تناول آخر قطعة من البسكويت الذى اشتراه وكانت لا تزال نصف النقود بحوزته لكنه لم يعد فى حاجة إليها، تلاشى الضوء وكانت الخفافيش ترفرف فرقد فوق سريره وظل يستمع إلى الأصوات المصاحبة لهواء الليل الذى كان أكثر شدة من هواء النهار، ثم قال لنفسه قبل أن ينام: أنا هنا الآن أو أننى هنا تقريبا على الأقل.

كانت الخراف وهى تجرى فى المزرعة هى أول الأشياء التى شاهدها حين استيقظ فى الصباح، كان قطيع الخراف المكون من اثنى عشر أو أربعة عشر يمشى الهوينا من خلف البيت متوجها إلى الفناء تحت قيادة رجل عجوز ذى شعر مجعد، وقف «ك» فوق سريره لرؤية المشهد وعندئذ انطلقتْ الخراف وتبعثرتْ فى الطريق المؤدى إلى ضفة النهر وما هى إلا لحظة قصيرة حتى اختفت تماما جلس، وبدأ فى ربط حذائه على مهل وهو يفكر قائلا: إذا أردت البقاء حيا فيجب اللحاق بتلك البهائم ذات الشعر الطويل وذبح واحدة منها وتقطيعها إلى أجزاء صغيرة كما يفعلون مع بقية المخلوقات المشابهة لها.

هرع خلف قطيع الخراف متسلحا بالمطواة، وظل يطارد القطيع طوال اليوم، كانت الخراف جامحة فى البداية لكنها استسلمتْ أخيرا من كثرة الهرولة خلفها وحين أصبحت الشمس حارقة توقفتْ الخراف لالتقاط أنفاسها فاستطاع الاقتراب منها، رفعت الخراف

أرجلها أمامه وفى تلك اللحظة شعر « ك» بجسده يرتعش وكان من العسير عليه أن يتخيل نفسه شخصا وحشيا وهمجيا وهو يحمل المطواة، حتى إنه لم يستطع التخلص من الخوف الذى انتابه حين بادر بطعن الخروف البنى المنقط فى رقبته البيضاء مما جعل المطواة، تهتز فى يده وتصيبها بجروح، سارعتْ الخراف بالهرولة من جديد، وقال «ك» لنفسه محاولا رفع معنوياته والتخلص من عقدة الذنب: إن للخراف أفكارها الخاصة الكثيرة وليست لدى سوى فكرة واحدة غير أن فكرتى الوحيدة أقوى وأهم من أفكار الخراف الكثيرة.

حاول أن يسوق الخراف باتجاه آمن ومحاط بالأسوار، وظل يدور حولها فى دائرة كبيرة حول مضخة المياه بجوار الخزان الأسمنتى المربع الذى شاهده بالأمس عند بيت الفلاحين، لكنها كانت دائما تهربَ منه ولم يستطع التحكم فيها، اقترب من الخزان واكتشف أنه ملىء إلى آخره، وكانت المياه تفيض منه وتغرق الأرض حواليه بالوحل وحين اقترب أكثر سمع نقيق الضفادع، شرب قليلا من الماء وشعر بالحيرة والارتباك من وفرة المياه بذلك القدر، وفى وقت متأخر من بعد الظهر راح يواصل مطاردة الخراف التى كانت تسير أمامهَ على مهل من مكان مظلل إلى آخر، هبَّت رياح خفيفة وصدرتْ أصوات مجلجلة من سير المضخة، ثم بدأت قطرات من الماء المتقطع تتدفق من الماسورة.

كان جائعا ومرهقا ويخشى التخلى عن التزامه بالمطاردة ويخاف من فقدان الخراف أثناء الليل فى ذلك المرج العشبى الممتد، التقط حقائبه وصنع لنفسه سريرا فوق الأرض المكشوفة العارية تحت القمر المكتمل، وكان حريصا أن يكون مرقده قريبا بقدر المستطاع من الخراف، ثم نام نوما متقطعا ولم يستيقظ إلا فى منتصف الليل على إثر أصواتها وتحركاتها أثناء ذهابها للشراب، كان لا يزال مرهقا بشدة فنهض وتعثر فى السير فى اتجاهها، تجمعت الخراف حول نفسها فى دائرة صغيرة وألقت بنفسها فى الماء وحين غطس فى الماء تبعثرت الخراف فى كل الاتجاهات وراحت تصرخ طالبة النجدة، انزلق واحد من الخراف تحت قدميه وراح يرفس كالسمكة فى الوحل لاستعادة اتزانه، لكن «ك» قفز بكل جسده فوقه وقال لنفسه: يجب أن أتحلى ببعض القسوة وألا أتهاون فى الضغط عليه ولا يجب التراجع عن قرارى.

شعر بالأجزاء الخلفية من الخروف تخفق تحت يديه ولم تتوقف عن الثغاء المتواصل من شدة الفزع وكان جسده يرتعش من التشنج، باعد «ك» بين قدمى الخروف ووضع يديه حول رقبته، ثم ضغط على رأسه بكل قوته تحت سطح الماء حتى وصل به إلى القاع غير أنه ظل ممسكا بالخروف بين ركبتيه، بعد لحظة بدأت ركلات الخروف تضعف فتوقف «ك» عن الضغط، وحين توقف جسد الخروف عن الارتجاف بعد وقت طويل عاد «ك» للضغط على رأس

الخروف مرة ثانية، شعر ببرودة المياه التى تسللت إلى أطرافه فسارع بالخروج من الماء.

كان ملتحفا بملابسه المبللة وكانت أسنانه تصطك ببعضها البعضِ فلم يستطع النوم طوال الفترة المتبقية من الليل، أوشك القمر على الاختفاء وحين اقترب موعد الفجر سطع أول خيط من الضوء فاستطاع رؤية الأشياء، عاد إلى بيت المزرعة ووضع كوعه فوق زجاج الشباك دون أن يفكر، ثم أزاح القفل المفتوح وفتح الشباك عن آخره، وبدأ يتحرك من غرفة إلى أخرى وباستثناء قطع الأثاث الكبيرة والخزانات الصغيرة والأسرِّة والدواليب لم يكن يوجد شيء، كانت آثار أقدامه فوق الأرضية المليئة بالأتربة واضحة، وعندما دخل المطبخ كانت الطيور مختبئة فى كل الأركان فأصابها الفزع، وسارعت بالتحليق والفرار إلى الخارج عن طريق فتحة فى السقف، تبعثر الروث فى المطبخ وكانت كومة من الطوب متراصة عند الجدار البعيد؛ حيث كان الجزء العلوى من الجدار متآكلا وتنمو بداخله وحواليه بعض النباتات العشبية.

قبالة المطبخ كانت توجد حجرة المؤن، فتح «ك» باب الحجرة وألقى داخلها بالقفل وكان صف من شماعات الملابس الخشبية مثبتا على طول أحد الجدران، كانت الشماعات خالية من الملابس، لكن واحدة منها كانت مغطاة بالرمال ومخلفات الفأر وكانت أدوات المطبخ مرصوصة فوق أحد الأرفف إلى جانب مجموعة من الأطقم

المنزلية والأكواب البلاستيكية والأباريق الزجاجية وكانت الأتربة وخيوط العنكبوت تغطى كل شئ، كانت زجاجات الزيت والخل المملوءة إلى نصفها فوق رف آخر بجوار أباريق من مكعبات السكر ولبن البودرة وثلاث زجاجات من الطعام المعلب، فتح "ك" زجاجة واحدة بعد أن أزال ختم الشمع وراح يلتهم محتوياتها بنهم، ثم اكتشف أن مذاقها مثل مذاق المشمش، اختلطت حلاوة الفاكهة فى فمه برائحة العرق القديم المنبعث من ملابسه المبللة، فلم يستطع أن يمنع نفسه من التقيؤ، لكنه تناول الزجاجة وخرج، ثم وقف تحت ضوء الشمس وبدأ فى تناول ما تبقى من الزجاجة ببطء.

عاد إلى السد بعد مسيرة طويلة داخل المرج العشبى وكان جسده يرتعش رغم أن الطقس كان دافئا.

كان الخروف يطفو فوق المياه وتحيط به كومة من الطين البنى فتقدم «ك» بصعوبة واستجمع كل قوته، ثم سحبه من أقدامه الخلفية، كانت أسنانه مكشوفة وعيناه الصفراوتين مفتوحتين عن آخرهما، وكانت قطرات من الماء تنساب من فمه ففقد شهيته ولم يعد يفكر فى تقطيع ذلك الشئ الكريه والتهامه، كما لم يعد يشعر بشدة الجوع الذى انتابه بالأمس، كانت بقية الخراف تقف فوق أحد المرتفعات على بعد مسافة قريبة وتميل بآذانها ناحية «ك»، ولم يستطع أن يصدق أنه أمضى جزءا كبيرا من اليوم فى مطاردة الخراف بالمطواة، وكأنه رجل مجنون، ثم راح يفكر فى الذهاب

بالخروف عبر الطريق الموحل وتحت ضوء القمر إلى مكان ما ليتولى بنفسه أمر دفنه بعد أن يموت وينسى بعد ذلك كل ما حدث، لكنه فكر أيضا فى ضرب الخروف فوق أفخاذه حتى يزحف فوق قدميه ويلوذ بالفرار ورأى أن تلك الفكرة هى الأفضل.

مضت ساعات عديدة وهو يسحب الخروف عبر المرج العشبى عائدا إلى البيت فى المزرعة، وكانت الأبواب مغلقة فاضطر إلى تسلق النافذة رافعا إياه لدخول المطبخ، لكنه قال لنفسه: من الغباء أن أذبحه فى المطبخ الملىء بالطيور ورائحة الروث والأتربة.

سحبه إلى الخارج مرة أخرى وانتابه شعور بالضعف، فلم يستطع الإمساك به، فوضع يده فوق وجهه، وأغلق عينيه؛ لاستعادة قوته من جديد.

لم يسبق له القيام بذبح أو سلخ وتنظيف حيوان من قبل ولم يكن يملك شيئا يساعده فى ذلك سوى المطواة، شقّ بطن الخروف وضغط بذراعه فوق الشق وانتظر تدفق الدم الساخن، غير أنه فوجئ بطين المستنقع الموحل داخل بطنه، ضغط فوق البطن فتدفقت الأعضاء والأحشاء بألوانها الزرقاء والبنفسجية والقرنفلية إلى الخارج حتى وصلت إلى قدميه، ثم سحب الجسد بعيدا عن الأحشاء المتناثرة قبل أن يواصل عمله وبدأ فى سلخ ما استطاع من الجلد، لكنه لم يستطع تقطيع القدمين والرأس إلا بعد عثوره على

منشار فى الزريبة، وفى النهاية علّق جسد الخروف المسلوخ فى سقف حجرة المؤن، وبدا الجسد صغيرا جدا بالنسبة إلى كومة الفضلات، جمع كومة الفضلات فى كيس ودفنها فى الحديقة، كانت يداه وأكمامه ملطخة بالدم وحين اكتشف عدم وجود مياه بالقرب منه راح ينظف نفسه بالرمال لكن الذباب ظل يلاحقه أثناء عودته إلى المزرعة.

قام بتنظيف الموقد ثم أشعل النار ولم يجد من أدوات المطبخ ما يساعده فى عملية الطهو، قطع فخذ الخروف وأمسك به فوق اللهب حتى تغير لونه إلى اللون البنى القاتم، وبدأت تتساقط منه عصارة الدهون، ثم بدأ فى الأكل دون إحساس بالمتعة أو السرور ودون أن يتوقف عن التفكير قائلا: ماذا سأفعل بعد آخر قطعة من الخروف؟

كان يبتلع الطعام بصعوبة وشعر بألم فى رأسه، كما كانت بشرته ساخنة وجافة فعرف أنه مصاب بالزكام، تناول الأباريق الزجاجية ومضى فى اتجاه السد؛ كى يملأها بالماء وفى طريق عودته شعر بإرهاق شديد ولم يستطع مواصلة السير فجلس فوق أرض المرج العشبى القاحلة، وضع رأسه بين ركبتيه وتخيل نفسه راقدا فوق سرير نظيف مفروش بملاءات ناصعة البياض، ثم راح فى نوبة من السعال وانطلق منه صوت كنعيب البوم وسمع صوتا دون صدى ينطلق من داخله، حاول إطلاق الصوت نفسه مرة ثانية رغم ما كان

يشعر به من ألم فى حلقه، وكانت هى المرة الأولى التى يسمع فيها صوته منذ أن غادر مقاطعة الأمير ألبرت فقال: أستطيع هنا إطلاق أى صوت يعجبنى.

كان يرتعش من الحمى مع بداية الليل فسحب الأكياس التى ينام عليها إلى الحجرة الأمامية ونام فوقها، ثم حلم أنه نائم فى بلدته بأحد عنابر النوم فى الظلام الشديد، وعندما فرد يده لمس هيكل السرير وكانت رائحة البول تنبعث من المرتبة المصنوعة من الألياف لكنه لم يتحرك؛ خشية إيقاظ الأطفال النائمين حوله، بدأ فى الرقاد من جديد دون أن يغلق عينيه حتى لا يغرق فى مخاطر النوم وفى أحلامه الغريبة، قال لنفسه وقد شعر بثقل جفونه: إنها الساعة الرابعة وسوف يطلع النهار فى السادسة، لكننى مرهق بشدة وأوشك على السقوط.

شعر فى الصباح بحال أفضل فارتدى حذاءه وراح يتجول حول البيت، عثر على حقيبة سفر فى الرف العلوى من دولاب الملابس، وكانت الحقيبة تحتوى مجموعة من لعب الأطفال المكسورة وبعض قطع المكعبات، لكنه لم يجد شيئا يستطيع أن يستخدمه ويستفيد منه ولا أى شىء يساعده فى معرفة السبب الذى رحل من أجله الـ (فيساج) وقد كانوا يعيشون فى هذا المكان من قبله.

كان طنين الذباب يملأ المطبخ وحجرة المؤن وكان فاقدا للشهية، لكنه أشعل النار ووضع فوقها علبة من الصفيح بداخلها قطعة

صغيرة من لحم الخروف، ثم لمح أوراق الشاى داخل أحد البرطمانات فى حجرة المؤن، فصنع لنفسه كوبا ساخنا وعاد إلى السرير، وبدأ فى السعال من جديد.

كان كيس الرماد فى أحد أركان حجرة المعيشة، نظر إلى الكيس وتمنى أن تكون روح أمه منطلقة فى الهواء وأن تنعم بالسلام.

أصبح فى صحة أفضل فشعر بالسرور، فتح كل النوافذ وراح يستمع إلى صوت الحمام والسكون وهو راقد على ظهره فى حالة من الاسترخاء، وظل طوال اليوم يغفو قليلا ويعاود الاستيقاظ، لكنه نهض وأغلق النوافذ عندما تسللت شمس الظهيرة إلى الحجرة.

فى المساء عاوده الشعور بالهذيان أثناء محاولته عبور أرض البستان القاحلة، انبطح فوق الأرض وحفر أصابعه فى الرمال، ثم شعر بشىء ما يبتلعه فى الظلام.

أصبح الجو معتدلا بعد يومين، وبدأ فى التعافى مع مطلع اليوم الثالث وأصيب الخروف فى حجرة المؤن بالتلف حتى صدرت منه الروائح الكريهة، وبدا أن عدم اللجوء لقتل مثل تلك الحيوانات الكبيرة هو الدرس أو الدروس التى يجب تعلمها من ذلك الحدث، قطع قطعة من الخشب بالمطواة وصنع منها عصا مدببة، ثم ثبَّت فيها لسان حذاء قديم وأشرطة من المطاط، لاستخدامها فى إلقاء

الحجارة على العصافير المستقرة فوق الأشجار وقام بعد ذلك بدفن بقايا الخروف.

بدأ فى فحص البيوت الريفية ذات الحجرة الواحدة الواقعة عند جانب التل خلف المزرعة والمشيدة بالقرميد واستكشافها، وكانت أرضياتها من الأسمنت والسقف من الحديد، ولم يكن من اليسير الاعتقاد أن عمر تلك البيوت أكثر من نصف قرن فقال لنفسه: إذن لا يمكن أن تكون أمى قد ولدت هنا!

كانت بناية مستطيلة من الطوب اللبن تقف على بعد ياردات قليلة فوق الأرض المهجورة وسط حديقة الكمثرى المليئة بالأشواك فهل كانت تلك البناية هى التى شهدت مولد أمه؟

أحضر كيس الرماد من البيت ووضعه فى وسط البناية المستطيلة، ثم جلس وبدا فى حالة من الانتظار، ولم يكن يتوقع حدوث شىء بعينه، وإنما مجموعة من التوقعات لم يحدث منها شىء، هبَّت الرياح وكانت الخنفساء تهرول أمامه وفى ضوء الشمس كان صندوقا من ورق الكرتون المقوى موضوعا فوق صفيحة معدنية مليئة بالطين ولا شىء آخر وبدا أن خطوة تالية يجب الإقدام عليها لكنه لم يستطع.

تجوَّل بمحاذاة السور المحيط بالمزرعة ولم يجد جيرانا أو أى شىء يوحى بالحياة، لكنه شاهد طعاما متعفنا داخل حوض مغطى

بأسياخ من الحديد، تناول حفنة من الذرة ووضعها فى جيبه وعاد إلى مضخة المياه، وراح يتفحصها ويتحسس أجزاءها حتى عرف طريقة عملها، قام بتوصيل السلك المقطوع وأوقف دوران العجلة السريع.

واظب على النوم فى البيت، لكنه لم يشعر بارتياح وكان يتنقل من حجرة فارغة إلى أخرى كما يتنقل الهواء بلا هدف وكان يغنى ويحاول الاستماع إلى صدى صوته المتردد عبر الجدران والسقف، نقل سريره إلى المطبخ وهو يقول: أستطيع هنا على الأقل رؤية النجوم من خلال فتحة السقف.

فى أحد الأيام التى قضاها فى السد خلع كل ملابسه، وقام بغسلها فى الماء وبعد أن طرقها بقوة فوق الحائط؛ كى تجف بسرعة أمضى بقية اليوم نائما تحت ظلال الشجرة.

حان وقت دفن أمه فحاول عمل حفرة فوق قمة التل فى الجهة الغربية من السد، لكن صخرة جامدة اعترضت المجرفة التى يحفر بها على بعد بوصة واحدة من السطح، مما جعله يمضى نحو حافة التل؛ حيث مساحة الأرض الزراعية أسفل السد، حفر حفرة بعمق المسافة بين كوعه ويده، ثم وضع كيس الرماد فى الحفرة ورمى فوقه أول كومة من الرمل، انتابته الهواجس والشكوك فأغلق عينيه، وراح يفكر بعمق، وتمنى أن يسمع صوتا يؤكد له أن ما فعله هو الصواب، صوت أمه مثلا إذا كان صوتها ما زال موجودا أو صوت

أى شخص أو حتى صوته هو شخصيا، كان فى حاجة ماسة لسماع صوت يخبره بما يجب فعله غير أنه لم يسمع شيئا، فأخرج كيس الرماد من الحفرة، وقرر أن يتحمل المسئولية بنفسه، وعندئذ بدأ فى تنظيف مساحة مربعة فى منتصف الحقل لا تتعدى أمتار قليلة، وحفر بداخلها حفرة منخفضة بحيث لا تستطيع الرياح الإطاحة بكيس الرماد، ثم قام بتوزيع الرماد الناعم فوق التراب وراح يقلِّبه من مكان لآخر.

كانت تلك هى بداية حياته فى أعمال الفلاحة، وحين عثر فوق أحد أرفف زريبة البيت على بذور قرع العسل قام بتحمير بعضها وأكلها، وكانت بذور الذرة لا تزال معه واستطاع التقاط بعض حبات الفول المتفرقة من حجرة المؤن، ثم عمل لمدة أسبوع تقريبا فى تنظيف وحرث قطعة من الأرض بالقرب من السد وحفر حواليها مجموعة من الأخاديد، زرع بذور قرع العسل فى جزء صغير من الأرض وبذور الذرة فى جزء آخر، وعلى بعد مسافة قليلة من ضفة النهر غرس حبات الفول التى يمكن أن تتسلق الأشجار حين تنبت.

عاش معظم الوقت على تناول الطيور التى كان يصطادها وكان يقضى أيامه بين اصطياد الطيور بالقرب من المزرعة وحرث التربة، وكان يشعر بمتعة كبيرة عند غروب الشمس حين يفتح الصنبور المثبت فى جدار السد وتنطلق منه المياه وتغرق الأرض، حتى إنه قال لنفسه ذات مرة : ذلك لأننى بستانى وتلك هى طبيعتى.

شحذ مجرفته فوق الحجر واستيقظت بداخله من جديد الرغبة فى الزراعة، وفى غضون أسابيع قليلة اكتشف أن حياته قد تجاوزت رقعة الأرض التى يزرعها والبذور التى غرسها فى تلك الأرض.

كانت تعتريه نوبات من الفرح والابتهاج خاصة فى فترات الصباح حين كان يجد نفسه وحيدا وغير معروف، لكن نوبات أخرى من الألم والقلق كانت تنتابه كلما فكر فى المستقبل غير أن نشاطه فى العمل حال دون إصابته بالكآبة.

جف البئر ولم تعد مضخة المياه تجلب سوى قطرات قليلة وضعيفة من الماء، وتمنى بشدة أن يعود تدفق المياه كما كان، استطاع ضخ ما يكفى فقط للمساحة التى يزرعها وما سمح به مستوى ارتفاع السد من قطرات قليلة، وكان يراقب المستنقع وهو يجف دون انفعال، تشقّق الطين وذبلت الأعشاب وانقلبت الضفادع على ظهورها وماتت، ولم يكن يعرف كيفية الحصول على المياه من جوف الأرض، لكنه كان يعرف أن حصوله على تلك المياه ـ إذا استطاع ـ يعد نوعا من الإسراف غير المحبب فهو لا يعرف ولا يمكن أن يتخيل كمية الماء الواقعة تحت قدميه، وهل هى بحيرة أم جدول تندفع منه المياه أو بحر داخلى سريع أو حوض عميق جدا وليس له قاع، كانت تبدو له المياه أثناء تدفقها وكأنها معجزة، وكان

يستند برأسه إلى جدار السد ويغلق عينيه ويمد أصابعه فى اتجاه تيار المياه.

عاش حياته بين شروق الشمس وغروبها، وكأنه خارج الزمن ولم يعد يذكر شيئا أو يهتم لأى شىء حتى أصبحت (كيب تاون) والحرب والطرق المؤدية للمزرعة شيئا فشيئا فى دائرة النسيان حتى شاهد ذات يوم أثناء عودته للبيت فى وقت الظهيرة الباب الأمامى مفتوحا عن آخره فوقف مرتبكا حتى خرج شخص ما من الداخل ووقف فى ضوء الشمس، كان شابا بدينا يرتدى الزى الكاكى، وقف الشاب فوق السلالم بثقة وكأنه يمتلك البيت وقال مخاطبا «ك»: هل تعمل هنا؟

ارتبك «ك» ولم يستطع فعل شىء أو قول أى شىء سوى الإشارة برأسه فقال الغريب: لم أشاهدك هنا من قبل قط ! هل أنت منْ يقوم بالاعتناء بالمزرعة؟

أشار «ك» برأسه مرة أخرى فسأله الغريب: متى سقط سقف المطبخ بهذه الطريقة؟

تعثَّر «ك» فى الكلام بينما ظل الغريب يحدق فى فم " ك " الكريه، ثم أضاف: ألا تعرف منْ أكون؟ هل تعرف؟ وأنا حفيد زعيم الـ (فيساجى).

أخرج «ك» أكياسه وأغراضه من المطبخ ووضعها فى إحدى الغرف عند جانب التل، وتنازل عن البيت لرجل الـ (فيساج) الجديد، لكنه شعر بغباء كبير ففكر فى العودة قائلا لنفسه: ربما أستطيع البقاء ليوم أو يومين، وربما يتوجب على الرجل أن يرحل وأكون أنا منْ يستحق البقاء.

لكن الحفيد كما بدا لم يكن ينتوى الرحيل، وفى ذلك المساء أشعل «ك» النار عند جانب التل، وبدأ فى شواء زوج من الحمام لطعام العشاء، وعندئذ ظهر الحفيد من الظلام وراح يحوم حول المكان لمدة طويلة، فاضطر «ك» أن يقدم له جزءا من الطعام الذى لا يكفى شخصين، لكن الغريب سارع بالتهامه كالولد الجائع وبدأ بعد ذلك فى سرد حكايته، وقال: عندما تذهب إلى مقاطعة الأمير ألبرت أرجو ألا تخبر أحدا بأننى موجود هنا، إننى هارب من الجندية، ولقد قفزت ليلة أمس من القطار الذى يقل الجنود عند المسار الجانبي لمدينة (كرودفونتاين)، ثم مشيت فى المدينة طوال الليل حتى وصلت أخيرا إلى المزرعة فتذكرت أيام الطفولة فى المدرسة، لقد اعتادت أسرتى قضاء الكريسماس هنا دون انقطاع ولم ننقطع عن الحضور هنا إلا بعد انفجار البيت، لم أتذوق طعاما فى حياتى كذلك الذى اعتدنا تناوله هنا، كانت جدتى تملأ المائدة بطعام المدن الجيد كل يوم وكنا نأكله حتى آخر قطعة صغيرة خاصة لحم الخروف اللذيذ الذى لم نتذوق مثله بعد ذلك.

كان «ك» يجلس على كعوب قدميه ويسمع بالكاد ثم فكر قائلا: لقد تركت نفسى أسيرا للاعتقاد أن تلك واحدة من الجزر التى لا يملكها أحد لكننى عرفت الحقيقة الآن ولقد تعلمت الدرس.

أصبح الحفيد أكثر حماسا كلما استطرد فى الكلام وأضاف أنه مصاب بفقر الدم وضعف فى القلب وأن ذلك مسجل فى أوراقه، غير أن أحدا لم يناقش حالته وأرسلوه إلى الجبهة كما أعادوا تجنيد الموظفين وأرسلوهم أيضا إلى الجبهة، هل كان باستطاعتهم الاستغناء عن الموظفين؟ وهل كان بمقدورهم خوض غمار الحرب دون موظف لصرف الرواتب؟

فكر «ك» وهمس قائلا لنفسه: يجب أن ألتزم الصمت إذا جاءت الشرطة النظامية أو الشرطة العسكرية للبحث عنه والعودة به إلى الجبهة ليكون عبرة لغيره، سوف ألتزم الصمت وسألعب دور الأحمق الذى لا يعرف أى شىء.

كان الحفيد فى تلك الأثناء يبحث عن مخبأ خاصة وأنه يعرف المزرعة جيدا، وكان متأكدا أنه سيعثر على مكان للاختباء لا يحلم أحد باكتشافه وكان من الأفضل له ألا يعرف «ك» ذلك المكان.

صمت «ك» فترة طويلة سأله الحفيد بعدها: هل هذا هو كل ما استطعت تناوله من الطعام؟

هزَّ «ك» رأسه.

قال الحفيد مستطردا: يجب أن تزرع البطاطس والبصل والذرة، كل شيء يمكن أن ينمو هنا إذا استطعت توفير الماء اللازم، هذه تربة جيدة وأنا مندهش؛ لأنك لم تزرع لنفسك بعض الأشياء القليلة بموازاة السد.

شعر « ك» بخيبة الأمل فأضاف الحفيد: إن أجدادى محظوظون لوجود شخص مثلك فالناس فى هذه الأيام لا يستطيعون العثور على الفلاحين بسهولة، ما اسمك؟

أجاب «ك» : مايكل.

كانت الدنيا مظلمة فوقف الحفيد وسأل «ك» : هل معك بطارية؟

قال «ك» : لا.

مضى الحفيد فى طريقه بمحاذاة التل مسترشدا بضوء القمر، بينما كان «ك» ينظر إليه حتى اختفى.

فى الصباح لم يجد شيئا يفعله ولم يستطع التوجه ناحية السد دون أن يهجر قطعة الأرض التى يزرع فيها، جلس فوق كعب قدميه واستند إلى حائط الحجرة، وقد شعر بدفء الشمس ومع مرور الوقت ظهر الحفيد وهو يتسلق التل مرة ثانية فتدفق الدم إلى جسده واستعاد قوته وقال: إنه أصغر منى بعشر سنوات.

قال الحفيد متذمرا: لا يوجد شيء نأكله يا مايكل، هل ذهبت من قبل للتسوق؟

فتح باب الحجرة بسرعة وراح ينظر داخلها بإمعان قبل أن يسمع إجابة «ك» على سؤاله، وبدا أنه كان على وشك التعليق بشيء ما لكنه لم يقل شيئا.

قال : كم يدفعون لك يا مايكل؟

فكر «ك» قائلا: إنه يعتقد أننى أحمق أو معتوه، هو يرى أننى ذلك الأبله الذى ينام فوق الأرض كالحيوانات ويعيش من اصطياد الطيور والسحالى ولا يعرف شيئا عن النقود، لقد نظر إلى الشارة المرسومة فوق قلنسوتى وتساءل بينه وبين نفسه عن الطفل الذى منحنى إياها.

أجاب «ك» : اثنين من الراندات، اثنين فى الأسبوع.

وما الأشياء التى تعرفها عن أجدادى؟ وهل جاء أحد منهم إلى هنا؟

لم يقل «ك» شيئا وظل صامتا فأضاف الحفيد متسائلا: منْ أين أتيت؟ أنت لست من هنا، أليس كذلك؟

أجاب «ك»: لقد جئت من كل الأماكن ومن كل الاتجاهات ومن كيب تاون أيضا.

قال الحفيد: ألا توجد ماشية فى المزرعة؟ وهل توجد خراف أم لا؟ أعتقد أننى رأيت حوالى عشر أو اثنتى عشر من الخراف بالأمس فيما وراء السد.

نظر إلى ساعته وقال مخاطبا «ك»: دعنا نذهب إلى هناك للحصول على الخراف.

تذكر «ك» الخروف الذى كان يصارع فى الوحل فقال: تلك الخراف متوحشة ولن تستطيع الإمساك بها.

سوف نمسك بها، نستطيع نحن الاثنين أن نفعل.

قال «ك»: إنها تأتى إلى السد فى الليل فقط أما أثناء النهار فهى لا تغادر المرج العشبى.

ثم قال لنفسه: جندى بلا سلاح كصبى فى مغامرة، إن المزرعة بالنسبة إلى الصبى ليست سوى مكان للمغامرة.

واستطرد مخاطبا الحفيد: دعك من الخراف وسأقدم لك شيئا لتأكله.

تناول «ك» مصيدته، ومضى باتجاه النهر، ثم عاد بعد ساعة وقد اصطاد ثلاثة عصافير وحمامة، حمل الطيور الميتة وطرق الباب الأمامى ففتح له الحفيد، كان جسد الحفيد متصببا بالعرق وكان

عاريا من الملابس حتى خصره وقال: جيد جدا، هل تستطيع تنظيفهم بسرعة؟ سأكون ممتنا لك.

رفع «ك» الطيور الأربعة المتشابكة مع بعضها من مخالبها، وكان أحد العصافير ينزف دما فاتح اللون من منقاره، وقال: لا تستطيع أن تأكله هكذا حتى لا تتسخ وتمتلئ أصابعك بالدم.

قال حفيد الـ (فيساج): ماذا يعنى ذلك بحق الجحيم؟ وماذا تعنى عليك اللعنة؟ إذا أردت قول شىء فعليك بقوله واترك هذه الأشياء على الأرض وسأتولى أنا الاهتمام بها.

وضع «ك» الطيور فوق الأرض أمام الباب ورحل.

كانت أوراق قرع العسل السميكة منتشرة هنا وهناك فوق الأرض، ففتح «ك» قناة المياه لآخر مرة، وظل ينظر إلى المياه وهى تجرى ببطء فى الحقل، حتى تحول لون الأرض إلى اللون الأسود، وعندئذ قال لنفسه: وها أنذا الآن أهجر أطفالى بعد أن أصبحت مطلوبا بشدة.

أغلق قناة المياه ثم حرك القضيب العالق بعوامة الحنفية حتى تم إغلاقها، فتوقف تدفق المياه إلى الحوض الذى تشرب منه الخراف.

أعاد أربعة من أباريق الماء إلى مكانها على بعد مسافة قصيرة، وكان الحفيد قد ارتدى قميصه ووقف واضعا كلتا يديه فى جيوبه

وراح يحدِّق بعيدا، ثم تحدث بعد صمت طويل بعد أن توجه بنظراته إلى «ك» وقال: مايكل، لست أنا الشخص الذى سيدفع لك كما أننى لا أستطيع أن أتركك تغادر المزرعة هكذا، ولكن علينا أن نعمل معا وإلا ...

أصيب «ك» باختناق من كلامه ولم يستطع أن يتفهم ما تنطوى عليه الكلمات، اتهام أم تهديد أم توبيخ فقال لنفسه: إنها لا شىء لكنها الطريقة التى يتحدث بها، يجب أن أتحلى بالهدوء.

وعلى الرغم من محاولاته لتهدئة نفسه، فإنه شعر بغباء شديد مرة ثانية، ولم يعد يعرف ما الذى يمكن أن يفعله بخصوص وجهه، حكَّ فمه ونظر إلى حذاء الحفيد البنى ذى الرقبة الطويلة وقال محاولا كبح جماح نفسه: لم يعد بمقدورك شراء حذاء كهذا من أى محل تجارى بعد الآن.

قال الحفيد: أريدك يا مايكل أن تذهب إلى الأمير ألبرت من أجلى، سأعطيك قائمة ببعض الأشياء التى أريدها والنقود التى ستشترى بها، وسوف أمنحك شيئا خاصا بك أيضا بشرط ألا تتحدث مع أى شخص ولا تقل إنك شاهدتنى أو تخبر أحدا بالشخص الذى تشترى الأشياء من أجله ولا تشترى كل شىء من محل واحد، وإنما عليك بشراء نصف الأشياء من محل (فان رينز) والنصف الآخر من المطعم، لا تقف وتتحدث مع أى شخص وتظاهر أنك فى عجلة من أمرك، هل فهمت؟

أشار «ك» برأسه وقال: دعنى لا أفقد طريقى.

استطرد الحفيد قائلا: إننى أتحدث إليك يا مايكل كإنسان يتحدث إلى إنسان، إن الحرب دائرة والناس يموتون وأنا لست مع طرف ضد آخر، إننى شخص مسالم فهل تفهمنى؟ أنا أتعامل بسلام مع كل الناس ولا توجد حرب هنا فى المزرعة ونستطيع أنا وأنت أن نعيش هنا فى هدوء حتى يأتى يوم يسود فيه السلام كل مكان وعندئذ لن يزعجنا أحد، سوف يسود السلام قريبا، لقد عملت يا مايكل فى مكتب لصرف الأجور وأعرف ما يجرى فى مثل تلك المكاتب، وأعرف أنهم يقومون بترحيل كثير من الرجال إلى أماكن مجهولة ولا يدفعون لهم أجورهم فيرفعون دعاوى قضائية ولكن دون جدوى، هل تفهم ما أعنيه؟ ستصيبك الصدمة يا مايكل إذا حكيت لك عن أرقام وشخصيات مختلفة، أنا لست الشخص الوحيد وقريبا لن يكونوا فى حاجة للاستعانة بالرجال، نعم يا مايكل لن يستعينوا بعدد كبير من الرجال الذين يساعدونهم فى تعقب الرجال الهاربين، هذا بلد كبير وإذا نظرت حولك مثلا ستجد كثيرا من الأماكن التى تستطيع الذهاب إليها وكثير من الأماكن التى يمكنك الاختباء فيها.

أضاف قائلا: أنا أريد فقط أن أظل مختبئا وبعيدا عن الأنظار لفترة قليلة؛ لأنهم سيتجاهلون أمرى عما قريب؛ لأننى لست سوى

سمكة صغيرة فى محيط كبير غير أننى أطمع فى مساعدتك، لا بد أن نتعاون يا مايكل وإلا فلن يكون لنا مستقبل، هل تفهمنى؟

أمسك «ك» بقائمة الأشياء التى طلبها الحفيد ووضع النقود فى جيبه ثم غادر المزرعة، التقط علبة صفيح قديمة عند جانب الطريق، وعندما وصل إلى مدخل المزرعة خبأ النقود فى العلبة الصفيحية ووضع فوقها حجرا ومضى قاصدا المدينة، وكان حريصا على تجنب السير فى الأماكن المأهولة بالسكان وحين تجاوزت الساعة منتصف النهار وجد نفسه مضطرا لتسلق بعض الطرق الوعرة حتى لاحت فى الأفق بيوت الأمير ألبرت البيضاء المرتبة بعناية من ناحية الغرب، التزم بالسير فى المنحدرات وطاف حول المدينة من بعيد حتى وصل إلى الطريق المؤدى إلى (سوارتبيرج) فصعد المرتفعات بمشقة فى الظلام وكان يرتدى معطف أمه؛ اتقاء للبرد.

على بعد قليل من المدينة ومن فوق مكان مرتفع ظل ينظر حواليه؛ بحثا عن مكان للنوم حتى عثر على كهف، اقترب من الكهف وعرف أنه كان مسكونا بمجموعة من الكشافة وبداخله موقد للنار وسرير مصنوع من نبات الزعتر الجاف، قذف واحدة من السحالى بحجر ثم أمسك بها وقام بشوائها بعد أن أشعل النار فتحولت المدخنة فى السقف إلى اللون الأزرق القاتم وظهرت النجوم من فتحتها، مال بجسده ودس يديه داخل أكمامه وراح فى نوم عميق.

لم يستطع أن يصدق أنه يعرف شخصا ما من أحفاد الـ (فيساج) وأن هذا الشخص يريده خادما له، لكنه فى خلال يوم أو يومين قرر أن ينسى ذلك الحفيد ولا يتذكر سوى المزرعة.

فكر فى أوراق قرع العسل التى بدأت تنبت فى الأرض، وقال: غدا هو آخر يوم لتلك الأوراق وفى اليوم الذى يليه سوف تذبل، ثم ستموت فى اليوم الثالث وأنا موجود هنا وسط الجبال فكيف يمكننى إنقاذها؟ أستطيع أن أستيقظ مبكرا وأحاول الانتهاء من مهمتى على عجل، حتى أعود بسرعة للاعتناء بتلك الأوراق وببقية البذور الأخرى قبل أن تموت تحت الأرض لعدم تعرضها لضوء النهار.

نشأت علاقة عاطفية قوية بينه وبين قطعة الأرض المجاورة للسد، وامتد بينهما حبل من المشاعر الرقيقة، ويبدو أن شخصا ما يعمل على قطع ذلك الحبل، جلس أمام الكهف محدقا فى قمم الجبال البعيدة المغطاة بالثلج دون أن يفعل شيئا، وكان يعانى حالة من الكسل الشديد، حتى إنه حين شعر بالجوع لم يحاول أن يفعل شيئا وبدلا من الاستماع إلى صرخات بطنه راح يستمع إلى همسات السكون الرهيب من حوله، ثم دخل الكوخ ونام حيث حلم أنه كان يجرى بسرعة الرياح نفسها عبر أحد الطرق المفتوحة بينما كانت عربة صغيرة تجرى وراءه.

كانت حدود الوادى الجانبية مليئة بالمنحدرات فلم تظهر الشمس إلا قبل الظهر بقليل، ثم ما لبثت أن اختفت خلف قمم الجبال الغربية بعد منتصف الظهر، كان يشعر بالبرد طوال الوقت، فراح يصعد إلى أعلى عبر المنحدر المتعرج حتى اختفى الطريق من المشهد، نظر إلى الأرض المنبسطة الشاسعة المؤدية إلى مقاطعة الأمير ألبرت، فاكتشف كهفا جديدا وبعض الشجيرات المنخفضة، ثم قال: لقد وصلت وبأسرع ما يمكن ومن المؤكد أن لا أحد ـ حتى لو كان مجنونا ـ يستطيع عبور تلك السهول والأراضى المنبسطة وتسلق تلك الجبال للبحث عنى وسط تلك الصخور، إننى الوحيد فى العالم الذى يعرف مكان تواجدى وهكذا يمكننى الاعتراف أننى تائه وضائع.

توقف عن التفكير فى كل شىء وعندما استيقظ فى الصباح وجد نفسه فى مواجهة يوم طويل، ورأى نفسه كأنه نمل أبيض يمشى فوق الصخور بملل ولا يجد شيئا يفعله سوى رغبته فى البقاء حيا، جلس بلا حراك وبدا فى صورة لا تستطيع الطيور من خلالها أن تحركه إذا حطت فوق كتفيه.

ضغط على عينيه فاستطاع بصعوبة أن يرى سيارة تهبط من الطريق المنبسط إلى شارع المدينة الرئيسى، وعلى الرغم من الهدوء القاتل وحالة السكون المحيطة به، فإنه لم يسمع أى صوت يطغى على صوت الحشرات الزاحفة فوق الأرض، وعلى طنين الذباب

الذى لم يتوقف عن ملاحقته ولا حتى على صوت نبضات الدم فى أذنيه.

لم يكن يدرى شيئا عما يحدث له، لكنه كان يعرف أن حياته لم تكن مثيرة فى يوم من الأيام، وكان فى حاجة دائمة لشخص ما يخبره بما يجب عليه القيام به، والآن هو وحيد تماما ولا يوجد مثل ذلك الشخص فبدا أن الانتظار هو الحل الأفضل وربما الوحيد.

فكر فى حديقة (واينبرج) التى كانت أحد الأماكن التى عمل فيها منذ زمن بعيد، فتذكر الأمهات الشابات اللاتى كن يحضرن أطفالهن لركوب المراجيح، والأزواج الذين كانوا يستلقون تحت ظلال الأشجار، ومجموعات البط البرى بألوانها البنية والخضراء وهى تتهادى بالقرب من المستنقع، وفكر فى احتمال أن الأعشاب ما زالت تنمو فى حديقة (واينبرج) بعد الحرب وأن أوراق الأشجار لم تتوقف عن السقوط، لأنهم كانوا دائما فى احتياج لرجال يقومون بجز الأعشاب وكنس أوراق الأشجار، لكنه لم يعد متأكدا من اختياره العيش وسط المروج الخضراء وأشجار البلوط.

على إثر حديقة (واينبرج) تذكر أيضا تلك الأرض النباتية غير المشبعة بالمواد المعدنية، التى تغطيها أوراق الأشجار التالفة من السنوات الماضية ومنذ الأزل، تلك الأرض الرخوة التى يستطيع المرء أن يواصل الحفر فيها دون أن يصل إلى نهايتها.

قال: لم أعد أحب تلك النوعية من الأرض، كما أننى فقدت اهتمامى بها ولم تعد أصابعى تشعر بها، إنها لم تعد تلك الأرض ذات اللون الأخضر والبنى التى أرغب فيها، ولكنها أصبحت الآن ذات لون أحمر وأصفر، كما فقدت ليونتها وطراوتها وأصبحت جافة وتغير لونها من اللون الداكن إلى الفاتح، أصبحت الأرض صلدة بعد أن كانت طرية ولدنة، وهكذا أصبحت أنا أيضا نوعا مختلفا من الرجال.

أمسك بمعصميه وراح يتطلع إليهما، ثم أضاف مستطردا: لم يعد الدم يتدفق من جسدى، ولكنه يسيل وما يلبث أن يجف ويندمل، لقد أصبحت أصغر مما أنا عليه، ومع كل يوم جديد أصبح أكثر قساوة وذبولا فى آن واحد، وإذا حدث ومت هنا وأنا جالس أمام فتحة الكهف متطلعا إلى الأرض الممتدة أمامى وأنا أضع ركبتى تحت ذقنى هكذا، فسوف أتلاشى مع الرياح فى يوم واحد كما يضل المرء طريقه فى رمال الصحراء حتى يموت.

فى أيامه الأولى فوق الجبال كان يتجول حول المكان ويدور حول الصخور والأحجار ويقتات على جذور النبات، وذات مرة فتح عش الحشرات وراح يأكل الدود واليرقات واحدة بعد الأخرى بشهية وكأنه يأكل سمكا، لكنه توقف بعد ذلك عن مغامرات البحث عن الطعام والشراب، ولم يكن قد اكتشف عالمه الجديد بعد، ولم يقم بتنظيف الكهف وترتيبه ليجعل منه بيتا له كما لم يحتفظ فى ذاكرته

بتفاصيل تلك الأيام، ولم يكن يتطلع إلى شىء أو يفكر فى شىء سوى ظلال حافة الجبل وهى تقترب منه شيئا فشيئا حتى تحيطه فجأة أشعة الشمس من كل اتجاه، كان يجلس أحيانا ويرقد فى أحيان أخرى مذهولا أمام الكهف، ولم يكن قادرا على الحركة من شدة التعب وربما من فقدان الحيوية والهدف، وكان يمضى كل أوقات ما بعد الظهر نائما حتى إنه تساءل ذات يوم قائلا: هل أعيش فيما يعرف بالجنة ؟

تساقطت الأمطار ذات يوم وكان السحاب قاتما فانتشرت الزهور القرنفلية الصغيرة على جانبى الجبل، كانت الزهور التى شاهدها خالية من الأوراق، لكنه قطفها، وملأ كف يده منها، وراح يأكلها، ثم شعر بألم فى معدته، أصبحت المياه تجرى بسرعة أكبر فى القنوات المائية كلما ازدادت حرارة الشمس مع مرور الأيام ولم يستطع معرفة السبب، لكن مياه الجبل النقية أفقدته طعم المياه المر المستخرجة من باطن الأرض، وحين نزفت لثته شرب من الدم النازف.

حين كان «ك» طفلا كان يستبد به الجوع مثل كل أطفال المدينة، الذين كانوا يتصرفون كالحيوانات ويسرقون من أطباق بعضهم البعض، ويتسلقون سور المطبخ؛ ليسرقون سلال القمامة والبحث فيها عن العظام وبقايا الطعام، غير أن تلك الرغبة الحيوانية التى

كانت تجعل معدته تصرخ من الجوع قد تغيرت، وأصبح هادئا فى مواجهة الجوع، وكانت أيامه الأخيرة فى المدينة هى الأفضل فلم يكن الأولاد الكبار يضايقونه عندما كان يتسلل إلى مكانه خلف الكوخ وينفرد بنفسه.

اعتاد أحد معلميه على أن يجلس تلاميذ الفصل ويرفعون أياديهم فوق رءوسهم مع ضم شفاههم وإغلاق عيونهم؛ ليقوم بعد ذلك بالدوران حولهم وضربهم بالمسطرة، لكن الوضع جالسا هكذا بالنسبة إلى «ك» لم يكن عقابا بقدر ما كان وسيلة للاستغراق فى التفكير، حتى إنه تذكر نفسه وهو جالس ويديه فوق رأسه فى أحد الأيام الحارة، بينما كان يستمع إلى هديل الحمام فوق أشجار الصمغ وإلى الأناشيد والترانيم الرتيبة الصادرة من الفصول الأخرى حين كان يغالب النعاس اللذيذ، وها هو الآن أمام الكهف يضع أصابعه أحيانا خلف رأسه ويغلق عينيه ولا يفكر فى أى شىء ولا يريد أو يتمنى أى شىء ولا يتطلع أو يحلم بشىء على الإطلاق.

فى أوقات أخرى كان يعود بذاكرته إلى حفيد الـ (فيساجى) المختبىء بمكانه فى الظلام تحت الأرض ووسط مخلفات الفئران أو أثناء جلوسه صامتا فى خزانة السقيفة أو خارج مرج أجداده العشبى خلف الأدغال، فكر فى تلك الأوقات أيضا فى حذاء الحفيد الجميل ورأى أنه سيفقد جماله داخل الحفرة التى يعيش فيها.

كانت رماح من أشعة الشمس تخترق رأسه، وبدا من العسير أن تظل عيناه مفتوحتين فى مواجهة وهج الشمس، وكان جسده لا يتوقف عن الارتعاش، ولم يعد قادرا على الاحتفاظ بشىء داخل معدته، حتى إنه كان يتقيأ من الماء، شعر بإعياء شديد طوال يوم كامل لم يستطع خلاله النهوض من فوق سريره داخل الكهف ولم يساعده المعطف الأسود فى التوقف عن الارتعاش المتواصل، شعر باقتراب الموت وأنه مضطر للبقاء هنا والرقاد هكذا حتى يرى الطحالب الملاصقة للسقف، وهى تتحول إلى اللون الأسود وحتى تنتهى حياته وتتلون عظامه باللون الأبيض فى هذا المكان البعيد.

مضت ساعات كثيرة من اليوم وهو يزحف فى محاولة للنزول من سفح الجبل، لم تكن قدماه قادرة على حمله، وشعر بطرقات مدوية داخل رأسه، وفى كل المرات التى حاول فيها النظر إلى أسفل كان يصيبه الدوار، وكان عندئذ يغرس قبضة يديه فى الأرض ممسكا بالتراب حتى يتوقف الدوار.

وصل إلى الطريق المسطح ولحظة دخوله المدينة انقشع آخر ضوء من النهار، ثم غرق الوادى فى ظلام دامس وأحاطت به رائحة براعم الخوخ وسمع صوتا قادما من كل الاتجاهات هو الصوت نفسه الذى سمعه فى أول يوم شاهد فيه مقاطعة الأمير ألبرت، وقف عند قمة الشارع المرتفع وسط الحدائق المورقة دون أن يتفوه بكلمة واحدة، وسمع من بعيد أصواتا رتيبة ما لبث أن امتزجت

بتغريد الطيور فوق الأشجار.

كانت الشوارع خالية من الناس حين رقد «ك» عند مدخل مكتب (فولكسكاس) ووضع ممسحة الأرجل المطاطية تحت رأسه، تسلل البرد إلى جسده وبدأ فى الارتعاش، نام ممسكا فكيه بكلتا قبضتيه فى محاولة منه للتغلب على آلام رأسه، استيقظ على إثر الضوء المسلط عليه، لكنه لم يستطع أن يفصل بين الضوء وبين الحلم الذى كان مستغرقا فيه، رد على أسئلة الشرطة بإجابات مشوشة وغير واضحة وكان يصيح ويلهث قائلا : لا... لا... لا...!

خرجت الكلمات من فمه وكأنه يسعل ولم يفهم رجال الشرطة أى شىء وقد اجتاحتهم رائحة جسده وملابسه، ثم اقتادوه إلى الشاحنة وأعادوه إلى المخفر وحبسوه فى زنزانة مع خمسة أشخاص آخرين، ظل جسده يرتعش داخل الزنزانة وعاد لاستئناف نومه وهذيانه.

أخرجوا المساجين من الزنزانة فى الصباح؛ للاغتسال وتناول الإفطار، وكان «ك» متماسكا ومدركا لما يدور حوله، لكنه لم يكن قادرا على الوقوف، فاعتذر للشرطى الواقف عند باب الزنزانة قائلا قدمى تؤلمنى ولا أقوى على الوقوف، لكن الألم سيزول وسأصبح على ما يرام.

أخبر الشرطى الضابط المسئول عن حالته فراحا يتفحصان عظام قدمه المستندة إلى الحائط، ثم حملاه إلى الفناء حيث

انكمش؛ خوفا من أشعة الشمس المشرقة ونقلاه بعد ذلك إلى عنبر آخر من عنابر المساجين؛ لتقديم الطعام له. ارتضى بشريحة كبيرة من العصيدة، لكنه وقبل أن تصل أول ملعقة إلى فمه بدأ فى التقيؤ من جديد.

لم يكن يملك أوراقا ثبوتية أو بطاقة إثبات الشخصية فلم يعرف أحد شيئا عن هويته أو مكان إقامته، فكتبوا فى قائمة الاتهامات ما يلى : (مايكل، فيساجى، NFA, 40, cM لا يعمل)، واتهموه بمغادرة مقاطعته دون تصريح وعدم امتلاكه أى مستندات شخصية، وعدم الالتزام بحظر التجوال بالإضافة إلى أنه كان مخمورا ومخالفا للقانون وقالوا: إن ضعفه واضطرابه ناتج عن التسمم الكحولى.

عاد بقية المساجين إلى الزنزانة، بينما سمحوا له بالبقاء فى الفناء، وعند الظهيرة اقتادوه إلى مؤخرة الشاحنة وذهبوا به إلى المستشفى؛ حيث نزعوا ملابسه ووضعوه عاريا فوق لوح مطاطى، ثم بدأت الممرضة الشابة فى تنظيفه وحلاقة ذقنه وساعدته أخيرا على ارتداء الروب الأبيض.

لم تبد عليه علامات الخجل وقال للممرضة الشابة متسائلا: من الأمير ألبرت؟ أخبرينى فكثيرا ما تمنيت أن أعرف.

لم تهتم الممرضة بسؤاله فأضاف: ومن الأمير ألفريد ؟ ألا يوجد شخص بهذا الاسم أيضا؟

أغلق عينيه وظل فى انتظار اللحظة التى تغطيه فيها الممرضة بقطعة القماش الناعمة الدافئة.

رقد مرة أخرى وسط الملاءات النظيفة فى ملحق المستشفى الخلفى داخل أحد العنابر الطويلة المصنوعة من الخشب والحديد، كان العنبر يضم الأطفال وكبار السن من الرجال فقط، وكان صف من مصابيح الإضاءة معلقا فوق حبل طويل مربوط فى عارضتين خشبيتين من أطرافه، وضعوا زجاجة الجلوكوز فوق الرف والأنبوب فى ذراعه، واستطاع أن يرى بطرف عينه انخفاض مستوى الجلوكوز مع مرور الوقت.

فى اللحظة التى استيقظ فيها شاهد الممرضة وأحد رجال الشرطة عند مدخل الباب، كانا يشيران إليه ويتبادلان الحديث وكان الشرطى يحمل غطاء رأسه تحت ذراعه.

كانت أشعة شمس الظهيرة تسطع من النافذة، وحين استقرت الذبابة فوق فمه أشاح بيده لطردها، طارت الذبابة لكنها عادت واستقرت فوق فمه من جديد فلم يحاول طردها مرة أخرى، وفى تلك الأثناء دخل الممرض بعربة الطعام، ثم قدم صينية لكل المرضى ما عدا «ك»، تسللت رائحة الطعام، إلى أنفه فسال لعابه وكانت هى

المرة الأولى التى ذاق فيها مرارة الجوع لمدة طويلة، لكنه لم يكن راغبا فى معايشة الجوع مرة أخرى خاصة أن المستشفى كما تبدو هى مكان لبناء الأجساد.

بدأ المساء، ثم حل الظلام، فأضاء شخص ما الأنوار، أغلق «ك» عينيه ونام وعندما فتحهما كانت الأنوار لا تزال مضاءة، لكنها بدأت تخفت شيئا فشيئا حتى انطفأت تماما، تساقط ضوء القمر فوق أسطح النوافذ الفضية وفى مكان ما بالقرب من محرك الديزل رقد «ك» واستسلم للنوم حيث كانت الأضواء معتمة.

تناول إفطاره فى الصباح وشعر أنه قادر على النهوض بعد أن استعاد قوته، لكنه لم يفعل إلا بعد أن شاهد الرجل العجوز وهو يغادر الحجرة ملفوفا فى العباءة، كان يشعر بالخجل وأنه غريب داخل ذلك الروب الطويل.

كان أحد الصبية يرقد فى السرير المجاور وذراعه ملفوفة بضمادة فسأله «ك»: ماذا حدث؟

كانت الخزانة بجوار سريره فارغة فقال «ك» لنفسه: سوف أغادر هذا المكان لو عثرت على ملابسى.

حضر الممرض فى منتصف النهار بعربية المأكولات وقدم له الطعام، تناول «ك» طعامه للمرة الثانية فى ذلك اليوم، وقال له

الممرض وهو يواصل دفع العربة من أمامه: عليك بتناول الطعام كلما سنحت لك الفرصة فالجوع الكبير قادم لا محالة.

بدا غريبا ما قاله الممرض، فظل «ك» ينظر إليه وهو يتنقل بعربته من مريض لآخر، وعند نهاية العنبر شعر الممرض بنظرات «ك» المحدقة فبادله بابتسامة مبهمة، لكنه حين عاد لتناول الصينية لم يقل شيئا.

كانت الشمس تضرب بقوة فوق السقف الحديدى فأصبح العنبر كالفرن، رقد «ك» فاردا قدميه وغفا، لكنه استيقظ أثناء واحدة من غفواته وشاهد الشرطى نفسه والممرضة نفسها يقفان فوق رأسه، أغلق عينيه، وعندما فتحهما لم يجد الشرطى والممرضة ثم ساد الظلام.

أمسكت به الممرضة فى الصباح وقادته إلى أحد المقاعد فى المبنى الرئيسى، انتظر ساعة كاملة حتى جاء دوره فقال له الطبيب: كيف حالك اليوم؟

تردد «ك» ولم يجد الكلمات المناسبة للإجابة.

فقد الطبيب الأمل فى سماع الإجابة، فطلب منه أن يتنفس لسماع نبضات صدره، ثم قام بفحص أعضائه التناسلية للتأكد من عدم إصابته بالعدوى، استغرقت عملية الكشف دقيقتين، ثم مضى إلى مكتبه وسأله وهو يكتب شيئا ما فى ملفه البنى: هل سبق وذهبت إلى طبيب من أجل فمك ؟

أجاب «ك» : لا.

قال الطبيب: يمكنك إجراء عملية تجميل فى فمك.

لكن الطبيب لم يعرض عليه القيام بنفسه بتلك العملية.

عاد «ك» إلى سريره ورقد واضعا يديه تحت رأسه حتى جاءت له الممرضة بملابس داخلية وقميص كاكى وبنطلون قصير، كانت الملابس نظيفة فقالت الممرضة: عليك بارتداء هذه الملابس.

كان البنطلون كبيرا جدا، وبعد أن وقف اضطر إلى الإمساك بالحزام؛ كى لا يسقط وكان الشرطى واقفا عند الباب، قال للممرضة: إنها ملابس كبيرة وواسعة جدا، هل أستطيع الحصول على ملابسى الخاصة؟

قالت له: ستحصل على ملابسك الخاصة فى المكتب.

مضى بصحبة الشرطى عبر الرواق حتى وصلا إلى مكتب الاستقبال؛ حيث سلموه حزمة من الورق البنى دون أن يتحدث أحد معه، كانت الشاحنة الصغيرة الزرقاء فى موقف السيارات، فوقف «ك» مترقبا فتح الباب الخلفى، بينما كان الأسفلت تحت قدميه ساخنا جدا فراح يتململ فى وقفته وبدا كأنه يرقص.

كان من المتوقع أن يقتادوه إلى قسم الشرطة، لكن الشاحنة الصغيرة الزرقاء اجتازت المدينة وسارت خمسة كيلو مترات فى

طريق موحل حتى وصلت إلى أحد المعسكرات داخل الواحة القاحلة شاهد «ك» بعض المنشآت ومجموعة من المعدات فوق الجبل واعتقد أنه موقع للبناء، وبعد لحظة قصيرة من اعتقاده شاهد معسكرات لإعادة التأهيل ومجموعة من الخيام والبنايات المصنوعة من الخشب والحديد محاطة بسور ارتفاعه ثلاثة أمتار وتعلوه الأسلاك الشائكة، نزل من الشاحنة ممسكا بنطاله بيده حتى لا يسقط منه على مرأى من مئات المساجين غريبى الأطوار والبالغين والأطفال الذين اصطفوا فى طوابير على جانبى سور البوابة.

بالقرب من البوابة كان الكشك ذو النافذة المغطاة ببعض النباتات النضرة ذات اللون الأخضر الباهت، وكان الرجل البدين بملابسه العسكرية واقفا بجوار نافذة الكشك، تعرف «ك» على قلنسوة الرجل الزرقاء التى يرتديها المجندون فى الفيلق الحر، بدأ الشرطى بتحيته ودلفا معا إلى داخل الكشك؛ حيث خضع «ك» للتفتيش وكان يحمل حزمة الورق البنى تحت ذراعه، نظر فى البداية إلى بعيد، ثم إلى قدميه وانتابته الحيرة بشأن ما سوف يقوله وكيفية التعبير عن نفسه. سأله شخص ما: من أى مكان سرقت هذا البنطال؟

انطلقت فى الكشك موجة من الضحك.

تقدَّم شرطى آخر من جنود الفيلق الحر وسحب «ك» من وسط الزحام داخل الكشك، ثم فتح بوابة المعسكر وعبر الأرض القاحلة

حتى وصل إلى إحدى البنايات الخشبية، كان المبنى بلا نوافذ ومظلما من الداخل فأشار الشرطى إلى سرير فارغ ذى طابقين وقال موجها حديثه إلى «ك»: هذا هو بيتك من الآن فصاعدا، إنه البيت الوحيد الذى يمكنك الحصول عليه فلتحافظ عليه وعلى نظافته، صعد «ك» بصعوبة إلى السرير وتمدد فوق المرتبة المطاطية المكشوفة، وكانت المسافة بينه وبين السقف الحديدى قصيرة جدا لا تتعدى طول ذراعه، وظل هكذا فى الضوء المعتم والحرارة الخانقة فى انتظار رحيل الحارس.

رقد طوال فترة ما بعد الظهر فوق السرير مستمعا إلى ما يحدث خارج المعسكر، اندفعت مجموعة من الأطفال إلى داخل المبنى، وراحوا يتعقبون بعضهم البعض فوق الأسرة وتحتها وبعد أن أحدثوا ضجة فى المكان خرجوا وأغلقوا الباب، حاول أن ينام فلم يستطع وكان حلقه جافا، ثم راح يفكر فى الكهف البارد فوق الجبل وفى جداول المياه التى لم تكن تتوقف عن الجريان وقال: ها أنذا أعود للمرة الثانية حيث كنت لكننى الآن أكبر كثيرا مما كنت ولا أستطيع التحمل.

خلع قميصه الكاكى وبنطاله وفتح حزمة الورق، لكن رائحة ملابسه المعتادة التى يعرفها جيدا لم تعد هى الرائحة نفسها وتحولت فى أيام قليلة إلى رائحة عفنة وغريبة فلم يغير ملابسه وظل فى انتظار قدوم الليل.

فتح شخص ما الباب ومشى فوق أطراف أصابعه على الأرض فتظاهر «ك» بالنوم، تحسس الشخص بأصابعه ذراع «ك» العارى، ارتجف «ك» فقال الشخص الذى بدا من صوته أنه رجل هل أنت على ما يرام؟

لم يستطع «ك» من خلال وهج الضوء القادم من مدخل الباب أن يميز وجه الرجل، وقال بصوت كأنه قادم من بعيد: إننى بخير.

عاد الغريب بالخطوات نفسها وقال «ك» لنفسه: كنت فى حاجة لمزيد من الأخبار، وكان يجب أن يخبرنى أنهم سوف يرسلوننى للعيش وسط الناس.

ارتدى بعد ذلك بوقت طويل ملابسه ذات اللون الكاكى وخرج حيث كانت أشعة الشمس الباعثة على الدفء، وكان الجو خاليا من الرياح، شاهد امرأتين راقدتين جنبا إلى جنب فوق بطانية تحت ظلال إحدى الخيام، كانت إحداهما نائمة والأخرى تحمل طفلا رضيعا، وكان الرضيع نائما فوق صدرها حين ابتسمت له، ثم رد لها الابتسامة بهزة من رأسه ومضى فى طريقه حيث اكتشف خزانا للمياه شرب منه كثيرا، ثم عاد وسأل المرأة: هل يوجد مكان يمكننى أن أغسل فيه ملابسى؟

أشارت إلى المغسلة وقالت: هل لديك صابون؟

كذب وأجاب: نعم.

كان بالمغسلة حوضان للغسيل وحمامان للاستحمام وكان راغبا فى الاستحمام، لكنه حين فتح صنبور الحمام لم تتساقط منه المياه، فراح يغسل سترته البيضاء والبنطال الأسود والقميص الأصفر وملابسه الداخلية بقطعة من المطاط المترهل، وانتابته حالة من السرور أثناء نقع الملابس وفركها، وهو واقف بعينين مغلقتين وكلا ذراعيه منغمستين حتى الكوع فى الماء البارد، ارتدى حذاءه وعندما ذهب بعد ذلك لنشر الغسيل فوق الحبل شاهد لافتة ملونة مثبتة فوق الحائط مكتوب عليها: (معسكر الانتقال ـ أوقات الاستحمام للرجال من الساعة السادسة إلى السابعة صباحا، وللنساء من السابعة والنصف حتى الثامنة والنصف صباحا ـ حافظوا على المياه).

بدأ فى تتبع خط مواسير المياه من عند حوض الغسيل، فاكتشف أنه ممتد إلى مسافة بعيدة تحت سور المعسكر، ثم إلى مضخة فوق الأرض المرتفعة.

مر بالقرب من السيدتين مرة ثانية، فأوقفته المرأة التى تحمل طفلا وقالت لتنبيهه: لقد تركت ملابسك هناك وإذا لم تأخذها معك فلن تجدها فى الصباح.

التقط ملابسه المبللة من فوق الحبل وأعاد نشرها فوق سريره ذى الطابقين.

كانت الشمس فى طريقها للغروب، وأصبح المكان مليئا بالناس، كما انتشر الأطفال فى كل ناحية، وكان ثلاثة من الرجال الكبار يلعبون الكوتشينة أمام الكوخ المجاور فوقف لحظة لمشاهدتهم.

كانت ثلاثون خيمة منصوبة على أبعاد متساوية من بعضها البعض، وسبعة أكواخ منتشرة فوق أرض المعسكر بجوار المغسلة والمراحيض، وكانت بعض الأساسات والتجهيزات اللازمة لإنشاء صف آخر من الأكواخ ملقاة على الأرض وثمة مسامير صدئة كانت تبرز من الخراسانة.

سار باتجاه البوابة وكان واحدا من حراس الفيلق الحر يجلس نائما فوق الدكة أمام نافذة غرفة الحرس، وكان قميصه مفتوحا حتى صدره، أسند «ك» رأسه فوق شبكة النافذة متمنيا أن يستيقظ الحارس؛ ليسأله عن سبب وجوده هنا وعن المدة التى سيقضيها فى هذا المكان، غير أن الحارس لم يستيقظ ولم يمتلك «ك» الشجاعة الكافية للنداء عليه وإيقاظه.

عاد متسكعا إلى الكوخ واتجه من الكوخ إلى الخزان دون سبب واضح ولم يكن يعرف ما يمكن أن يفعله تجاه نفسه، جاءتْ فتاة صغيرة تحمل دلوا أرادتْ أن تملأه، لكنها توقفتْ حين رأته، ثم مضتْ بعيدا، ذهب إلى سور المعسكر الخلفى وراح يحدِّق فى الواحة الخالية من النباتات والأعشاب.

كانت النيران مشتعلة بين الخيام فى واحد أو اثنين من المواقد المحاطة بالأحجار والناس يتوافدون ويغادرون، وبدا المعسكر صاخبا بعد أن دبت فيه الحياة وحين وصلت سيارة الشرطة مخترقة سحب الغبار وتوقفت فجأة أمام البوابة ثم تبعتها شاحنة مكشوفة مليئة بالرجال اندفع الأطفال إلى البوابة، سمح الحارس بمرور السيارة التى سارت ببطء حتى توقفت عند مكان الموقد فى الصف الرابع من صفوف الأكواخ، نهضت امرأتان وخرجتا من الكوخ ثم أغلقتاه، تبعهما سائق سيارة الشرطة حاملا صندوقا من الورق المقوى، استطاع «ك» من مكانه عند السور الخلفى أن يسمع بصعوبة صوت خشخشة الراديو داخل السيارة التى انطلق الدخان الأسود من مؤخرتها بكثافة.

قام رجال الشاحنة بتفريغ شحنات الحطب ورصها بجوار البوابة، ثم عاد الشرطى إلى سيارته وجلس فى الكابينة وراح يمشط شعره ظهرت إحدى النساء من الكوخ، وكانت ترتدى بنطالا واسعا، وتطرق بيديها فوق قضيب فولاذى طرقات قوية احتشد على إثرها عدد كبير من الأطفال عند الباب حاملين معهم الأكواب والأطباق والعلب الصفيحية، كما احتشدت أيضا الأمهات اللاتى يحملن أطفالهن الرضع فوق صدورهن، أفسحت المرأة مكانا لهم فبدءوا فى السماح بدخول الأطفال على مجموعات، وكان «ك» فى تلك الأثناء يتجول فى المكان ويراقب ما يحدث فالتحق بالحشد

ووقف فى المؤخرة، ثم شاهدهم وهم يقدمون الشوربة وشرائح الخبز للأطفال.

ارتطم أحد الصبية بالأرض فوقعت الشوربة فوق قدميه، لكنه واصل سيره بحذر شديد حتى عاد للالتحاق بالصف، وكان بعض الأطفال يجلسون خارج الكوخ فوق الأرض القاحلة؛ لتناول طعامهم والبعض الآخر يحمل عشاءه عائدا إلى الخيمة.

اقترب «ك» من السيدة الجالسة أمام الباب وسألها: معذرة، هل يمكننى أن أجد بعض الطعام؟ إننى لم أحصل على نصيبى وأنا خارج من المستشفى.

أجابت السيدة قبل أن تشيح بوجهها بعيدا عنه: إنه للأطفال فقط.

عاد إلى كوخه وارتدى البنطال الأسود الذى كان لا يزال مبللا، ثم ألقى بالبنطال الكاكى القصير تحت السرير ذى الطابقين.

كان الشرطى لا يزال جالسا فى السيارة فقال له: أين يمكننى الحصول على طعام؟ أنا لم أطلب الحضور إلى هنا فأين إذن أستطيع الحصول على طعام؟

قال الشرطى: هذا ليس سجنا، إنه معسكر وعليك بالعمل مقابل الحصول على الطعام مثل أى شخص فى المعسكر.

● وكيف لى أن أعمل وأين هو العمل الذى يجب أن أقوم به؟

عليك اللعنة، اذهب واسأل أصدقاءك فمن تكون أنت حتى أوفر لك حياة مجانية؟

فكر «ك» وقال لنفسه: لقد كانت الحياة فى الجبال وفى المزرعة وأثناء عبور الطرق أفضل كثيرا من هنا، وكنت أحسن حالا فى كيب تاون، أما هذا الكوخ المظلم الحار وأولئك الغرباء الراقدون فوق الأسِرَّة بأعداد كبيرة فى جو خانق فإنهم يذكروننى بأيام الطفولة، إنه الكابوس بعينه.

أشعلوا عددا أكبر من المواقد وانتشرت فى الهواء رائحة الطعام وحتى رائحة اللحم المشوى، وأشارت له المرأة ذات البنطال الواسع إلى المطبخ، ثم ناولته دلوا بلاستيكيا وقالت: اغسل هذا الدلو وضعه هنا بالداخل ثم أغلق الباب، هل تعرف استخدام القفل؟

أشار «ك» برأسه فوضعت المرأة كمية صغيرة جدا من شوربة العصيدة فى الدلو وقدمته له.

ركبت السيدتان مع سائق سيارة الشرطة ولاحظ «ك» أنهما تنظران حولهما باهتمام بعد أن مضت السيارة فى طريقها وقال مندهشا: لا شىء فى المعسكر يستحق كل هذه النظرات.

ساد الظلام وكانت مجموعات من الناس تتناول الطعام وتتبادل الحديث حول المواقد، وبعد الانتهاء من الطعام بدأ أحدهم بالعزف

على الجيتار ونهض بعضهم للرقص وراح «ك» فى البداية ينظر إليهم وهو يتحرك فى الظلام، ثم شعر بحماقة ما يفعلون فذهب للرقاد فوق سريره فى الكوخ الخالى.

دخل إلى الكوخ شخص ما فاستدار «ك»، بينما كان ظل الشخص الأسود يقترب منه ويقول: أتريد سيجارة؟

تناول «ك» السيجارة وجلس مستندا بظهره إلى الحائط وعلى ضوء عود الثقاب شاهد رجلا أكبر منه، اقترب الرجل منه وسأله من أى بلد أنت؟

أجاب «ك»: لقد مشيت حول السور الخلفى فى هذا المساء وأرى أن باستطاعة أى شخص أن يتسلقه، إن الطفل يستطيع تسلق ذلك السور فى دقيقة واحدة فلماذا يصر الناس على البقاء هنا؟

قال الرجل: هذا ليس سجنا، ألم تسمع الشرطى حين قال لك إننا لسنا فى سجن؟ إنه معسكر، معسكر (جاكالسدريف) ألا تعرف ما تعنيه كلمة معسكر؟ إنه مكان العاطلين عن العمل، إنه مكان لكل الناس الذين يذهبون من مزرعة لأخرى ويتوسلون للعمل عند أصحابها؛ لأنهم لا يجدون طعاما ولا مسكنا، إنهم يضعون كل أولئك الناس معا فى مكان واحد، وهذا المكان هو المعسكر وهكذا يقضون على ظاهرة التسول، وأنت الآن تسألنى عن سبب بقائى هنا رغم أن أى شخص يستطيع بسهولة أن يتسلق السور كما تقول، لماذا على

المتشردين من أمثالى ممن ليس لديهم بيت يأويهم أن يهربوا من تلك الحياة الجميلة التى ننعم بها هنا؟ وكيف لنا أن نترك هذه الأسرَّة الطرية والحياة المجانية وذلك الرجل عند البوابة الذى يقف ببندقيته لحمايتنا من لصوص الليل؟ منْ أين أنت إذن بما أنك لا تعرف هذه الأشياء؟

لم يقل «ك» شيئا وقال لنفسه: منْ منا يجب أن يلوم الآخر؟

استطرد الرجل قائلا: أتريد أن تتسلق السور وتغادر المكان الذى يأويك؟ إن معسكر (جاكالسدريف) هو المكان الوحيد الذى تستطيع أن تجد فيه سريرا تنام عليه وإذا هربت من هنا سوف يقبضون عليك؛ لأنك متشرد ولا تملك مكانا للإقامة وفى هذه الحالة قد يرسلوك إلى معسكر (براندفلى)؟ هل تريد الذهاب إلى (براندفلى)؟ إنه معسكر معروف بممارسة أقصى أنواع العبودية وبالعمل الشاق والحراسة الشديدة والمراقبين الذين يحملون السياط، إذا تسلقت السور سوف يقبضون عليك وسيلحقون بك الأذى ومختلف أنواع الإهانات، تذكر ذلك وفى النهاية لك حق الاختيار، لا بد أن تعرف وجهتك.

أضاف بصوت خفيض: هل ترغب فى الذهاب إلى الجبال؟

لم يفهم «ك» معنى سؤاله فركله الرجل فوق قدمه وقال: اخرج من هنا وتعال لتشاركنا الحفلة، إنهم يفتشون الناس عند البوابة

بحثا عن أى نوع من الخمور؛ حيث لا توجد خمور فى المعسكر بأوامر من النظام، تعال إذن وتمتع بالشراب.

خرج «ك» والتحق بمجموعة من الناس الجالسين حول عازف الجيتار، توقفت الموسيقى فقال الرجل: هذا «مايكل»، لقد جاء من مسافة بعيدة إلى (جاكالسدريف) من أجل هذا الاحتفال فلنرحب به.

جلس «ك» وسط الزحام بصعوبة وقدموا له كأسا من النبيذ من إحدى الزجاجات الملفوفة فى ورق بنى ثم حاصروه بالأسئلة: من أى مدينة أو قرية جاء؟ وماذا كان يفعل فى الأمير ألبرت؟ وأين تم القبض عليه؟

ولم يستطع أحد أن يفهم السبب فى مغادرته المدينة ليأتى إلى هذا الجزء المنعزل عن العالم الذى هجرته أجيال كثيرة منذ زمن بعيد تاركين عملهم فى المزارع، لم يفهموا سبب قدومه إلى مكان لا تتوفر فيه فرص العمل.

حاول «ك» أن يشرح لهم فقال: كنت أصطحب أمى للذهاب والعيش فى الأمير ألبرت، وكانت أمى مريضة، وتعانى من آلام فى قدميها، كانت الأمطار لا تتوقف حيث كنا نعيش فطلبت منى الذهاب إلى الريف، لتنجو بنفسها من الأمطار الغزيرة ولتنعم بقليل من الهدوء والسكينة فى أيامها الأخيرة، لكنها ماتت أثناء الطريق

فى مستشفى (ستيلينبوش) وهكذا لم تر قط الأمير ألبرت رغم أنها ولدت هنا.

قالت امرأة: يا لها من سيدة مسكينة!

استطردتْ دون أن تنتظر إجابة «ك»: ولكننى أعتقد أنك عشت أياما سعيدة فى كيب تاون، نحن لا ننعم هنا بالرعاية الاجتماعية ولا نعرف الرفاهية.

ثم أشاحتْ بذراعها وكأنها تعانق فضاء المعسكر وأضافت: هذه هى رفاهيتنا.

قال «ك»: ثم عملت فى خطوط السكك الحديدية؛ حيث كنت أقوم بإزالة الشوائب عن القضبان وبعد ذلك جئت إلى هنا.

سادتْ لحظات من الصمت فكر «ك» خلالها فى الحديث عن كيس الرماد وإخبارهم ببقية القصة، لكنه لم يستطع وربما لم يكن مستعدا لسرد بقية الحكاية فى تلك اللحظة، بدأ عازف الجيتار فى عزف مقطوعة جديدة فانصرفت المجموعة عنه وراحوا يستمعون للموسيقى فقال: لا توجد رفاهية فى كيب تاون أيضا، لقد انتهى عصر الرفاهية.

انبعث ضوء من الخيمة المجاورة بعد أن أشعل أحدهم شمعة فتحركت ظلال وخيالات كبيرة على الحائط، استلقى «ك» على ظهره وراح يحدِّق فى النجوم.

سمع صوتا بجواره يقول: نحن هنا منذ خمسة أشهر.

كان هو الرجل نفسه الذى خرج من الكوخ وكان اسمه روبرت، قال روبرت مستطردا: أنا وزوجتى وأولادى، ثلاث فتيات وولد بالإضافة إلى أختى وأولادها نعيش هنا منذ خمسة أشهر، كنت أعمل فى مزرعة بالقرب من (كلارستروم)؛ حيث مكثت هناك مدة طويلة تتجاوز اثنتى عشر عاما، ثم توقفت فجأة تجارة الصوف. وبدءوا يطبقون نظام الكوتا وأغلقوا بعد ذلك الطريق المؤدى إلى (أودتشورن)، ثم أغلقوا الطريق الآخر، ثم أعادوا فتح الطريقين وما لبثوا أن أغلقوهما مرة أخرى، وذات يوم جاءنى صاحب المزرعة وقال لى: أنا مضطر للاستغناء عنك؛ لأنك تحملنى مسئولية إطعام كثير من الأفواه وأنا لا أستطيع تحمل ذلك.

قلت له: وأين يجب أن أذهب خاصة وأنك تعرف بعدم وجود فرص للعمل؟

قال صاحب المزرعة: آسف، لا يوجد سبب شخصى وإنما هى عدم قدرتى على تحمل المزيد.

تركت المزرعة مع عائلتى، لكنه احتفظ برجل لم يمض على عمله معنا وقت طويل؛ لأنه شاب وأعزب ووحيد، ويستطيع أن يتحمله ويوفر له الطعام، قلت له: أنا دون عمل الآن فماذا يمكننى أن أفعل؟

ثم أضاف قائلا: وعلى أية حال فلقد حملنا كل أشيائنا ورحلنا، وفى الطريق أمسك بنا رجال الشرطة، أنا لا أكذب ولكننى أقول الحقيقة، لقد اتصل صاحب المزرعة بالشرطة وقبضوا علينا، ثم جاءوا بنا فى الليلة نفسها إلى هنا؛ حيث معسكر (جاكالسدريف) ووضعونا خلف الأسلاك الشائكة؛ حيث لا توجد أماكن محددة للإقامة، وقالوا: هل تفضل أن تنام تحت شجرة فى الواحة كالحيوانات أم فوق سرير نظيف فى معسكر تتوفر فيه المياه؟

قلت : وهل لى من خيار؟

قالوا: لك حق الاختيار لكنك اخترت (جاكالسدريف)؛ لأننا لن نسمح للناس بالتجول كما يشاءون ووقتما يشاءون لنشر القلق فى كل مكان.

قال موجها حديثه إلى «ك» مرة أخرى: لكننى سأخبرك بالسبب الحقيقى، سأقول لك عن السبب الذى جعلهم يسرعون بعملية القبض علينا، إنهم يريدون أن يتوقف الناس عن الاختباء فى الجبال حتى لا يعودوا فى الليل ويهدموا الأسوار، ثم يستولوا على ممتلكاتهم، هل تعرف عدد الرجال الشباب فى المعسكر؟

مال ناحية «ك» واستطرد بصوت خفيض: ثلاثون وأنت الواحد والثلاثون، وهل تعرف عدد النساء والأطفال وكبار السن؟ انظر حولك واحسبهم بنفسك، ثم أجبنى على السؤال: أين الرجال المسئولون عن تلك العائلات الموجودة معنا؟

قال «ك»: لقد كنت فى الجبال ولم أر أحدا هناك.

● لكنك إذا سألت أيا من النساء هنا عن رجالهن ستقول لك إحداهن إن زوجها يعمل فى مكان ما ويرسل لها نقودا كل شهر، بينما ستخبرك أخرى أنه هجرها وفر هاربا وإذن فمن ذا الذى يعرف الحقيقة؟

سادت لحظة طويلة من الصمت انبعث بعدها ضوء خفيف من السماء فأشار «ك» إلى أحد النجوم وقال: نجم متألق.

جاءت الشاحنة فى السادسة والنصف من صباح اليوم التالى لتوزيع رجال المعسكر على العمل فى هيئة السكك الحديدية، وفى المجلس المحلى لمقاطعة الأمير ألبرت وفى أعمال الفلاحة، فخرج «ك» معهم وفى تمام الساعة السابعة والنصف وصلوا إلى أعمالهم فى شمال منطقة (لى جامكا)، وراحوا يزيلون الأشجار المتشابكة من قاع النهر ومن فوق قضبان السكك الحديدية، كما عملوا على حفر فتحات فى الأرض وإلقاء الأسمنت بداخلها؛ لتثبيت السور، كان العمل شاقا فبدأ «ك» يترنح قبل انتصاف النهار وعندئذ همس لنفسه: إن الأيام التى قضيتها فى الجبال جعلتنى رجلا عجوزا.

وقف روبرت إلى جواره وقال: تذكر يا صديقى قبل أن ينكسر ظهرك ما يدفعونه لك، أنت تتقاضى أجرا قيمته واحد راند فى اليوم وأنا أتقاضى راند ونصف؛ لأننى أعول أسرة فلا تجهد نفسك واذهب لتتبول كما أنك كنت فى المستشفى وصحتك ليست على ما يرام.

حان وقت الاستراحة فى منتصف النهار، فقدم له روبرت ساندويتشا، ثم تمدد إلى جواره تحت ظل الشجرة وقال: يمكنك تدبير طعامك من خلال ما تحصل عليه فى الأسبوع، أما المعسكر فهو مكان للنوم فقط وبخصوص السيدات اللاتى رأيتهن بالأمس فإنهن يقمن بالأعمال الخيرية من أجل الأطفال فقط، إن زوجتى تعمل خادمة فى المدينة وتأخذ معها طفلنا الرضيع وتترك بقية الأطفال مع أختى، وهكذا نحصل على اثنى عشر راندا فى الأسبوع يجب أن تكفى لإطعام تسعة أفراد ثلاثة منهم كبار وستة أطفال، وعلى أية حال فإن الأمر أكثر صعوبة بالنسبة إلى آخرين ممن لا يجدون عملا، إنه لأمر سيئ أن نجلس خلف الأسلاك الشائكة ونشد على بطوننا.

أضاف قائلا: والآن فإنك لا تستطيع إنفاق ما تحصل عليه من المال إلا فى مكان واحد هو الأمير ألبرت، لكنك حين تذهب إلى أى دكان هناك ستكتشف أن الأسعار قد أصبحت غالية فجأة، هل تعرف لماذا؟ لأنك قادم من المعسكر وهم لا يرغبون فى أن يظل المعسكر قريبا من مدينتهم ويتمنون نقله إلى مكان آخر بعيد، لقد أداروا حملة شرسة ضد المعسكر فى البداية بعد أن اتهمونا بنقل الأمراض إليهم، وقالوا: إننا لا نعرف شيئا عن الأخلاق وعن النظافة وأضافوا بأن جميعنا رجالا ونساء لسنا سوى وكر للرذيلة والنقائص وطالبوا بضرورة إنشاء سور عند منتصف المعسكر

يفصل بين الرجال والنساء مع أهمية وجود كلاب للحراسة ليلا، كانوا ـ فى رأيى ـ يريدون إبعاد المعسكر عدة أميال إلى وسط منطقة الـ (كوب) بعيدا عن الأنظار لنأتى بعد ذلك متسللين على أطراف أصابع أقدامنا فى منتصف الليل كالجنيات؛ لنقوم بأعمالهم كشق القنوات فى الحدائق وغسل الأوانى، بشرط أن نغادر فى الصباح بعد أن يصبح كل شىء مرتبا ونظيفا.

أسمعك الآن تسألنى عن أكثرهم فائدة للمعسكر فأقول لك: إنهم المسئولون عن خطوط السكك الحديدية أولا فهم يريدون معسكرا يضم أمثالنا كل عشرة أميال على طول الطريق، ثم أصحاب المزارع الذين يحصلون من المعسكر على عمالة رخيصة ما تلبث أن تعود فى الشاحنة بعد انتهاء اليوم، وبالتالى لا يقلقون بشأن إقامتهم وإعاشتهم هم وعائلاتهم، وبالطبع لا يهمهم إذا تضوروا من الجوع أو إذا شعروا بالبرد فصاحب المزرعة لا يعرف شيئا عن معاناتهم ويعتبر أن ذلك أمر ليس من شأنه.

على بعد مسافة قصيرة وبعيدا عن مرمى السمع كان رئيس العمال جالسا فوق مقعد صغير قابل للطى، نظر إليه « ك» وهو يصب القهوة فى فنجانه الفارغ، ولم تكن أصابعه الطويلة المنبسطة قادرة على الإمساك بيد الفنجان فأمسك به بإصبعين ورفعه فى الهواء وشرب، ثم التقت عيناه بعينى «ك» من خلال حافة الفنجان ففكر «ك» وقال: ماذا يرى الآن؟ وكيف يرانى؟

أزاح رئيس العمال الفنجان عن فمه ووضعه على الأرض، ثم وضع الصفارة بين شفتيه وأطلق صفارة طويلة دون أن يقف أو يتحرك من جلسته.

كان يعمل فى تقطيع أشواك الشجيرات فى وقت متأخر من بعد الظهر حين وقف خلفه رئيس العمال نفسه، وراح يحدّق تحت ذراعه، فشاهد زوج الأحذية الأسود والعصا الخيزرانية وهى تتحرك ببطء فوق التراب، ارتجف جسده من شدة الهلع وعاد لمواصلة عمله فى تهذيب الشجيرات لكنه شعر بضعف فى ذراعيه ولم يستطع أن يلتقط أنفاسه أو يشعر بالاطمئنان إلا بعد أن ذهب رئيس العمال بعيدا عنه.

كان التعب قد استبد به فى المساء، فلم يستطع أن يأكل، وقام بإخراج المرتبة من داخل الكوخ، ورقد فوقها، وراح يتطلع إلى النجوم وهى تظهر واحدة بعد الأخرى فى السماء البنفسجية وفى تلك الأثناء اصطدم به شخص ما كان فى طريقه إلى المراحيض، حمل المرتبة وعاد إلى داخل الكوخ، ثم رقد فى الظلام فوق السرير ذى الطابقين تحت ألواح السقف الصفيحية.

دفعوا لهم أجورهم فى يوم السبت وجاءت الشاحنة المحملة بالسلع الغذائية، ثم حضر القس فى زيارة يوم الأحد لإقامة شعائر الصلاة وظلت البوابات مفتوحة حتى وقت الغروب، ذهب «ك»

للصلاة فوقف بين النساء والأطفال وانضم إلى جوقة المنشدين، أحنى القس رأسه وبدأ فى الصلاة والدعاء قائلا: فلتنعم قلوبنا بالسلام يا إلهى واضمن لنا العودة إلى بيوتنا سالمين وارفع الآلام عن كل الناس ليعيشوا معا فى مودة ولنلتزم بالوصايا باسمك يا صاحب الجلالة.

توجه القس بعد ذلك بحديثه إلى بعض من كبار السن، ثم استقل السيارة الزرقاء التى كانت بانتظاره عند البوابة ورحل.

أصبح الناس الآن أحرارا وكان باستطاعتهم الذهاب إلى الأمير ألبرت أو زيارة الأصدقاء أو على الأقل القيام بنزهة فى الواحة وسط المروج، شاهد «ك» أسرة من ثمانية أفراد، وكان الرجل وزوجته يرتديان أفضل ما عندهما من ملابس سوداء، وظهرت الفتيات بملابسهن القرنفلية والبيضاء والقبعات البيضاء فوق رءوسهن، أما الأولاد فكانوا يرتدون البدلات الرمادية وربطات العنق والأحذية السوداء اللامعة، بدءوا جميعا فى التحرك نحو المدينة عبر طريق طويل وتبعهم مجموعة من الفتيات كن يضحكن وتضع كل واحدة منهن ذراعها فى ذراع الأخرى، وكذلك رجل يحمل جيتارا بصحبة أخته وصديقته.

سأل «ك» روبرت: لماذا لا نذهب معهم؟

أجاب روبرت: فليذهب الشباب إذا أرادوا فما الميزة التى تتمتع بها مقاطعة الأمير ألبرت يوم الأحد؟ لقد شاهدتها كثيرا من قبل، وأنا لست شغوفا بها، كما أنها لا تعنى شيئا بالنسبة إلىّ، ولكن يمكنك الذهاب معهم إذا كنت راغبا فى ذلك واشتر لنفسك شرابا باردا واجلس خارج المقهى وقم بحك جلدك من لسعات البراغيث، لا يوجد شىء آخر يمكنك أن تفعله وبما أننا منعزلون هنا فى المعسكر فعلينا أن نقبل هذه العزلة ولا نتظاهر بغير ذلك.

وعلى الرغم من ذلك غادر «ك» المعسكر وبدأ فى السير حتى اختفت الأسلاك الشائكة والأكواخ ومضخات المياه عن الأنظار، ثم رقد فوق الرمال الرمادية الدافئة ووضع قلنسوته فوق وجهه، وراح فِى نوم عميق، وعندما استيقظ كان جسده متشربا بالعرق، رفع القلنسوة من فوق وجهه ونظر إلى الشمس بعينين نصف مفتوحتين فتلونت رموش عينيه بألوان قوس قزح وقال لنفسه: إننى مثل النملة التى لا تعرف مكان الحفرة.

ضرب بكلتا يديه فوق الرمال فتسربت الرمال من بين أصابعه.

بدأ شاربه يغطى شفته العليا من جديد بعد أن كان قد حلقه فى المستشفى، تحسس شاربه وتذكر أن أمر إقامته مع روبرت وعائلته كان ولا يزال صعبا بالنسبة إليه؛ حيث كان يجلس معهم حول النار وعيون الأطفال لا تتوقف عن النظر إليه، كما كان أحد الأولاد

الصغار يتعقبه حيثما ذهب ويواصل التحديق فى وجهه، وكانت أمه تشعر بالحرج فتحاول الإمساك به، لكن الولد كان يتملص منها ويبكى لكى تتركه مما يجعل «ك» عاجزا عن فعل أى شىء، وكان يستبد به الخجل ولا يعرف إلى أين يتوجه بنظراته، وكان يظن أيضا بأن الفتيات يضحكن من وراء ظهره، فكانت تنتابه الحيرة خاصة وأنه لم يعرف طوال حياته كيفية التعامل مع النساء، كانت النساء تتعامل معه بصفته إنسانا نحيلا وضعيفا وكن يطلبن منه تنظيف أوانى الشوربة بانتظام ثلاث مرات فى الأسبوع مقابل الحصول على وجبة يومية، وكان يضع مع روبرت نصف ما يحصل عليه من نقود ويحتفظ بالنصف الآخر فى جيبه، ولم يكن فى حاجة لشراء أى شىء فلم يذهب للمدينة قط، وكان روبرت دائم الاهتمام بشئونه والاعتناء به، وكثيرا ما كان يقدم له النصيحة، قال له ذات مرة فى معرض حديثه عن المعسكر: لم أر قط فى حياتى شخصا خاملا وكسولا مثلك.

أجابه «ك» قائلا: نعم.

انتهى العمل حول الكوبرى فاستغنوا عن العمالة لمدة يومين، جاءت بعدها الشاحنة، وطلبوا عددا من الرجال للعمل فى رصف الطريق، وقف «ك» فى الصف عند البوابة مع بقية الرجال، لكنه تراجع فى اللحظة الأخيرة عن ركوب الشاحنة وقال للحارس: إننى مريض ولا أستطيع أن أعمل.

قال الحارس : كما تحب ولكنهم لن يدفعوا لك.

حمل «ك» المرتبة وفردها فى الظل خارج الكوخ، ثم رقد فوقها واضعا ذراعه فوق وجهه، بينما كانت الحياة فى المعسكر مستمرة من حوله، كان مستلقيا فى هدوء فلم يقترب منه الأطفال الصغار فى البداية، لكنهم حاولوا إيقاظه بعد فترة، وحين لم يستيقظ استخدموا جسده فى ألعابهم، فراحوا يتسلقون فوقه ويقعون عليه كما لو أنه جزء من الأرض، ظل واضعا ذراعه فوق وجهه وحين استدار بجسده ورقد على بطنه اكتشف أن النعاس يستطيع أن يغالبه حتى حين يمتطى ظهره الأطفال الصغار، وشعر بنوع من السرور الخفى فى ألعابهم وأن لمساتهم لجسده كانت تمده بالصحة، لكنه شعر أيضا بالأسف حين جاء رجال المجلس لردم فتحات المراحيض بالجير، ثم قال للحارس من داخل السور: أيمكننى أن أخرج ؟

● كنت أعتقد أنك مريض، لقد أخبرتنى هذا الصباح بأنك مريض.

● أنا لا أريد أن أعمل، لماذا يجب أن أعمل؟ نحن لسنا فى سجن.

● أنت لا تريد أن تعمل لكنك تريد أن يطعمك الآخرون.

● لا أريد تناول الطعام فى كل وقت وسوف أعمل حين أحتاج للطعام.

جلس الحارس فوق مقعده بجوار نافذة حجرة الحراسة الصغيرة، وكانت بندقيته مستندة إلى الحائط، ثم راح يتطلع بعيدا ويبتسم.

قال «ك» متسائلا: هل من الممكن أن تفتح البوابة؟

قال الحارس: الطريقة الوحيدة للخروج من هنا هى الخروج للعمل.

● وإذا تسلقت السور فماذا ستفعلون؟

● حين تتسلق السور سوف أطلق النار عليك وأقسم بالله أننى لن أفكر مرتين، سأطلق النار بلا تردد فلا تحاول إذن.

أمسك «ك» بالسلك الشائك وظل يتحسسه بأصابعه وكأنه كان يفكر فى عواقب المخاطرة، فقال له الحارس: دعنى أخبرك بشىء يا صديقى من أجل مصلحتك فأنت جديد هنا على أية حال، إذا سمحت لك بالخروج الآن فسوف تعود بعد ثلاثة أيام وتتوسل للدخول مرة أخرى، أنا متأكد أنك ستعود فى خلال ثلاثة أيام وستقف هنا أمام البوابة والدموع تملأ عينيك وأنت تتوسل لى كى أسمح لك بالدخول، لماذا إذن تريد الفرار؟ لديك هنا ملجأ ومكان للإقامة وسرير خاص بك، كما أنك تستطيع الحصول على الطعام مقابل ما تقوم به من عمل، إن الناس فى الخارج تعانى أوقاتا عصيبة كما تعرف وأنا لست فى حاجة لإخبارك فلماذا إذن تريد اللحاق بهم؟

أجاب «ك» : لا أرغب فى البقاء هنا فى المعسكر وفقط، هذا كل ما فى الأمر، دعنى أتسلق السور لأخرج من هنا، وعليك فقط أن تدير ظهرك، ولن يلاحظ أو يعرف أى شخص شيئا عن رحيلى فأنت نفسك لا تعرف عدد الناس فى المعسكر.

قال الحارس: إذا تسلقت السور سأطلق عليك النار وستموت فى الحال أيها السيد ولن ينتابنى أى شعور بالندم، لقد أخبرتك وأنا أعى ما أقول.

فى الصباح التالى كان «ك» راقدا فوق السرير، بينما ذهب بقية الرجال للعمل وحين نهض توجه على الفور إلى البوابة مرة ثانية وكان الحارس نفسه هو القائم بالخدمة، تبادلا الحديث عن كرة القدم، وقال الحارس: أنا مصاب بمرض السكرى ولهذا السبب فإنهم لم يرسلونى قط إلى الشمال، وأعمل منذ ثلاث سنوات فى الأعمال المكتبية وفى المخازن ومهام الحراسة، وأعرف أنك تعتبر وجودى فى المعسكر شيئا سيئا، وترى أننى أجلس بجوار النافذة اثنتى عشرة ساعة فى اليوم لا أفعل خلالها شيئا ولا أجد ما أفعله غير النظر إلى أوراق الشجر، وعلى الرغم من أنك على صواب فإننى سأخبرك بشىء يا صديقى هو الحقيقة بعينها، سوف أهرب بعيدا فى اليوم نفسه الذى سأتلقى فيه أمرا بالذهاب إلى الشمال ولن يجدونى مرة ثانية، إنها حرب لا تخصنى وإنما هى حربهم وعليهم خوضها دونى.

انتابته رغبة فى معرفة حكاية فم «ك» فقال: أريد أن أعرف من باب الفضول فقط.

أخبره «ك» بالحكاية، فأشار برأسه، وقال: كنت أعتقد ذلك، لكننى كنت أعتقد أيضا أن شخصا ما قد جرحك.

فى غرفة الحراسة كان الحارس يحتفظ بغذائه المكون من دجاجة باردة وخبز داخل ثلاجة صغيرة تعمل بالزيت، تناول الغذاء ثم اقتسمه إلى نصفين وأعطى «ك» نصيبه من خلال فتحة فى السلك الفاصل بينهما، وقال وهو يبتسم ابتسامة خبيثة: أعتقد أننا نعيش بشكل جيد فى ظل ظروف الحرب هذه.

ثم حكى له عن النساء فى المعسكر وعن زيارات الليل حتى قال إنهن متعطشات لممارسة الحب.

تثاءب بعد ذلك وعاد إلى مقعده.

جاء روبرت فى الصباح وراح يهز جسد «ك» حتى أيقظه وقال هيا انهض وقم بارتداء ملابسك، سوف تذهب للعمل رغما عنك.

دفع «ك» ذراع روبرت بعيدا عنه فأضاف روبرت قائلا: هيا، إنهم يريدون كل الناس اليوم ولن يقبلوا أية أعذار ولن يستمعوا إلى أى حجة، لا بد أن تأتى.

بعد عشر دقائق كان «ك» واقفا خارج البوابة وسط رياح الصباح الباكر الباردة فى انتظار الشاحنة، مضت الشاحنة عبر

شوارع الأمير ألبرت فى اتجاه (كلارستروم) مرورا بطريق المزرعة بالقرب من العزبة المظللة مترامية الأطراف، ثم توقفت بمحاذاة حقل البرسيم المورق؛ حيث كان يقف جنديان من جنود الاحتياط، وكان كلاهما يحمل بندقية ويعلق الشارة الخاصة بهما فوق ذراعه وحين نزل رجال العسكر من الشاحنة قام عامل المزرعة بتسليمهم المناجل دون أن يقول شيئا ودون أن ينظر إلى أى منهم، ثم ظهر رجل طويل يرتدى بنطالا فضفاضا ورفع المنجل عاليا، وقال بصوت عال: أنتم جميعا تعرفون كيفية استخدام المنجل وعلى كل واحد منكم العمل على قص وتشذيب مساحة لا تقل عن اثنين مورجين morgen(*) فهيا للعمل.

وقف الرجال فى صفوف، وكان كل صف يبعد عن الآخر ثلاث خطوات، ثم بدءوا العمل فى الحقل، فراح بعضهم يعمل بالتقويس والقص، بينما عمل الآخرون فى التجميع، وما إن تقدموا خطوة واحدة للأمام بإيقاع ثابت وممل، حتى تصبب وجه «ك» بالعرق وأصابه الدوار، فحاول أن يستريح قليلا، لكنه سمع صوتا زاعقا من خلفه يقول: لا تتوقف عن العمل، عليك بمواصلة عمليات القص والتشذيب.

(*) مورجين Morgen: مقياس هولندي جنوب أفريقي للأراضى يساوى تقريبا 8464 مترا مربعا. (المترجم)

استدار «ك» وأصبح فى مواجهة الفلاح بزيه الكاكى واستطاع أن يشم الرائحة الجميلة لمزيل العرق الذى يستخدمه الرجل، صاح الفلاح قائلا: أين نشأت أيها القرد؟ اعمل بشكل جيد، إن طريقتك فى القص والتنظيف ليست كما ينبغى أن تكون.

تناول المنجل من يد «ك» وأزاحه بعيدا، ثم جمع الحزمة التالية من البرسيم، وقام بقصها وتنظيفها وصاح قائلا : أترى؟

أومأ «ك» برأسه فاستطرد الفلاح بالصوت العالى نفسه: فلتعمل إذن بالطريقة التى شاهدتنى أعمل بها يا رجل، هيا.

انحنى «ك» وقطع حزمة البرسيم التالية بالطريقة نفسها، ثم سمع الفلاح وهو ينادى على واحد من جنود الاحتياط قائلا: أين يضعون مثل تلك القمامة الناتجة عن عمليات القص والتنظيف؟

كان الجندى متهالكا وبدا كأنه شبه ميت حين قال: فى المرة القادمة سيستخرجون الجثث من باطن الأرض.

قال «ك» لروبرت أثناء فترة الاستراحة الأولى وهو يلهث: لست قادرا على الاستمرار فى العمل، إن ظهرى يؤلمنى ويكاد أن ينكسر وفى كل مرة أقف فيها فاردا ظهرى يصيبنى دوار شديد.

قال روبرت: استمر فى العمل ولكن ببطء فلن يستطيعوا إجبارك على عمل ما لا تستطيع القيام به.

نظر «ك» إلى المساحة التى قام بقصها وتنظيفها، فقال له روبرت هامسا: أتريد أن تعرف من يكون هذا الفلاح؟ إنه نسيب نقيب الشرطة "أوزثوزيان" الذى اتصل بمركز الشرطة حين أصاب ماكينته التلف، وطلب منهم بعض الرجال للعمل، فأرسلوا فى الصباح التالى مباشرة ثلاثين من الرجال للعمل فى مزرعته، نحن يا صديقى أولئك الرجال وذلك هو النظام.

انتهوا من عمليات قص الحقل وتنظيفه قبل حلول الظلام وتركوا البالات والأكياس لليوم التالى، وكان «ك» يترنح من التعب فجلس فى الشاحنة، وأغلق عينيه، ثم انتابه شعور بأن الشاحنة تمضى به فى طريق فارغ ولا نهائى، وعندما وصل إلى الكوخ غرق فى نوم عميق ولم يستيقظ إلا فى منتصف الليل على صوت صراخ طفل رضيع، فسمع همهمات وهمسات ساخطة من حوله، وبدا أن الكل مستيقظ، كانوا يرقدون ويستمعون لسلسلة متواصلة من صراخ وعويل وزعيق أحد الأطفال الصادر من إحدى الخيام، فشعر «ك» بغضب شديد ولم يستطع النوم، لكنه تمدد بجسده واضعا قبضتيه فوق صدره وراح يتمنى موت الطفل.

فى مؤخرة الشاحنة كان تيار الهواء يلفح وجوههم، وراح «ك» يذكرهم بصراخ الطفل فى الليلة الماضية، فقال روبرت: أتريد أن تعرف السبب الذى جعل الطفل يسكت فى النهاية؟ إنه البراندى وقرص الأسبرين، إنه العلاج الوحيد فلا يوجد أطباء أو ممرضات فى المعسكر.

صمت روبرت لحظة ثم أضاف: دعنى أخبرك بما حدث حين افتتحوا هذا المعسكر الذى تم بناؤه للمتشردين، وأولئك الذين احتلوا الأرض دون وجه حق وللمتسولين والعاطلين عن العمل والمتسكعين الذين ينامون فى الجبال، وأيضا لأولئك الذين يطوفون حول المزارع، لقد فتحوا البوابات أيضا لمرضى الحصبة والدوسنتاريا والأنفلونزا بعد شهر أو أقل من إقامة المعسكر، وكان أولئك المرضى يتكدسون فى مكان ضيق متلاصقين ببعضهم البعض كالحيوانات داخل القفص، هل تعرف ما فعلته ممرضة الحى حين جاءت؟ إذا سألت أى شخص كان هنا سوف يخبرك، كانت تقف فى منتصف المعسكر وتصرخ ولم تكن تدرى شيئا عما يجب أن تفعله بعد أن تنظر إلى الأطفال الذين تبرز عظامهم من أجسادهم، كانت تقف فقط وتصرخ، كانت ممرضة الحى تلك امرأة قوية.

استطرد روبرت: على أية حال، لقد أثاروا الرعب والفزع فى النفوس، غير أنهم بدءوا بعد ذلك فى إلقاء الحبيبات فى الماء وفى عمل المراحيض وقاموا بعمليات الرش لمكافحة الذباب، كما أحضروا جرادل صغيرة للشوربة، ولكن أتعتقد أنهم فعلوا ذلك؛ لأنهم يحبوننا؟ أرجو ألا تعتقد ذلك، لقد فعلوا ذلك؛ لأننا نبدو فى صورة مخيفة وبشعة حين نمرض أو نموت، ولتعلم جيدا أنهم لن يقدموا لنا أى شىء إذا ساءت أحوالنا الصحية وأصبحنا عاجزين عن العمل، إنهم يقدمون لنا القليل من أجل العمل وليس من أجلنا

ويـريـدون الحـفـاظ عـلـى صـحـتـهم والـعـيش فى سـلام بـعـيـدا عن مشاكلنا، إنهم يرغبون فى النوم بشكل هادئ دون إزعاج.

قال «ك» : لا أعرف، أنا لا أعرف.

قال روبرت: أنت لا تنظر للأمور بعمق كاف، إذا استطعت أن تخترق بنظراتك قلوبهم فسوف تعرف كل شىء وسوف تفهم.

هزَّ «ك» كتفيه فقال روبرت: أنت طفل صغير ظل نائما طوال حياته وآن الأوان لكى تستيقظ، لماذا يتصدقون عليك وعلى الأطفال؟ لأنهم يعرفون بأنك شخص مسالم وغير ضار وأن عينيك مغلقتان وبالتالى لا تستطيع رؤية الحقيقة من حولك.

بعد يومين مات الطفل الذى كان يصرخ وتم دفنه فى مقبرة المدينة خلف إحدى البنايات الكبيرة؛ لأن قانونا من الجهات العليا كان يحظر بناء المدافن بالقرب من أى معسكر، كانت أم الطفل فى الثامنة عشر من عمرها، وبعد أن انتهت من عملية دفن طفلها رفضت أن تأكل ولم تذرف الدموع، وإنما جلستْ بجوار خيمتها وراحتْ تحدِّق فى اتجاه الأمير ألبرت بشرود، حتى إنها لم تسمع الأصدقاء الذين جاءوا لمواساتها، وحين بادروا بلمسها أزاحتْ أياديهم بعيدا عنها، وقف «مايكل ك» عدة ساعات مستندا إلى السور وهو يراقبها، لكنها لم تره فتساءل: هل هذا هو كل شىء أعرفه؟ وهل بدأت أخيرا أتعلم الحياة هنا فى المعسكر؟

بدا له أن مشاهد الحياة تتراءى أمامه واحدا وراء الآخر وما تلبث أن تلتحم مع بعضها البعض، لكنه لم يستطع أن يعرف معنى ما يحدث.

ظلت الأم الفتاة يقظة بلا نوم لمدة يوم كامل، ثم اختفت عن الأنظار داخل الخيمة دون أن تبكى أو تتكلم أو تأكل، وكان «ك» فى كل صباح يأمل فى رؤيتها، كانت قصيرة وبدينة ولم يكن أحد يعرف عن يقين والد الطفلة، غير أن الشائعات كانت تؤكد أنه مقيم فى الجبال، انتابت «ك» أحاسيس غامضة تساءل بعدها فى دهشة: هل وقعت فى الحب أخيرا؟

ظهرت الفتاة من جديد بعد ثلاثة أيام وراحتْ تستأنف حياتها وحين شاهدها «ك» وسط جمع من الناس لم يستطع أن يلفت انتباهها وفشل تماما فى التحدث إليها.

استيقظ ذات ليلة من أيام سبتمبر إثر سماعه صيحات صاخبة، كان الناس فى المعسكر يهرعون من فوق أسِرَّتِهم؛ لكى ينظروا عبر الأفق فى اتجاه الأمير ألبرت إلى براعم البرتقال الجميلة والكبيرة وهى تتفتح فى مواجهة السماء المظلمة وعبروا عن دهشتهم بالتصفير وصيحات الذهول، وقفوا لمدة ساعة ظلوا خلالها ينظرون إلى المشهد بالدهشة نفسها، بينما اشتعلت النيران كالنافورة ولم يتأكدوا من سماع انفجارات وهدير شعلات النار المتوهجة عبر أميال من الواحة الفارغة إلا بعد لحظات ليست قليلة، أصبحت

الزهور أكثر احمرارا وقاربت على الذبول من شدة الحرارة، كان بعض الأطفال نائما فوق الأذرع والبعض الآخر يقاوم النوم بدعك عينيه، ولم يعد بالمشهد ما يستحق الانتظار وعندما بدأت حدة النيران فى الخفوت شيئا فشيئا عادوا مرة أخرى إلى أسرَّتهم.

اقتحم رجال الشرطة المكان عند الفجر، كانوا مجموعة تتكون من عشرين شرطيا نظاميا وبعض المتطوعين من طلبة المدارس وكانوا يمسكون بالكلاب ويحملون البنادق، وقف الضابط فوق الشاحنة وراح يصيح ويصدر الأوامر باستخدام مكبر الصوت، وعلى الفور قام الجنود والمتطوعون بشد أوتاد الخيام وهدمها، ثم سارعوا بدخول الأكواخ ولم يترددوا فى ضرب النائمين فوق أسرَّتهم، حاول أحد الصبية الفرار منهم لكنهم تعقبوه حتى أمسكوا به خلف المراحيض وأمطروه ضربا، كما حاول أحد الكلاب الانقضاض على أحد الصبية الصغار وأصابه بجروح فى رأسه، فصرخ الصبى من شدة الرعب، وكان بعض الناس يبكى والبعض الآخر يصلى، بينما أصيب كثير منهم بالفزع، اقتادوا الرجال والنساء إلى منطقة مكشوفة أمام الأكواخ وأمروهم بالجلوس، ثم بدءوا فى مراقبتهم بمساعدة الكلاب وتحت تهديد السلاح، بينما راح بقيتهم يتحرك كسرب من الجراد حول الخيام، قذفوا بكل شىء داخل الخيام إلى الخارج وقاموا بتفريغ الحقائب والصناديق حتى أصبح الموقع شبيها بكومة كبيرة من القمامة بعد أن بعثروا الملابس والمفروشات والطعام

وأوانى الطهى والأوانى الفخارية ومستلزمات المرحاض فى كل مكان دخلوا الأكواخ بعد ذلك وحولوها إلى فوضى عارمة.

أثناء كل تلك الأحداث شدَّ «ك» قلنسوته فوق أذنيه وجلس فى مواجهة رياح الصباح الباكر، وكانت المرأة الجالسة إلى جواره تحمل طفلا رضيعا وفتاتين معلقتين بذراعيها، كان الطفل عاريا من الأسفل وكان يبكى، قال «ك» للفتاة الأصغر هامسا: تعالى واجلسى معى.

تسلقت الفتاة قدميه على الفور دون أن تنتبه للخراب المحيط بها ووقفتْ فى المنطقة الآمنة بين ذراعيه وراحت تمص إبهامها، ثم لحقت بها أختها ووقفتا متلاصقتين، أغلق «ك» عينيه، بينما كان الطفل الرضيع يواصل ركلاته وبكائه.

اصطفوا فى طوابير أمام البوابة وبدءوا فى الخروج واحدا بعد الآخر بعد أن أجبروهم على ترك كل متعلقاتهم بما فيها البطاطين، التى كانوا يتدثرون بها فوق ملابسهم التى ينامون بها، شاهد «ك» الجندى الذى يمسك بالكلب وهو ينتشل مذياعا صغيرا من بين يدى امرأة، ألقى الجندى بالمذياع فوق الأرض بقوة وداس عليه وقال: ليس من حق أحد أن يحتفظ بمذياع.

خارج البوابة أجبروا الرجال على الاصطفاف ناحية الشمال والنساء والأطفال ناحية اليمين، ثم أغلقوا كل البوابات وأصبح المعسكر خاليا، وبعد ذلك استدعى النقيب الأشقر الذى كان يصدر

الأوامر اثنين من الحرس لمراقبة الرجال الواقفين فى صف على جانب السور، كان الرجلان المكلفان بالحراسة غير مسلحين ويرتديان ملابس غير مرتبة، فتساءل «ك» بينه وبين نفسه عما يحدث لأفراد الحراسة، ثم قال النقيب: والآن، هل ما زال أحد بالداخل؟

كان ثلاثة من الرجال غير موجودين من أولئك الذين لم يتبادل «ك» معهم الحديث وكانوا يقيمون فى أكواخ أخرى، صاح النقيب فى طاقم الحراسة فسارعوا بالمثول أمامه، واعتقد «ك» فى البداية أن صياحه بصوت عال ناتج عن تعوده استخدام مكبر الصوت، لكنه سرعان ما اكتشف أنه يخفى غضبا عارما خلف ذلك الصياح.

قال النقيب بالصوت العالى نفسه: ما الذى نحتفظ به هنا فى الفناء الخلفى؟ هل هو وكر للمجرمين والمخربين والعاطلين؟

أشار إلى اثنين من الحرس وأضاف: وأنتما، أنتما الاثنان، إنكما تنامان وتأكلان حتى أصبحتما بدينين من كثرة الأكل، لكنكما فى الوقت نفسه ومع مرور الأيام لا تنتبهان لغياب بعض الناس رغم أنكما مكلفان بحراستهم، ماذا تفعلان هنا إذن؟ هل تديران معسكرا للترفيه؟ لا، إنه معسكر عمل، إنه معسكر لتعليم الكسالى كيفية العمل وإذا لم يعملوا فمن الأجدر أن نغلق المعسكر ونقوم بمطاردة أولئك المتشردين فى كل مكان، اخرجا من هنا فورا ولا يفكر أحدكما فى العودة فلقد استنفذ كلٌّ منكما فرصته.

استدار ناحية مجموعة من الرجال وصاح قائلا: وأنتم أيها الجاحدون الأوغاد، نعم، أنتم يا من لا تعرفون قيمة ما تنعمون به من الذى شيد لكم المنازل والأكواخ حين كنتم لا تجدون مكانا يأويكم؟ ومن الذى قدَّم لكم الخيام والبطاطين عندما كنتم ترتعشون من البرد؟ ومن الذى قام برعايتكم وعلاجكم؟ وماذا عن الطعام الذى كان يأتيكم يوما بعد يوم؟ آه، لكنكم لا تدركون شيئا كما يبدو فى ردود أفعالكم، حسنا، من الآن فصاعدا يمكنكم أن تعانوا من الجوع!

صمت لحظة التقط خلالها أنفاسه وبرزتْ الشمس من فوق كتفيه كأنها كرة من النار، ثم قال بصوت صاخب: هل تسمعوننى؟ أتمنى أن يسمعنى كل شخص فيكم ويفهمنى، لقد كنتم السبب فى العداء بينى وبينكم وها أنذا أكلف رجالى بالتخلى عن دورهم الرئيسى فى الجيش؛ كى يقوموا بأعمال الحراسة هنا، اللعنة على الجيش، إن رجالى مكلفون بالحراسة الآن وسوف أغلق البوابات، وإذا ما شاهد رجالى أى شخص منكم سواء كان رجلا أو امرأة أو طفلا خارج الأسلاك الشائكة، فلن يترددوا فى إطلاق الرصاص عليه فى الحال طبقا للأوامر المفروضة عليهم، كما أطالبكم بعدم توجيه أى نوع من الأسئلة، ولن يغادر أحد المعسكر إلا فى حال صدور أوامر للعمل بالخارج ولتعرفوا أيضا أن الزيارات ممنوعة

وكذلك الخروج للتنزه أو الاسترخاء وستدق أجراس الإنذار صباحا ومساء للتأكد من وجود الجميع، لقد كنا كرماء معكم إلى حد بعيد.

رفع ذراعه وأشار بطريقة مسرحية إلى الرجلين المكلفين بالحراسة وكانا لا يزالان واقفين أمامه بانتباه، ثم قال: سأغلق على هذين القردين وسأتركهما بينكم ليعرفوا منْ منا الذى يدير الأمور هنا.

أضاف مخاطبا الرجلين: وأنتما، أتعتقدان أننى غافل عنكما ولا أعرف كل ما تفعلانه؟ أتعتقدان بأننى لا أعرف عن الحياة الجميلة التى تمارسانها؟ إننى أعرف عن الحياة الجنسية التى تنعمان بها فى الأوقات التى يجب أن تقوما فيها بأعمال الحراسة.

تأججت مشاعره فاندفع فجأة إلى داخل حجرة الحراسة، ثم خرج بعد لحظة، ووقف أمام الباب حاملا ثلاجة صغيرة مطلية بالدهان فوق بطنه، وكان علامات وجهه توحى بالتوتر والإجهاد، سقطتْ قبعته على الأرض بعد أن اصطدمت رأسه بجانب الباب، ثم تقدم بخطواته إلى حافة النافذة ورفع الثلاجة إلى أعلى ارتفاع وألقى بها على الأرض فحدث ما يشبه الانهيار على الأرض وبدأ زيت الثلاجة ينساب من الموتور وعندئذ قال لاهثا: هل تفهمون؟

عدَّل من وضع الثلاجة، فانفتح الباب، وتبعثرت زجاجة من البيرة المنشطة وعلبة من السمن وقالب من السجق وكمية من الخوخ

والبصل الطازج ودورق ماء بلاستيكى وخمس زجاجات من البيرة العادية، ثم قال وهو يلهث مرة ثانية ويحدِّق فى الأشياء المتبعثرة: هل تفهمون؟

جلسوا طوال فترة الصباح فى الشمس، بينما كان اثنان من رجال الشرطة الشباب والمعاون ذو القميص الأزرق يفتشون فى الأنقاض بهدوء وفضول، وحين وجدوا قليلا من الخمر والنبيذ قاموا بإفراغه فى التراب، ثم وضعوا كل أنواع الأسلحة التى عثروا عليها فى كومات متقاربة كالقضبان الحديدية الصغيرة وبعض المواسير وزوج من المقصات الرخيصة وكثير من السكاكين والمطاوى، انتهت عملية البحث والتفتيش عند منتصف اليوم، وقام رجال الشرطة بعد ذلك بإجبار الناس على دخول المعسكر، ثم أغلقوا البوابات ورحلوا فى خلال دقائق وبقى منم اثنان حيث جلسا طوال فترة ما بعد الظهر تحت سقيفة الخيمة؛ لمراقبة الناس داخل المعسكر الذين كانوا يبحثون وسط الفوضى والركام عن أشيائهم.

عرفوا مؤخرا من أحد الشرطيين المكلفين بحراستهم سبب غضبهما، فقد حدث انفجار مدو فى منتصف الليل داخل ورشة لحام بالشارع تبعه حريق هائل لحق بالمبنى المجاور ومنه إلى متحف التاريخ الثقافى، كانت قبة المتحف مغطاة بالقش وكان السقف والأرضيات من الخشب الأصفر، وقد انهار عن آخره فى أقل من ساعة، لكنهم استطاعوا أن ينقذوا بعض الآثار القديمة التى كانت

معروضة فى فناء المتحف، باستخدام ضوء البطارية، راحوا يبحثون فى أنقاض الورشة المحترقة فاكتشفوا دليلا على اقتحام المكان بالقوة، تحدث أحد السائقين عما حدث فى مساء اليوم السابق حين أوقف ثلاثة من الرجال الغرباء كانوا يركبون دراجتين بالقرب من طريق المعسكر الجانبى، فقام بتحذيرهم بأنهم فى منطقة محظور فيه التجوال، وأنهم بذلك يخالفون الحظر، لكنهم أقروا له أنهم عائدون بأقصى ما يستطيعون من سرعة إلى (أونديردورب)؛ حيث يعيشون فصدقهم السائق ولم يفكر فى شىء آخر وبدا واضحا أن الناس فى المعسكر متورطون فى عملية الحريق.

واجه «ك» كثيرا من المتاعب حين حاول تجميع حاجياته القليلة، لكن رجالا آخرين من الأكواخ الأخرى ممن كانوا يمتلكون الصناديق والحقائب كانوا يهيمون بغضب وسط الأنقاض؛ بحثا عن أى شىء وعندما بدءوا فى الشجار تراجع «ك» منسحبا.

كان يوم الأربعاء ورغم ذلك لم تصل السيدات اللاتى كن يحضرن الشوربة، فتوجه وفد من النساء إلى البوابة لطلب الإذن باستخدام الموقد الموجود فى مطبخ المعسكر غير أن الحراس تظاهروا أنهم لا يملكون المفتاح فألقى شخص ما ـ ربما كان طفلا ـ صخرة صغيرة فوق نافذة المطبخ.

لم تحضر الشاحنة أيضا فى اليوم التالى لاصطحاب الرجال إلى العمل وعند منتصف الصباح كانت وردية الحراسة تتغير، فقال

روبرت بصوت عال جدا؛ كى يسمعه الجميع: سوف يقومون بتجويعنا ولم تكن تلك الحريق التى اندلعت سوى ذريعة طالما تطلعوا إليها للقيام بما كانوا دائما يحلمون به ألا وهو سجننا فى هذا المعسكر حتى نموت.

وقف «ك» مستندا إلى الأسلاك الشائكة وراح يتطلع إلى الخارج نحو المرج العشبى الممتد وهو يفكر فى كلام روبرت، توقف فجأة عن التفكير، وقال: نعم، إن المعسكر ليس سوى مكان تم إنشاؤه خصيصا؛ لنقيم داخل أسواره إلى الأبد وحتى نموت جميعا وليست صدفة أن المعسكر يقع بعيدا عن المدينة وبجوار طريق لا يؤدى إلى أى مكان، لكننى لا أستطيع حتى هذه اللحظة أن أصدق هذين الحارسين الشابين وهما يجلسان برباطة جأش ويتثاءبان ويدخنان بجوار نافذة حجرة الحراسة وأيضا وهما يذهبان من وقت لآخر إلى النوم فى الوقت نفسه الذى يموت فيه الناس أمام أعينهم.

بدأت بعض الأفكار فى التحرر داخل رأسه فأضاف: إذا كانوا حقا يريدون التخلص منا ونسياننا إلى الأبد لقاموا بتزويدنا بالفئوس والمجارف وأمرونا بالحفر، وبعد الانتهاء من تنفيذ حفرة كبيرة فى منتصف المعسكر، وبعد أن يكون التعب والإجهاد قد حلا بنا سيصدرون أوامرهم أن ننزل إلى الحفرة الكبيرة ونرقد داخلها جميعا، ثم سيقومون بتحطيم الأكواخ والخيام وتكسير السور ويلقون بها مع كل حاجياتنا فوق رءوسنا حتى يتساوى مستوى الحفرة

الكبيرة بالأرض؛ أى أنهم سيدفوننا أحياء، ثم يقومون بتسوية الأرض وكأن شيئا لم يكن وعندئذ قد يبدءون فى نسياننا، ولكن من الذى يستطيع أن يحفر حفرة كبيرة إلى هذا الحد؟

أعاد طرح السؤال بينه وبين نفسه: منْ يستطيع؟ نحن نحتاج لحفرة هائلة فهل يستطيعون؟ لا أعتقد أن ثلاثين رجلا حتى بمساعدة النساء والأطفال وكبار السن بمقدورهم عمل مثل تلك الحفرة ولا أعتقد أن حكومتنا الحاضرة تستطيع باستخدام الفئوس والمجارف فقط أن تفعل خاصة فى هذه الواحة ذات الأحجار الصخرية.

هل كانت أفكاره تلك هى أفكار روبرت؟ أم أن أفكار روبرت كانت بمثابة البذرة التى كبرت بداخله حتى أصبحت ملكا له؟ لم يستطع «ك» أن يعرف.

وصلت شاحنة المجلس الشعبى صباح يوم الاثنين كالعادة لتوزيعهم على العمل، وقبل أن يصعد «ك» إلى مؤخرة الشاحنة كان الخراس يراجعون أسماءهم فى اللائحة وبدا أن شيئا لم يتغير، نزلوا من الشاحنة فى مزارع المقاطعة المختلفة طبقا لقائمة الأسماء الموجودة مع السائق، وكان من نصيب «ك» العمل مع اثنين من رفاقه فى إصلاح الأسوار وكان العمل بطيئا ومملا؛ لأن الأسلاك التى كانوا يستخدمونها لم تكن جديدة وإنما أطوال من الأسلاك الشائكة

القديمة الصدئة، كانت تأخذ أشكالا مختلفة ومتفرقة بعد القيام بربطها معا، ارتاح «ك» لطريقة العمل البطيئة التى استطاع من خلالها أن ينعم بفترات من الراحة، كانوا يأتون فى الصباح ويعودون فى المساء وبعد مضى أسبوع كامل فى المزرعة لم ينجزوا من السور سوى مئات قليلة من الأمتار وحدث ذات مرة أن استدعى صاحب المزرعة «ك» وقدَّم له سيجارة، ثم قال له مادحا إياه: لديك إحساس بطبيعة الأسلاك الشائكة ويجب أن تستمر فى عمل السور؛ لأن هذا البلد سيكون دائما فى احتياج لمن يتقنون هذا النوع من العمل.

لم يكن صاحب المزرعة سعيدا باستخدام تلك الأسلاك والمواد المتهالكة غير أنه لم يكن يملك البديل، دفع للرجال الثلاثة أجرهم المتفق عليه فى نهاية الأسبوع بالإضافة إلى كمية من الفاكهة المتنوعة ووجبات من الخضار وبعض الملابس المستعملة، سترة قديمة كانت من نصيب «ك» وصندوق كرتونى من الملابس البالية لزوجات وأطفال الرجلين الآخرين، وفى طريق عودتهم بالشاحنة فتح أحد الرجلين الصندوق الكرتونى، وعثر على زوج من السراويل القطنية فرفعه بأطراف أصابعه بعيدا عن وجهه وأغلق أنفه؛ خوفا من الرائحة، ثم ألقى به من فوق الشاحنة، فراحت تتقاذف به الرياح وبعد لحظة قصيرة ألقى بالصندوق كله فوق جانب الطريق.

وصلوا إلى المعسكر فى الليل وكان الناس يتبادلون الشراب حتى ثملوا ونشبت بينهم المعارك، وحين أمعن «ك» النظر كان أحد رجال الفيلق الحر - الذى قال: إنه مصاب بمرض السكرى - واقفا وسط

ضوء النار وقد أمسك بفخذه طالبا النجدة، كانت يداه ملوثتين بالدم، وبنطاله مبلل، وراح يصرخ مرة تلو الأخرى قائلا: ما هذا الذى يحدث معى؟

كان الدم يتسرب من بين أصابعه سميكا كالزيت وجاء الناس من كل الاتجاهات لمشاهدة الرجل.

اندفع «ك» باتجاه البوابة؛ حيث كان يقف الحارسان من رجال الشرطة وهما ينظران إلى ما يحدث من فوضى واضطراب، وقال لهما بطريقة متلعثمة: لقد طعنوا الرجل، إنه ينزف ويجب أن تأخذوه إلى المستشفى.

تبادل الحرسان النظرات وقال أحدهما: سوف نفعل ما بوسعنا.

عاد «ك» مسرعا وكان الرجل الجريح جالسا وقد ربط بنطاله حول كاحل قدميه مواصلا الحديث بلا توقف، وكان لا يزال ممسكا بفخذه وبخاصة الجزء الذى يتدفق منه الدم، صاح «ك» للمرة الأولى منذ وجوده فى المعسكر: يجب أن نحمله إلى البوابة.

نظر الناس إليه باستغراب فأضاف «ك»: احملوه إلى البوابة وهناك يمكنهم نقله إلى المستشفى.

أشار الرجل برأسه بقوة، وقال: انقلونى إلى المستشفى.

ثم صرخ وأضاف: ألا ترون كل هذا النزيف؟

اندفع رفيقه فى الفيلق الحر ناحيته وحاول ربط الجرح بفوطة، وقام شخص ما من قاطنى الأكواخ الأخرى بلمس «ك» فى كوعه

وقال له: دعهم وشأنهم، دعهم يتحملون مسئولية بعضهم البعض وليقوموا هم بالاعتناء به.

احتشد جمع كبير من الناس، وظل «ك» يتابع الرجل الشاب وهو يضمد جراح الرجل تحت الأضواء.

لم يعرف «ك» قط الشخص الذى طعن الحارس ولم يكن متأكدا من شفائه، فقرر أن تكون تلك الليلة هى الأخيرة له فى المعسكر، وعندما ذهب كل الناس للنوم ربط «ك» كل أشيائه فى المعطف الأسود وتسلل خارجا حتى جلس خلف صهريج المياه فى انتظار انطفاء آخر جذوة من النار، لم يسمع شيئا أثناء انتظاره سوى صوت الرياح المنتشر عبر الواحة وحين طال انتظاره لمدة ساعة أخرى بدأ جسده فى الارتجاف من قلة الحركة، خلع حذاءه وعلقه فوق رقبته، ثم مشى خلف المراحيض على أطراف أصابع قدميه متجها إلى السور، قذف بحزمة أشيائه من فوق السور، ثم بدأ فى التسلق، لكن بنطاله اشتبك بالأسلاك الشائكة فأصبح معلقا فى مواجهة السماء الزرقاء، وبعد عدة محاولات نجح فى تخليص نفسه ونزل من على السور، ثم سار بخطوات هادئة فوق الأرض.

واصل سيره طوال الليل دون أن يشعر بالتعب، لكن جسده كان يرتعش فى بعض الأحيان كلما أدرك أنه أصبح طليقا، وعندما بدأ أول شعاع من ضوء النهار غادر الطريق وتحرك فى اتجاه الريف الواسع والخالى من القيود، لم يشاهد أحدا من الناس رغم أن

الفزع قد أصابه أكثر من مرة من الظباء والأرانب وهى تقفز وتتسابق نحو التلال، وكان العشب الأبيض الجاف يطير مع الرياح والسماء بلونها الأزرق المعتاد حين تدفق جسده بالنشاط، مضى فى سيره وراح يطوف فى البداية من مزرعة لأخرى، وكان المشهد من حوله فارغا والأرض خالية فانتابه إحساس أنه أول انسان تطأ قدماه تلك البقعة الخاصة من الأرض، ولكن وجود سور كل ميل أو ميلين جعله يتذكر أنه شخص آثم وهارب من شىء ما، شعر بتلك السعادة التى يحس بها الصانع الماهر أثناء محاولاته تفادى الأسوار وأسلاكها الشائكة وعلى الرغم من ذلك فإنه لم يستطع أن يتخيل المضي فى حياته على هذا النحو فى تشييد الأسوار والعناية بها وفى تقسيم الأراضى وفى مواجهة كل تلك الأنواع من المخاطر.

تسلَّق الارتفاع الأخير فتسارعت دقات قلبه وعندما وصل إلى القمة تراءى أمامه البيت من بعيد، شاهد السقف أولا ثم الجمالون المكسور والجدران ذات اللون الأبيض، وبدا له كل شىء كما كان ففكر قائلا: لقد استطعت الآن بالتأكيد أن أتغلب على الـ (فيساجى) الأخير، لقد كان كل يوم أمضيته فى الهواء فوق الجبال أو أى وقت ضاع منى فى المعسكر أكثر مما أحتمل.

كان الباب الخلفي مفتوحا وحين دفع «ك» لسان مصراع القفل العلوى ليفتح الباب انطلق شىء ما بالقرب من وجهه ووقع عند ركن

الجدار، كانت قطة ضخمة ذات لون أسود وفراء بنى ولم يسبق أن شاهد «ك» قطة من قبل فى المزرعة.

كان البيت ممتزجا برائحة الحرارة والتراب ورائحة الجلد السميك القديم غير المعالج، وعندما اقترب من المطبخ أصبحت الرائحة أسوأ مما كانت عليه فتردد فى الدخول وفكر بأنه يملك الوقت الكافى لإزالة آثار أقدامه، ثم الخروج على أطراف أصابعه وقال: لأنه مهما كان السبب الذى عدت من أجله فإنه حتما لن يكون من أجل العيش مثلما كان يعيش الـ (فيساج) وليس من أجل أن أنام حيثما كانوا ينامون ولا مجرد الجلوس للتطلع إلى أراضيهم، أنا لا يهمنى إذا كان هذا البيت مهجورا وأصبح منزلا للأشباح لكل أجيال الـ (فيساجى) لكنه ليس البيت الذى جئت من أجله.

بدا المطبخ - من خلال ضوء الشمس المتسلل عبر فتحة فى السقف - فارغا وكانت الرائحة قادمة من حجرة المؤن؛ حيث اكتشف «ك» بالنظر داخل الحجرة المعتمة خروفا معلقا فى خطاف لم يتبق منه سوى القليل من اللحم وكثير من العظام وكان الذباب الأخضر يحلق بكثافة حول بقايا الخروف وعظامه.

غادر المطبخ وراح يتجول فى بقية البيت ويبحث فى الظلام عن أى شىء يرشده إلى حفيد الـ (فيساج) أو أى أدلة تقوده للمكان الذى يختفى فيه الحفيد لكنه لم يجد شيئا، كانت الأرضيات مغطاة

بطبقة حديثة من الأتربة وباب السقيفة مغلقا من الخارج والأثاث فى مكانه نفسه، ولم يستطع العثور على أى شىء يحمل دلالة من أى نوع، وقف فى منتصف حجرة الطعام وكتم أنفاسه فى محاولة لسماع أى حركة خفيفة من أعلى أو أسفل فسمع دقات قلبه وهى تتواصل مع دقات قلب الحفيد فى اللحظة نفسها.

ظهر تحت بقعة ضوء الشمس المنبعثة من السقف أثناء طريقه للعبور نحو الواحة والمرج العشبى، حتى وصل إلى خزان المياه فى الحقل، وقام على الفور ببعثرة رماد أمه، وفى كل خطوة كان يخطوها لم يجد صعوبة فى التعرف على كل الأحجار والشجيرات وعند خزان المياه شعر بأنه فى وطنه ومكانه الخاص، ذلك الشعور الذى لم يَنْتَبهُ فى البيت، رقد فوق الأرض واضعا معطفه الأسود تحت رأسه وراح يراقب دوران السماء من فوقه، ثم قال: أريد العيش هنا، أتمنى العيش هنا إلى الأبد، هنا حيث كانت أمى وجدتى تعيشان، ذلك ببساطة ما أريده، كم هو مثير للشفقة أن يحيا الإنسان فى مثل تلك الأيام كالبهائم ولا يستطيع العيش فى بيت تتسلل الأضواء من نوافذه، من المؤسف أن يعيش المرء فى حفرة وأن يختبئ طول النهار وأن يحاول دائما اخفاء آثار أقدامه وأن يحرص على ألا يخلف شيئا وراءه يوحى ببقائه حيا.

كان خزان المياه فارغا ومن حوله كانت الأعشاب القديمة جافة وميتة ولم يجد «ك» أى أثر لبذور قرع العسل والذرة التى بذرها، لكن قطعة الأرض التى حفرها كانت مليئة بالأعشاب.

فك فرامل مضخة المياه فأحدث السير صوتا كالصرير، وبدأ فى التأرجح والاهتزاز وعندما ضغط على المكبس تدفقت المياه، كانت المياه ذات لون بنى صدئ فى البداية، ثم ما لبثت أن أصبحت مياها صافية كما كانت من قبل وتراءى له كل شىء كما كان أثناء إقامته فى الجبال، وضع يده أمام تدفق المياه، لكنه لم يصمد طويلا أمام قوة المياه فتراجعت أصابعه إلى الخلف، ثم وقف أمام تيار المياه، وراح يستدير بوجهه يمينا ويسارا وإلى أعلى وأسفل كالزهرة، شرب وقام بتنظيف جسده ثم انقطعت المياه.

نام فى العراء، ثم استيقظ على حلم شاهد فيه حفيد الـ (فيساجى) منحنيا فوق كرة فى الظلام تحت لوح الأرضية وكانت خيوط العنكبوت تسير فوقه وخزانة الملابس الثقيلة فوق رأسه وبدا أنه سمع بعض الكلمات والتوسلات، وربما كانت صرخات أو أوامر، لم يعرف بالضبط ولم يكن بمقدوره أن يسمع جيدا أو يفهم، شعر بإرهاق شديد وكان جسده متيبسا فنهض وقال: لن أتركه يسرق منى يومى الأول ولن أعمل مربيا للأطفال مرة ثانية، لقد تحمل مسئولية نفسه دونى طوال أشهر عديدة وعليه الآن أن يعتنى بنفسه لفترة أخرى.

لفَّ جسده بالمعطف الأسود وقبض على فكيه وظل مترقبا طلوع الفجر، فكر بجدية فى عمل شىء يوفر له سكنا يأويه.

ظل يتجول طوال فترة الصباح فى الواحة؛ باحثا عن الجداول الضحلة المؤدية إلى منحدرات التل وعلى بعد ثلاثمائة ياردة من خزان المياه، كان اثنان من التلال المنخفضة الشبيهة بالأثداء الكبيرة المنتفخة ينحنيان فى مواجهة بعضهما البعض، وعند النقطة التى التقيا فيها تشكلت فجوة بعمق خصر الإنسان وبطول ثلاث أو أربع ياردات، كان قاع الفجوة مليئا بالحصى الناعمة الزرقاء المكسورة من جوانبها وكانت تلك الفجوة هى التى استقر فيها «ك» تناول المجرفة والأزميل من الكوخ المجاور للمزرعة، وأزال خمسة أقدام من ألواح الحديد المضلع من فوق سطح حظيرة المواشى، وفك بصعوبة ومشقة ثلاث من عوارض السور من عند زاوية السور المكسور تحت البستان المهجور، ثم حمل كل تلك الأشياء وعاد إلى الخزان ليبدأ العمل.

حاول فى البداية توسيع جوانب الفجوة حتى أصبحت متسعة من الأسفل أكثر مما هى عليه من أعلى ومن أجل تسوية قاع الفجوة ونهايتها الضيقة وضع فوقها كومة من الأحجار، ثم وضع عوارض السور الثلاث وفوقها لوح الحديد مع بلاطات من الحجر، وهكذا أصبح لديه الآن كهف أو ملجأ بعمق خمسة أقدام، عاد إلى الخزان ليتفحصه فوقعت عيناه فى الحال على حفرة المدخل المظلمة فأمضى بقية اليوم وحتى بداية المساء فى البحث عن طرق لإخفائه، وعندما حل الظلام أدرك وقد انتابه إحساس بالدهشة أنه لم يأكل شيئا منذ يومين.

ملأ أكياسا من رمال النهر فى الصباح التالى ونشرها فوق الأرضية، ثم جاء ببعض الأحجار المستوية من التل وبنى منها الجدار الأمامى، صنع عجينة من الطين والأعشاب الجافة وملأ بها الشقوق بين السقف والجدران وقام برش الحصى فوق السقف، لم يتناول أى أطعمة طوال اليوم كما لم يشعر بالجوع غير أنه لاحظ أنه يعمل ببطء شديد وأن نوبات من الدوار كانت تنتابه لحظة الوقوف أو الركوع كما أدرك أن عقله مشوش.

كان يصب الطين فى الشقوق، ثم يقوم بتنعيمه حين سقطت أمطار غزيرة آخر مرة تسببت فى الحاق الضرر بكل ما استطاع أن ينجزه، وفى الحقيقة فلقد كانت مياه الأمطار المنحدرة من الوادى مباشرة إلى بيته هى السبب فقال: كان يجب أن أضع بعض الأحجار تحت الرمال.

ثم أضاف: وعلى أية حال فإننى لا أشيد بيتا هنا بجوار السد؛ كى يبقى للأجيال اللاحقة وينبغى أن أفعل شيئا بسيطا ومؤقتا ولا يتعدى كونه مجرد مأوى يمكن التخلى عنه فى أى وقت دون التمسك به، حتى إذا مرت جماعة من الناس بجوار بقاياه المدمرة فى يوم من الأيام، فإنهم لا يشعرون بالأسف، وإنما يهزون رءوسهم، ويعبرون عن أسفهم لأولئك الكسالى والمساكين الذى كانوا يعيشون فيه.

كانت حفنة من بذور قرع العسل وبذور الليمون لا تزال موجودة فى الكوخ، وفى اليوم الرابع منذ عودته بدأ «ك» فى زراعة تلك البذور، وقام بتنظيف رقعة من الأرض لكل بذرة على حدة، لكنه لم يستطع أن يمد قطعة الأرض كلها بالمياه؛ خوفا من انتشار اللون الأخضر فراح يحمل المياه من الخزان فى علبة من الصفيح ويروى البذور واحدة تلو الأخرى، ولم يعد بعد ذلك من عمل يمكن القيام به سوى انتظار اللحظة التى تثمر فيها البذور إذا كان من حظه أن تثمر، جلس فى ملجئه وراح يفكر فى أولئك الأطفال المساكين الذين رافقوه أيام بداياته.

أصبح أقل احتياجا للطعام أثناء عنايته بالبذور ومراقبتها وأثناء لحظات ترقبه للأرض انتظارا للطعام، كان الجوع بالنسبة إليه مجرد إحساس لم يشعر به إلا نادرا، وإذا تناول أى طعام يستطيع الحصول عليه فذلك؛ لأنه لم يستطع التخلص من الفكرة القائلة: إن عدم تناول الطعام يؤدى إلى الموت، لم يكن الطعام يعنى شيئا بالنسبة إليه كما أنه لم يكن يشعر بمذاق الطعام.

عندما نبتت البذور التى زرعها قال لنفسه: سوف أستعيد شهيتى وسأشعر بنكهة الطعام ورائحته.

كانت الحياة الشاقة فى الجبال والمعاناة التى لحقت به فى المعسكر سببا فى الضعف والهزال الذى أصاب جسده، كان من

اليسير مشاهدة العظام والعضلات تحت ملابسه الممزقة، وعلى الرغم من ذلك وبينما كان فى طريقه إلى حقله الصغير فإنه قد شعر بفرح غامر وكانت خطواته رشيقة حتى إنه كان يلمس الأرض بالكاد، وبدا أنه يستطيع الطيران بسهولة، وأنه قادر على أن يكون جسدا وروحا فى آن واحد.

عاد مرة أخرى لتناول الحشرات، كان يمضى فترة الصباح راقدا فوق بطنه وهو يلتقط اليرقات واحدة وراء الأخرى بعود من الأعشاب، ثم يضعها فى فمه وأحيانا كان يقوم بتقشير لحاء الأشجار الذابلة؛ بحثا عن الديدان أو اصطياد الجراد باستخدام سترته، وبعد الانتهاء من تقطيع رءوسه وأقدامه وأجنحته كان يجمع ما تبقى معا ويصنع منه عجينة ثم يضعها فى الشمس.

لم يكن يتردد فى أكل الجذور أيضا ولم يكن يخشى من التسمم؛ لأنه كان يعرف الفرق بين الجذور الضارة والجذور التى لا ضرر منها، وكان متمرسا فى التفرقة بين النباتات الضارة والمفيدة.

تراجع مسافة ميل أو أكثر قليلا من الطريق الذى يمر عبر المزرعة، ثم استدار للمضى فى الطريق الثانوى المؤدى إلى (موردين آرسيفالى) وكان عليه أن يتوخى الحذر، سمع مرات كثيرة صوت هدير أحد المحركات فاضطر للاختباء، وذات مرة بينما كان يسير على نحو متسكع بجوار ضفة النهر شاهد عربة كارو يجرها حمار

ويقودها رجل عجوز ومعه شخص آخر كانت تجلس إلى جواره امرأة أو طفل فتساءل: هل شاهدنى أحد منهم؟

خاف من التحرك فى أى اتجاه وبقى ساكنا فى مكانه حتى لا يلفت الانتباه وظل فى حالة من التجمد راح خلالها يراقب العربة الكارو وهى تتهادى عبر الطريق.

كانت مضخة المياه متوقفة، وبالتالى كان الخزان فارغا ولم يكن بمقدوره أن يقوم بتشغيل المضخة إلا على ضوء القمر أو بمزيد من القلق وقت المساء للحصول على المياه والذهاب بها إلى حقله الصغير.

حدث ذات مرة وربما مرتين أن شاهد آثار حوافر بعض الأرانب والظباء فوق التربة المبللة، لكنه لم يفكر فى ذلك، ثم استيقظ ذات ليلة على إثر أصوات بعض الحيوانات ذات الحوافر، زحف خارجا من بيته وقد شم رائحة تلك الحيوانات قبل أن يشاهدها، كانت هى الخراف التى دائما ما تهرب كلما جفت مياه الخزان، ركض وراءها وهو يصيح بالشتائم واللعنات ويلقى بالحجارة، وعلى الرغم من أن النعاس كان مسيطرا عليه فإن رغبته فى إنقاذ البستان كانت أقوى من رغبته فى مواصلة نومه، وظل طوال الليل فى حراسة قطعة الأرض، ومع أول شعاع من ضوء النهار ظهرت الخراف وظلت دون حراك انتظارا لرحيله، غير أنه لم يتوقف عن الحراسة طيلة اليوم وكان يجرى خلفهم من وقت لآخر قاذفا إياهم بالطوب.

كانت تلك الخراف المتوحشة تهدد محصوله فكان يستريح بالنهار ويظل يقظا طوال الليل لحماية أرضه والقيام بزراعتها، استطاع فى البداية أن يعمل فى الليالى القمرية علي ضوء القمر، وفى الليالى التى يختفى فيها القمر كان الظلام كثيفا فكان يقف راسخا فى مكانه ويمد ذراعيه، وكان الخوف ينتابه من الأشكال الغامضة التى كانت تتراءى له أو التى كان يتخيلها، لكنه ومع مرور الوقت بدأ فى اكتساب الثقة التى يتمتع بها العميان، كان يتحسس الطريق بين بيته والمزرعة حتى يصل إلى المضخة ويقوم بتشغيلها ثم يملأ علبته الصفيح ويحمل المياه إلى كل الأماكن التى زرعها، فقد بعد ذلك بالتدريج خوفه من الظلام لكنه فى الحقيقة وحين كان يمشى بالنهار أحيانا، ويمعن النظر كان يرتجف ويخشى من حدة الضوء فيسارع بالانسحاب والعودة إلى سريره وكانت جفونه فى تلك الأثناء تتلألأ بوميض غريب مشرق.

مضى شهر كامل منذ غادر المعسكر فى (جاكالسدريف) وأوشك الصيف على الانتهاء، ولم يعد يبحث عن حفيد الـ (فيساجى)، كما حاول أن يتوقف عن التفكير فيه، لكنه أحيانا كان يفكر ويتساءل عما إذا كان الحفيد مختبئا داخل حفرة ما فى الواحة أو فى مكان ما بالمزرعة؛ حيث يأكل السحالى ويشرب من قطرات الندى ويعيش ويمارس حياته حتى يتوقف الجيش عن البحث عنه، قال لنفسه: يبدو ذلك أمرا بعيد الاحتمال.

كان يتجنب الذهاب لبيت المزرعة باعتباره مكانا للموتى إلا فى حالات الضرورة كاحتياجه للمواد التى يصنع منها النار ولحسن حظه فقد وجد تليسكوبا بلاستيكيا أحمر داخل حقيبة الألعاب والدمى المكسورة، ثم عثر على قطعة من جلد الظبى داخل الكوخ قام على الفور بتقطيعها إلى شرائح وصنع منها نبلة بدلا من التى فقدها.

أخذ على عاتقه القيام بعمل أشياء أخرى لجعل حياته أكثر سهولة، شبكة وإناء للطهى ومقعد قابل للطى وشرائح من المطاط وكثير من أكياس الغذاء، ثم فتش فى أركان الكوخ عن أى شىء يستطيع الاستفادة منه؛ لكنه كان حذرا من انتقال نفايات وبقايا قاذورات الـ (فيساجى) إلى بيته خوفا وقال لنفسه: كان الـ (فيساجى) قوم ذوى حظ سيئ وأخشى أن تجلب لى أشياؤهم ذلك الحظ السيىء نفسه، إن أسوأ الأخطاء هى محاولة المرء أن يجد لنفسه بيتا خارج الخزان حتى لو كانت مكونات البيت من الخشب والجلد أو أى مواد أخرى؛ لأن الحشرات ستلتهم كل شىء حين يصبح فى يوم ما فى غير حاجة لمثل تلك المكونات.

وقف مستندا إلى مضخة المياه وشعر بهزاتها القوية كلما وصل المكبس إلى القاع واخترقت رأسه أصوات السير الكبير وهو يلف حول رولمان البلى الملطخ بالشحم، وقال: كم أنا محظوظ؛ لأننى لا

أعول أطفالا وكم أنا محظوظ لأننى لا أرغب فى أن أكون أبا، لا أعرف ما الذى كان بوسعى عمله فى معترك تلك الحياة وفى هذا البلد لو أن لى طفلا سيحتاج بالتأكيد للملابس واللبن والأصدقاء والتعليم، لا بد أننى كنت سأفشل فى واجباتى وسأصبح أسوأ أب فى حين أنه من اليسير أن تحيا فقط من أجل قضاء الوقت.

فكر فى المعسكر وفى أولياء الأمور الذين يقومون بتربية أطفالهم خلف الأسلاك الشائكة، بالإضافة إلى أطفال أبناء عمومتهم وأقربائهم فوق أرض جدباء تكاد تحترق من الشمس وتخلو من كل الثمار وقال: لقد أحضرت رماد أمى معى وقمت برشه هنا حيث كانت تريد وهكذا فإنه لشىء جميل ألا يكون لدى شىء يجبرنى على المضى قدما أو حتى محاولة اجتياز هذا الشىء، ينبغى أن أمضى وقتى هنا خارج الزمن.

طوال شهر كامل منذ عودته لم يشاهد أحدا وكانت آثار أقدامة وآثار أقدام القطة فوق الرمال هى الآثار الوحيدة فوق أرض المزرعة، كانت القطة تأتى وترحل كيفما تريد، ولم يكن «ك» يعرف كيف كانت تأتى وكيف كانت ترحل، وبينما كان يمر بالبيت ذات يوم أثناء جولة الفجر شاهد الباب الأمامى مواريا فأصابته صاعقة خاصة وأن ذلك الباب مغلق على الدوام، تحرك خطوات قليلة من أمام الباب المفتوح، فشعر فجأة أنه عار وعندئذ مشى على أطراف أصابعه وتراجع ناحية النهر، ثم عاد متسللا إلى مأواه.

لم يقترب من المزرعة لمدة أسبوع، لكنه كان يزحف إليها فى الظلام ببطء شديد لرعاية قطعة أرضه المزروعة، وكان يخشى أن تتسبب خطواته البطيئة فى ارتطام الحصى بعضها بالبعض فتحدث صوتا عبر الواحة، كانت أوراق قرع العسل الصغيرة لم تزل صغيرة ولم تعلن بعد عن وجودها بجوار الخزان فأمسك بأوراق الحشيش الخضراء ونثرها بعناية فوق الكروم، لم يستطع النوم، لكنه رقد فوق سريره المصنوع من العشب تحت حرارة السقف وراح ينتبه لأى صوت قادم للبحث عنه أو اكتشافه.

مع مرور الوقت أصبحت مخاوفه غير مبررة وأدرك بالتجرية أنه منعزل عن المجتمع الإنسانى، لكنه كان جبانا أكثر من الفأر مما جعله يشعر بالخطر الدائم، ومما جعله يفكر فى أن الباب المفتوح يعنى عودة الـ (فيساجى) أو وصول الشرطة للقبض عليه وإيداعه معسكر (براندفلى) سيئ السمعة فى ذلك البلد الشاسع الكبير حيث مئات الآلاف من الناس الفارين من الحرب، لماذا يقلق إذن ما دام بعض اللاجئين وغيرهم يختبئون فى المزارع الخالية داخل قطاعات مهجورة من البلد؟

فكر بعد ذلك وقال: ماذا لو جاء نوع آخر من الناس كالجنود الهاربين من الجندية أو رجال الشرطة الذين تركوا الخدمة، وراحوا يطلقون الرصاص على الخراف والماشية، كما يحلو لهم أحيانا حين يرغبون فى ممارسة الرياضة، لا بد أنهم سيضحكون من طريقتى

فى محاولة التخفى ومن أساليبى وحيلى المثيرة للشفقة لخداعهم ومن أوراق قرع العسل المختبئة وسط الأعشاب وسيتهكمون من ملجأى المغطى بالطين، ثم سيضربوننى فوق ظهرى ويقودوننى للعمل فى قطع الأخشاب والعمل على توفير المياه لهم وتعقب الماشية والخراف حتى تصبح فى مواجهة بنادقهم؛ لينعموا بتناول شرائح اللحم المشوية، بينما أكون أنا راقدا خلف الشجيرات من شدة التعب أقتات بما تبقى منهم من الطعام، أليس من الأفضل إذن أن أختبئ بالليل والنهار وأن أحتمى بتلك الحفرة بدلا من أن أصبح مجرد مخلوق يعمل فى خدمتهم؟ إن فكرة تحويلى إلى العمل خادما لديهم هى أول الأفكار التى يمكن أن تدور فى رءوسهم كما أنهم فى حال رؤية رجل متوحش من أمثالى وهو يعبر طريقه فى اتجاههم فإنهم لن يترددوا فى إطلاق النار على الشارة النحاسية التى تزين غطاء رأسه.

مضت الأيام يوما تلو الآخر دون أن يحدث شىء، كانت الشمس تشرق كل صباح والطيور تحلق وتتنقل من شجرة صغيرة إلى أخرى، وكان صدى الصمت يتردد من أفق إلى أفق فتراجعت ثقة «ك» وراح يقضى يومه كاملا وهو راقد لا يفعل شيئا سوى النظر إلى المزرعة، بينما كان قوس الشمس يتحرك من الشمال إلى اليمين فتتحرك الظلال بالتالى من اليمين إلى الشمال، كان البيت بعيدا بعض

الشىء فلم يستطع أن يتبين إذا ما كان خيط الظلام الدامس الماثل أمامه هو باب البيت أم لا، وذات يوم، ومع بداية الليل وظهور القمر فى السماء اقترب شيئا فشيئا من البستان القاحل، كان البيت مظلما وبدا أنه خال من الناس ولم تكن الأضواء تنبعث من البيت، مشى فى الفناء فوق أطراف أصابعه واكتشف فى النهاية أن الباب مفتوح، واصل السير بالخطوات الحذرة نفسها حتى وقف وسط ظلام المدخل وراح يتصنت لعله يسمع شيئا غير أن الصمت كان مطبقا.

أمضى بقية الليل نائما داخل جوال فى الكوخ رغم عدم اعتياده النوم بالليل، ثم عاد فى الصباح ودخل البيت، بدت أرضية البيت نظيفة وكأن شخصا ما قام للتو بتنظيفها وبالقرب من موقد النار، كانت رائحة الدخان منتشرة فى أركان البيت، وجد خلف الكوخ ست علب جديدة ولامعة من لحم البقر المملح.

عاد إلى ملجئه، وأمضى بقية النهار مختبئا، وقد ساوره شعور أكيد أن الجنود قادمون إلى المزرعة على أقدامهم إما للقبض على المتمردين المختبئين فى الجبال، أو لتعقب الهاربين، أو لمجرد القيام بعمليات التفتيش وتساءل بينه وبين نفسه: لماذا لا يأتون بالشاحنات أو بسيارات الجيب؟ لماذا يعملون فى سرية وفى الخفاء ولماذا يخبئون شاحناتهم؟ لا بد أن هناك أسبابا عديدة وكثيرا من التفسيرات، لا بد أن هناك آلافا من التفسيرات!

لم يستطع أن يفهم ما يدور فى رءوسهم، لكنه كان يعى جيدا أن مجرد الحظ فقط هو الذى يبقيه بعيدا عن أنظارهم حتى هذه اللحظة.

لم يذهب إلى مضخة المياه فى تلك الليلة على أمل أن تجفف الشمس والرياح قاع الخزان، سحب مزيدا من العشب وملأ به حفنة يده، ثم ألقى به فوق كرمة قرع العسل وراح يلتقط أنفاسه ببطء.

مضى يوم ثم تلاه يوم آخر، وبينما كانت الشمس على وشك الغروب خرج «ك» من ملجئه؛ لكى يفرد عضلات جسده ويمدد أطرافه، فأبصر أشكالا وخيالات تتحرك، ثم مال بجسده نحو الأرض، فشاهد رجلا يمتطى جوادا ويتجه ناحية الخزان، وكان من اليسير مشاهدة فوهة البندقية البارزة فوق كتفه، كما كان رجل آخر يسير على قدميه بجواره، بدأ «ك» فى التسلل كالدودة قاصدا ملجأه وهو يفكر قائلا: فليأت الظلام بسرعة ولتبتلعنى الأرض وتحمينى بداخلها من أولئك الناس.

رفع رأسه من خلف أعلى نقطة فى الرابية القريبة من مدخل مخبأه وألقى نظرته الأخيرة.

لم يكن جوادا هو الذى يمتطيه الرجل بل كان حمارا صغيرا وكانت أقدام الرجل غالبا ما تلمس الأرض وعلى بعد أمتار قليلة من الخلف، كان حمار آخر دون راكب محملا بكيسين كبيرين مربوطين

عند جانبيه، وفى المسافة القليلة بين الحمارين أبصر «ك» ثمانية رجال ثم رجلا تاسعا فى المؤخرة وكانوا جميعا يحملون البنادق وبدا أن بعضهم يحمل حقائب وأكياسا أيضا وكان أحدهم يرتدى بنطالا أزرق وآخر يرتدى بنطالا أصفر وكان بقيتهم يرتدون زيا مموها.

هبط داخل ملجئه بهدوء وتكور بجسده حتى يختفى تماما، فلم يستطع أن يرى شيئا من فتحة الملجأ، لكنه استطاع من خلال الرياح المستمرة أن يسمع خطوات أقدامهم بجوار الخزان كما التقطتْ أذناه صوت السلسلة أثناء قيامهم بتشغيل مضخة المياه وسمع أيضا بعض الهمهمات والكلمات غير الواضحة، تسلَّق أحدهم السلم حتى وصل إلى المنصة المرتفعة عن الأرض ثم نزل.

أظلمت الدنيا وكانت أصوات الحمير هى الشىء الوحيد الذى استطاع من خلاله معرفة مكان تواجدهم، كانوا يشعلون النار فبدأ التل فى الظهور من خلال وميض النار البرتقالى الخافت واستطاع «ك» أن يسمع صوت ضربات الفأس فوق ضفة النهر وحين هبَّت الرياح تحرك سير المضخة مرة واحدة، ثم توقف وعندئذ.سمع «ك» بوضوح شخصا ما يقول: لماذا لا توجد مياه؟

كان الهواء محملا بكلمات أخرى كثيرة تلتها ضحكات مجلجلة، لكنه لم يستطع أن يتبينها جيدا، وبعد ذلك هبَّت الرياح مرة ثانية فدارتْ عجلة المضخة، فسمع «ك» من خلال كفتيه وباطن قدميه

هدير المكبس وبعض الصيحات المعبرة عن السرور وساعدت شدة الرياح فى نقل رائحة اللحم المشوى.

أغلق «ك» عينيه ووضع رأسه بين يديه وبدا واضحا له الآن أن أولئك الذين جاءوا واستقروا بجوار السد ليسوا جنودا، وإنما هم أولئك الذين جاءوا من الجبال، إنهم أولئك الرجال الذين كانوا يفجرون قضبان السكك الحديدية ويزرعون الألغام فى الطرق ويهاجمون المزارع ويفصلون المدن بعضها عن البعض ويستولون على المخازن، إنهم أولئك الذين تم الإعلان فى المذياع عن القضاء على عشرات منهم ونشرت الصحف صورهم وهم غارقون حتى أفواههم فى دمائهم، لم يهتم «ك» بوجودهم ورأى أنهم مثل فريق لكرة القدم يتكون من أحد عشر شابا جاءوا لتوهم من الملعب بعد الانتهاء من مباراة صعبة وها هم يشعرون بالإجهاد والسعادة والجوع.

لم يتوقف قلبه عن الخفقان وعندما رحلوا فى الصباح فكر وقال: كان بمقدورى الخروج من مخبأى والسير خلفهم كما يفعل أى طفل وهو يتتبع فرقة موسيقية، وحين يشعرون بى لا بد أنهم سيتوقفون ويسألوننى عن مطلبى، وعندئذ سأطلب مساعدتهم فى حمل الحقائب، كما سأخبرهم بقدرتى على قطع الأخشاب وإشعال النار فى نهاية اليوم، أو سأخبرهم بضرورة العودة إلى الخزان مرة أخرى على أن أوفر لهم الطعام؛ لأننى سأمتلك عندئذ قرع العسل والكوسة والشمام وسيكون لدى الخوخ والتين والكمثرى، سأقول

لهم: إن كل شىء سيكون متوفرا وألا يقلقوا بشأن الطعام وأننى سأجلس معهم حول النار وأستمع إلى كلماتهم وحكاياتهم، أعتقد أن الحكايات التى سيتناولونها ستكون مختلفة عن تلك التى سمعتها فى المعسكر؛ لأن سكان المعسكر من النساء والأطفال وكبار السن وفاقدى البصر والعجزة والعاطلين والحمقى والمعتوهين لا يعرفون شيئا يقولونه سوى بعض الحكايات عن المعاناة والقسوة والصمود، بينما يملك هؤلاء الناس كثيرا من التجارب والمغامرات وعاشوا فرحة النصر وقسوة الهزيمة واختبروا لحظات الفرار، وبالتالى فإن لديهم الكثير من الحكايات، حكايات عن الحياة يستطيعون قولها لأحفادهم بعد انتهاء الحرب بينما يستمع الأحفاد بأفواه مفتوحة.

فى اللحظة نفسها التى تفحّص فيها زباط حذائه عرف «ك» أنه لن يخرج من مخبئه ولن يسير فى الظلام حتى يصل إلى بقعة الضوء المنبعث من النار حتى لا يعلن عن نفسه وعرف أيضا سبب عدم إقدامه على تلك الخطوة.

إلى جانب ذلك السبب كانت الحقيقة التى لم يشأ البوح بها تتمثل فى تلك الفجوة الأكثر اتساعا من المسافة الفاصلة بينه وبين شعلة النار، كان دائما وكلما حاول تفسير الأمر لنفسه يجد نفسه فى مواجهة تلك الفجوة التى ظلت تلازمه وكانت تخفى وراءها قصة غير مرضية وغير مألوفة.

تذكر طفولته وفصله الدراسى والمدرس أثناء مطاردته للتلاميذ، سألهم المدرس ذات يوم: اثنى عشر رجلا انتهوا من تناول ستة أكياس من البطاطس وكل كيس يحتوى على ستة كيلو جرامات من البطاطس فكم كيلو جراما فى كل الأكياس؟

كتب «ك» أمامه رقم ١٢ ثم عاد وكتب رقم ٦، لقد كان جاهلا بالعمليات الحسابية وقال لنفسه: سأموت إذا لم أعرف النتيجة.

لم ينم طوال ساعات الليل وكان يستمع إلى الخزان وهو يمتلئ ببطء وينظر من حين لآخر من خلال ضوء القمر إلى أرضه المزروعة بقرع العسل؛ خوفا من مهاجمة الحمير لها، لكن النوم غلبه بعد حين وعرف فيما بعد أن شخصا ما قد مشى بخطوات ثقيلة فوق الأعشاب وهو يصفق بيديه ويتعقب الحمير، لم تكن الرياح قد توقفت فترامت إلى أسماعه بعض الأصوات الخافتة ورنين حلقة معدنية وصوت ملعقة وهى تدور فى الفنجان وصوت المياه.

كان يقظا تماما حين فكر وقال: إنها فرصتى الأخيرة الآن.

خرج متسللا من ملجئه إلى الهواء الطلق وزحف على يديه وركبتيه، ثم راح ينظر بإمعان إلى قمة الجبل وتراءى له أحد الرجال خارجا من الخزان، خرج الرجل من مياه الخزان الباردة واستند إلى الجدار وراح يجفف جسده بفوطة بيضاء، وكان أول ضوء من النهار يتخلل جسده العارى.

كان اثنان من الرجال يقودان حمارا وكان أحدهما يمسك باللجام، بينما يقوم الآخر بتثبيت جوالين كبيرين من قماش الكتان وطرد أسطوانى الشكل فوق ظهر الحمار، وكان بقية الناس خلف جدار الخزان، وكان بمقدور «ك» رؤية رءوسهم وهى تتحرك من آن لآخر.

عاد الرجل الذى خرج من الخزان، وكان مستندا إلى الجدار إلى الظهور مرة ثانية، لكنه كان يرتدى ملابسه هذه المرة، انحنى وفتح الصنبور فتدفقت المياه عبر الأخاديد التى حفرها «ك» فى أول يوم جاء فيه وتسربت إلى الحقل.

فكر «ك» وقال بينه وبين نفسه: ذلك خطأ.

أغلق الرجل المضخة ثم بدءوا يتحركون فى طابور طويل غير منظم باتجاه الشرق عبر الواحة قاصدين الجبال، كان أحد الحمير فى مقدمة الطابور وحمار آخر فى المؤخرة، وكانت الشمس ساطعة وتكشف بوضوح عن وجوههم، وظل «ك» يراقبهم من خلف نتوء جبلى حتى اختفوا تماما، ولم يتبق منهم سوى بقع صغيرة مترامية فوق الأعشاب الصفراء ففكر وقال: ما زال الوقت مبكرا للحاق بهم يمكننى اللحاق بهم الآن.

بعد أن ابتعدوا كثيرا فى النهاية نهض من خلف النتوء الجبلى وراح يتجول فى فدان الأرض؛ لرؤية مدى الدمار والخراب الذى خلفه الحماران.

ترك الحماران آثارا وبصمات فى كل مكان ولم يكتفيا بتخريب الأعشاب، لكنهما داسا بأقدامهما فوق كثير من الأماكن، وكانت الحشرات الزاحفة تتلوى فوق الأعشاب، فأصابتها بالتلف كما خرجت البذور من الأماكن المغروسة فيها ولم تعد صالحة للنمو، فقد «ك» نصف محصوله ومن ناحية أخرى لم يترك الغرباء وراءهم أى أثر، لكن بقايا النار التى كانوا يشعلونها تسببت فى نشر الحصى والنفايات، عاد إلى المضخة وأغلق الصنبور.

تسلق جانب التل القابع فوق ملجئه ورقد فوق القمة وراح ينظر إلى الشمس، غير أنه لم ير شيئًا سوى الغرباء أثناء مرورهم عبر التلال.

قال لنفسه: إننى مثل امرأة هجرها أطفالها ولا أفعل شيئا سوى ترتيب البيت وتنظيفه والإنصات إلى السكون.

زحف نحو ملجئه وألقى بجسده فى ملل ثم أغلق عينيه.

استيقظ متأخرا فى الصباح على صوت هدير الطائرة الهيلوكوبتر وهى تحلق فوقه باتجاه النهر، عادت الطائرة للتحليق من فوقه مرة أخرى بعد خمس عشرة دقيقة ولكن بسرعة أكبر ناحية الشمال، فكر «ك» وقال: سيشاهدون الأرض وقد غرقت بالمياه وسوف يلاحظون اخضرار الأعشاب وازدهار قرع العسل، إن أوراق الأشجار تلوح لهم كالأعلام، وهم يستطيعون رؤية كل شىء من

الجـو، كل شىء لا يـختـبئ بـطـبـيـعـتـه تحت الأرض، يـجب أن أزرع البصل.

فكر مرة ثانية وأضاف: ما زلت أمتلك الوقت الكافى للهرب نحو الجبال حتى لو أننى لم أفعل شيئا سوى الاختباء فى أحد الكهوف.

كانت حالـة من الخـمـول والكسل والـفـتـور تسيطـر عـليه فعاد لمواصلة نومه وهو يقول: لن أهرب إلى الجبال فما الذى سيحدث إذا جاءوا وليكن ما يكون.

ظل «ك» لمدة أسبوع كامل فى حالة من الحذر الشديد لم تحدث له من قبل، فلم يخرج من ملجئه قط أثناء ساعات النهار ولم يزود ما زرعه بالماء إلا نادرا مما أدى إلى ذبول الأوراق، فراح يقتلع الجزء المزدهر منها ويقول لنفسه وهو ينظر إلى ما تبقى: إذا تحولت كل البراعم إلى ثمرات فلن أحصل إلا على أربعين من قرع العسل، وإذا جاءوا بحميرهم وساروا بها فوق هذه الأرض فلن أحصل على أى شىء، وعندئذ لن يكون جنى المحصول ضمن أحلامى ولكننى سأحلم فقط ببقاء البذور كما هى.

أضاف مواسيا نفسه: أتمنى ألا تموت البذور حتى لا أنتظر عاما آخر وصيفا آخر؛ كى أحاول من جديد.

كانت نهاية الصيف، وبعد أيام من الحر الشديد والسحب المتراكمة اجتاحت الوادى عواصف رملية وتساقطت الأمطار، خرج

«ك» من ملجئه، ثم زحف على ركبتيه حتى استند إلى جدار الخزان المبلل بعيدا عن الرياح، وشعر عندئذ كأنه قوقعة دون صدفة أو قشرة تحميها، وبعد ساعة توقفت الأمطار، وبدأت الطيور تغرد ولاح قوس قزح فى الأفق من ناحية الغرب، سحب «ك» حصيرة مبللة من العشب إلى خارج الملجأ وجلس فى انتظار توقف التيار، لكنه نهض بعد فترة وصنع من الوحل كمية من الطين؛ لسد فتحات السقف والجدران فى ملجئه.

لم ترجع الحمير ولا الرجال ولم تعد الطائرة الهيلوكوبتر تحلق فى الفضاء، فازدهر قرع العسل، واستطاع «ك» أن يتسلل خارج الملجأ فى الليل ويتفحص القشور الناعمة للمحصول التى كان يزداد نموها كل ليلة، ومع مرور الوقت عاوده الشعور بالأمل وبدا له أن كل شىء فى طريقه للأفضل، كان يستيقظ أثناء النهار؛ ليلقى نظرة على قطعة الأرض التى زرعها وكان وميض قشور النباتات المزدهرة يتلألأ أمام عينيه تحت الأعشاب.

تذكر أنه نثر بذور الشمام بين بقية البذور وها هو يرى اثنين من الشمام الأخضر الشاحب ينموان عند الطرف البعيد من الحقل، شعر بحب تجاههما وكأنهما أختان له، وكانت فرحته بهما أكثر من فرحته بقرع العسل الذى يعتبره مجموعة من الأخوة الذكور، وضع حشوات من العشب تحت الشمامتين لحفظ التوازن.

فى المساء كانت نبتة قرع العسل الأولى كاملة النضج وآن أوان قطافها، لقد نضجت مبكرا وبطريقة أسرع من مثيلاتها فى منتصف الحقل تماما، انتزعها «ك» واعتبرها المولود الأول وكانت قشرتها ناعمة وطرية حتى إن السكين قطعتها بسهولة رغم أن لونها من الداخل كان لا يزال أخضر اللون، علّق بعضا من قرع العسل المنزوع فى شريط من السلك الشائك الذى صنعه خصيصا لحماية أرضه تحت كومة من الفحم المشتعل، وبعد حلول الظلام كانت الأضواء تتلألأ أكثر فأكثر وشظايا الفحم المحترق ترتفع إلى السماء، حرّك شرائط قرع العسل بسيخين من السلك وفى تلك الأثناء شعر فجأة بامتنان شديد، وكان قلبه يخفق من السعادة، ثم قال لنفسه: إنه بالضبط كما كانوا يصفونه وشبيه تماما بالإحساس الرائع الذى ينتاب المرء حين يتعرض لتدفق المياه الدافئة، لقد اكتمل الأمر الآن ويبقى أن أعيش هنا بهدوء إلى أن أموت وأقتات مما أزرعه بنفسى وبما تجود به الأرض.

رفع أول شريط من قرعة العسل قريبا من فمه، وكان طعمها تحت القشرة الهشة لذيذا، فراح يقضم منها ودموع الفرح تملأ عينيه، وقال: إنها أفضل وأجمل قرعة للعسل أتناولها فى حياتى.

كانت هى المرة الأولى منذ وصوله التى يشعر فيها بالبهجة أثناء تناول الطعام، ولقد خلّفت بقايا القضمة الأخيرة فى فمه إحساسا بالمتعة والبهجة، حرّك الشبكة بعيدا عن الفحم ثم تناول القضمة

الثانية فشعر بسخونة ونعومتها، وقال: يمكننى تناول مثل هذا النوع من قرع العسل كل يوم وطوال حياتى ولن أكون فى حاجة لأى شىء آخر وسيكون الأمر رائعا لو أضفنا قليلا من الملح، فقط قليلا من الملح ومقدارا ضئيلا من الزيدة وبعض السكر ونقطتين من القرفة.

تناول القضمة الثالثة ثم الرابعة والخامسة حتى انتهى من نصفها، فامتلأت بطنه ولم يعد فى حاجة للمزيد، لكنه راح يحلم بنكهات الملح والزيدة والسكر والقرفة كل على حدة.

جلب له ذلك النضج الكامل لقرع العسل قلقا جديدا فقد كان من الممكن قبل ذلك إخفاء الكروم، كما أن قرع العسل نفسه قد خلق مجموعة من الحفر بدا خلالها الحقل فى شكل غريب ولافت للنظر، وكأنك ترى قطيعا من الحملان نائما فوق العشب، حاول «ك» قدر استطاعته إخفاء قرع العسل بالأعشاب غير أنه لم يجرؤ على تغطيته كله بالأعشاب؛ لأن عملية النضج الكامل كانت فى حاجة إلى شمس الصيف، ولم يكن بمقدوره سوى أن يقطفهم بأسرع ما يستطيع قبل أن تذبل الجذوع، وفى أحيان أخرى قبل أن تتلطخ القشرة ببقع خضراء.

مرَّت الأيام ببطء وكانت الليالى باردة مما جعل «ك» يرتدى فى بعض الأحيان معطفه الأسود أثناء عمله فى الحقل، ولم يكن ينام قبل أن يلف قدميه فى أحد الأكياس ويضع يديه بين فخذيه، كان

ينام أكثر من المعتاد ولم يعد يجلس بالخارج بعد الانتهاء من عمله للنظر إلى السماء ومتابعة النجوم أو للإنصات لهمسات السكون فى الليل أو للتجول فى الواحة، كان يتسلل إلى ملجئه ويغرق فى نوم عميق طوال فترات الصباح، وكان يبدأ فى الخروج من الملجأ فى أوقات الظهيرة وهو يعانى من الكسل والتراخى دون أن يتوقف عن أحلام اليقظة، كان يتمدد بجسده، ثم يمضى نحو ضفة النهر لقطع الأخشاب وتوفير الحطب حتى يصيبه التعب.

حفر حفرة صغيرة فى الأرض لا يمكن رؤيتها من مسافة بعيدة ثم أشعل فيها الحطب؛ لتجهيز الطعام، وبعد أن انتهى من تناول طعامه وضع بلاطتين من الطوب فوق الحفرة ورش فوقها التراب؛ كى تظل جذوة النار كامنة حتى الليلة التالية.

لم يكن «ك» يعرف الشهر الحالى لكنه كان يعتقد أنه أبريل، لم يكن يملك نتيجة للأيام أو سجلا للأيام التى يتغير فيها القمر، إنه ليس سجينا أو منبوذا وحياته بجوار الخزان ليست عقوبة مفروضة عليه لا بد أن يقضيها.

أصبح مع الوقت كائنا ليليا حتى أصبحت عيناه لا تحتمل ضوء النهار، ولم يعد فى حاجة لتوخى الحذر أثناء تحركاته حول الخزان، وكان يعرف طريقه باللمس، ولم تكن عيناه تقوم بوظيفتها فى الرؤية لمدة ساعات، وكأنه شخص أعمى، وكان يعتمد أيضا على حاسة

الشم ويعرف نوع الأشجار بمجرد شم أوراقها، كما أن رائحة بعينها كانت تتسلل إلى أنفه كان يعرف من خلالها لحظة سقوط الأمطار.

الأهم من ذلك كله أنه ومع نهاية الصيف أصبح محبا للكسل والبطالة، وكان يستمتع بالجلوس على كعبيه أمام مشتل الأزهار؛ لتمضية الوقت الذى يمضى بطيئا وحين كان يتحتم عليه القيام بعمل ما لم يكن يشعر بالسعادة أو التعاسة وكان كل شىء بالنسبة إليه مساويا لكل شىء، كان يرقد طوال فترة ما بعد الظهر بعينين مفتوحتين وهو يحدق فى تجاعيد السقف الحديدى وفى آثار الصدأ المتراكم بين التجاعيد ولا يجهد نفسه فى التفكير، وبينما كان الصدأ هو الصدأ نفسه إلا أن الوقت كان يمر حتى إنه قال لنفسه ذات مرة: إننى مثل السحلية التى تعيش تحت الحجر.

كان الضابط المسئول يستخدم كلمة طفيلى وبذلك يكون المعسكر فى (جاكالسدريف) عشا للطفيليين الذين كانوا يقتاتون من خيرات المدينة المشرقة النظيفة، وها هو «ك» يرقد الآن بكسل فوق سريره، ويفكر دون حماس، ويتساءل عن المجهول فى الأيام القادمة ولم يعد يعرف من هو المضيف ومن هو الطفيلى، المعسكر أم المدينة؟ وإذا كانت الدودة تلتهم الخروف فلماذا يبتلع الخروف الدودة؟ وماذا لو أن ملايين أو أكثر من الملايين الذين يعيشون فى المعسكرات على الصدقة والإحسان وبعيدا عن المدن ويستخدمون كل أنواع الدهاء والخداع للعيش، ويزحفون نحو الأركان والزوايا ولا يحلمون بشىء

سوى مرور الوقت، ماذا لو زاد عددهم عن عدد المضيفين؟ هل سيطلقون عليهم عندئذ اسم الطفيليين؟

فكر فى أمه حين طلبت منه أن يعيدها إلى المكان الذى ولدت فيه وها هو قد فعل ولكن ماذا لو أن هذه المزرعة ليست هى المكان الذى ولدت فيه؟ وأين الجدارات الصخرية التى تحدثت عنها؟ قام بزيارة نهارية إلى فناء المزرعة والأكواخ عند جانب التل وإلى قطعة الأرض المستطيلة الجرداء المجاورة لهما، وقال لنفسه: إذا كانت أمى قد عاشت هنا فسوف أعرف بالتأكيد.

أغلق عينيه وحاول أن يستعيد فى خياله الجدران المصنوعة من الطوب اللبن وسقف القش الذى كانت تحكى عنه كثيرا وحديقة الكمثرى، وهروب الدجاج من الفتاة ذات القدمين العاريتين التى كانت تقف عند المدخل وكانت الظلال تخفى وجهها، ثم راح يبحث عن المرأة الثانية، المرأة التى أنجبت أمه وقذفت بها إلى هذه الحياة وفكر قائلا: عندما كانت أمى تموت فى المستشفى وحين أدركت أن نهايتها وشيكة لم أكن أنا الذى تنظر إليه، لكنها كانت تنظر إلى شخص ما يقف خلفى ربما كان أمها أو روح أمها، لقد كانت أمى بالنسبة إلىّ مجرد امرأة لكنها كانت ترى نفسها طفلا ينادى على أمه ليمسك يديها ويساعدها، إن أمها التى لم نشاهدها فى الحياة الغامضة كانت طفلا أيضا، لقد جئت ونشأت من سلالة طويلة من الأطفال.

حاول أن يتخيل شكل وهيئة أول الواقفين عند مقدمة تلك السلالة الطويلة، فتراءتْ له امرأة بملابس رمادية دون ملامح لم تولد من رحم أم وإنما جاءت من فراغ، لكنه حين فكر فى ذلك الفراغ الذى كانت تعيش فيه، وفى صمت وسكون ذلك الوقت الغابر قبل بدء الحياة اضطرب عقله وأصابه الارتباك.

عادت الحيوانات لمهاجمة أرضه، الأرانب البرية والظبى الرمادى الصغير ولم يفكر إذا ما كانت قد التهمت أطراف الكروم، لكنه غضب بشدة لذبول الفاكهة ولم يكن يعرف ما يجب عليه فعله إذا فقد قرع العسل المحبب إلى نفسه، أمضى ساعات كثيرة فى محاولة عمل فخ خارج الأسلاك، لكنه لم يستطع فاضطر لنقل سريره إلى منتصف الحقل، لكن ضوء القمر كان حائلا بينه وبين قدرته على النوم، كما أنه كان ينهض على إثر أى حركة حتى لو كانت مجرد حفيف الشجر وكان يفقد الشعور بقدميه من شدة البرد.

قال: ليت الخزان كان محاطا بأحد الأسوار، سور من الأسلاك القوية المعشقة المغروزة على بعد قدم من باطن الأرض حتى لا يستطيع اللصوص الدخول.

كان مذاق الدم لا يفارق فمه وكانت أمعاؤه تؤلمه وكان الدوار يصيبه كلما حاول الوقوف، وفى بعض الأحيان كان يشعر بمعدته وكأنها كفة يد مثبتة فى منتصف جسده، أجبر نفسه على تناول

مزيد من قرع العسل مما خفف من ألم معدته فقط، لكنه لم يصبح فى وضع أفضل، حاول أن يصطاد الطيور، لكنه افتقد مهارة الصيد كما أنه لم يعد صبورا بما يكفى فاكتفى بقتل السحالى وأكلها.

انتشر قرع العسل الناضج فى كل مكان، لكن الكروم ذبلت وتلونت باللون الأصفر، ولم يفكر «ك» فى كيفية تخزين قرع العسل غير أنه حاول تقطيعه على شكل شرائط ووضعه فى الشمس للتجفيف، لكن محاولاته باءت بالفشل؛ حيث تعفن قرع العسل وجذب كثيرا من الحشرات.

قام بوضع ثلاثين من قرع العسل على شكل هرمى أمام ملجئه فبدا الشكل كالمنارة، إن قرع العسل يحتاج للدفء والجفاف فلم تكن فكرة الدفن صائبة، إنها فاكهة لا تستطيع الاستغناء عن الشمس، ففكر أخيرا فى وضع كل واحدة على بعد خمسين خطوة من الأخرى بمحاذاة ضفة النهر، وحتى لا يلفت انتباه أحد وضع فوق قشرة كل واحدة كمية صغيرة من الطين.

كانت صحته لا تزال معتلة، وكان يتملكه الضعف، وحين اكتمل نضج الشمام تناول منه فى الأيام التالية وهو يتوسل إلى الله أن يصبح فى حال أفضل وأن تتحسن صحته، كان لون الشمام من الداخل كلون طمى النهر البرتقالى ولم يحدث أن تذوق فاكهة بمثل تلك الحلاوة فقال لنفسه: إن البذور تنتج كثيرا من الأشياء الحلوة.

جمع بذور الشمام معا وبعد القيام بتنظيفها وضعها فى الشمس؛ كى تجف.

لم يخرج «ك» من ملجئه فى اليوم الأول قط وحين استيقظ فى المساء لم يكن يشعر بالجوع وكان الهواء محملا بالرياح الباردة ولم يكن ثمة شىء يثير انتباهه، كان قد انتهى من إنجاز ما يساعده على الاستمرار لمدة عام كامل فعاد إلى النوم مرة أخرى وعند الفجر سمع تغريد الطيور.

فقد إحساسه بالزمن، وكان يتجول أحيانا بمعطفه الأسود، بعد أن مضت فترات طويلة قضاها فى غيبوبة وحالة من الخدر لم يستطع خلالها التخلص من كثرة النوم والإحساس بجسده الثقيل وحالة الكسل المسيطرة عليه حتى إنه كان يقول لنفسه: لقد نسيت أن أتنفس وها أنذا أرقد الآن دون تنفس.

كان نائما ذات يوم تحت السماء وحلم برجل عجوز يرتدى ملابس قذرة وممزقة وتنبعث منه رائحة التبغ، انحنى الرجل فوق «ك» وجذبه من كتفه، ثم قال: يجب أن ترحل من هذه الأرض.

حاول «ك» إبعاده لكن قبضة الرجل كانت قوية فوق كتفه فأضاف الرجل هامسا: سوف تعانى هنا من المشاكل.

حلم أيضا أنه كان يسير مع أمه عند الجبال وعلى الرغم من أن خطواتها كانت ثقيلة فإنها كانت شابة وجميلة، وكان يشير بيده من

أفق إلى آخر وقد انتابته حالة غريبة من السعادة والحماس، ولم تكن هناك شوارع أو منازل فى أى مكان كما كان الهواء ساكنا، ساوره إحساس بالخطر من فقدان الطريق؛ لئلا يجد نفسه ومعه أمه فوق حافة صخرة كبيرة بين السماء والأرض، لكنه كان يعرف قدرته على العوم فلم يشعر بالخوف.

هل استغرق فى النوم يوما أم أسبوعا أم شهرا؟ هكذا كان يتساءل أحيانا أثناء يقظته، وحدث ذات مرة أن فقد الإحساس بنفسه تماما، وكان يقول لنفسه: يجب أن تأكل وتجاهد من أجل النهوض والبحث عن قرع العسل.

لكنه كان يعود للنوم مرة أخرى ولا ينهض، كان يمدد قدميه ويتثاءب بفرح ولا يتمنى شيئا سوى الرقاد، فقد شهيته وكان يضع الطعام داخل حنجرته بالقوة، لكنه بدأ بعد ذلك فى تنظيم نومه ولم يعد ينام كثيرا وأصبحت فترات اليقظة أكثر مما كانت عليه وبدأت تداعب خياله صور كثيرة ومتعددة بشكل سريع ومنفصل لم يستطع التوقف عندها أو تأملها، بدأ أيضا يشعر بالصداع وكان يصر أسنانه وينتابه الذعر مع كل نبضة دم فى رأسه.

هبَّت عاصفة رعدية شعر بها «ك» بالكاد ثم انفجرت من فوق رأسه مباشرة قصفات الرعد وبدأت الأمطار فى التساقط فتسربت المياه إلى أطراف ملجئه وغمرت الوادى حتى أغرقت الملجأ، نهض

وهو يحنى رأسه وكتفيه تحت ألواح السقف، ولم يكن ثمة مكان أفضل من الملجأ يمكن الذهاب إليه، انزوى فى أحد الأركان وسط المياه المندفعة بمعطفه المبلل المشدود حول جسده ونام قليلا، ثم استيقظ.

لاح من خلال ضوء النهار وهو يرتعش من البرد، وكانت السماء ملبدة بالغيوم، ولم يتمكن من إشعال النار، فقال: إن المرء لا يستطيع العيش هكذا.

بدأ السير فى الحقل والتجوال بالقرب من الخزان ومضخة المياه فأدرك أن كل شىء كما هو، لكنه شعر بأنه غريب وأنه مجرد خيال، كانت المياه تغمر الأرض للمرة الأولى، وكانت كميات كبيرة من الفطر الأبيض تملأ الأرض تراءت له من بعيد وكأنها حبات من قرع العسل.

كان جسده ما زال يرتعش من البرد، وكانت أطرافه عاجزة عن الحركة وبدا كرجل عجوز وهو ينقل قدميه من مكان لآخر، وحين لم يستطع مواصلة السير جلس فوق الأرض المبللة، كانت تنتظره كثير من المهام فقال: لقد استيقظت مبكرا جدا ولم أنعم بقسط وافر من النوم.

كان لا بد له من تناول أى نوع من الطعام للتخلص من حالة الدوار التى أصابته، غير أنه لم يكن راغبا فى الأكل فأجبر نفسه

على احتساء كوب ساخن من الشاى بالسكر، وكانت يداه وركبتاه غارقتين فى بركة صغيرة من الطين.

كان لا يزال جالسا حين اكتشفوه، سمع أصوات المركبات من بعيد، وعندما وصلوا إلى البوابة فى مؤخرة المزرعة شاهدهم وأدرك هويتهم، نهض لكنه شعر بمزيد من الدوار فجلس مرة أخرى. وحينئذ توقفت إحدى المركبات أمامه، بينما ارتطمت السيارة الجيب بالمرج العشبى ووقفت بالقرب منه، وكان بداخلها أربعة رجال ظل ينظر إليهم بيأس وهم يتحلقون حوله.

كانوا معتقدين فى البداية أنه مجرد متشرد وليس سوى شخص مفقود من أولئك الذين يقبض عليهم رجال الشرطة من آن لآخر.

قال لهم: أنا أعيش فى الواحة وليس لى مكان محدد.

وضع رأسه بين ركبتيه وسمع دوى طرقات قوية فى رأسه كما شعر بمرارة فى فمه، رفع أحد الجنود ذراع «ك» ثم تركه يتدلى، بينما ظل «ك» فى مكانه دون أن يتحرك وبدا له ذراعه وكأنه شىء غريب عن جسده أو مجرد عصا نائتة من جسده.

تساءل الجندى قائلا: كيف يعيش هذا الرجل وعلى أى شىء يقتات؟ الذباب، أم الحشرات، أم الجراد؟

لم يكن «ك» يرى شيئا سوى أحذيتهم فأغلق عينيه وما هى إلا لحظة قصيرة جدا حتى أصبح غائبا تماما وكأنه غير موجود،

ضربه أحدهم فوق كتفه ودفع ناحيته بساندويتش عبارة عن شريحتين كبيرتين من الخبز الأبيض وبينهما قطعة من اللحم، تراجع «ك» للوراء وهز رأسه، فقال فاعل الخير: فلتأكل يا رجل لتصبح قادرا على الوقوف.

تناول الساندويتش وقبض عليه بأسنانه وقبل أن يتمكن من المضغ راح يتقيأ، لكنه لم يقذف شيئا من فمه؛ لأن معدته كانت خاوية، وضع رأسه بين ركبتيه مرة أخرى وبصق قضمة الخبز واللحم التى تناولها ثم أعاد الساندويتش للرجل.

قال أحدهم: إنه مريض.

وقال آخر: إنه مخمور.

عثروا على ملجئه بعد ذلك وكان الطوب الذى صنع منه الجدار الأمامى مفتتا بعض الشىء من أثر الأمطار الأخيرة، وفى البداية لم يستطيعوا الدخول إلا عن طريق الزحف على أياديهم، ثم قاموا برفع السقف، فكشفوا عن الداخل، وشاهدوا الفأس والمجرفة والسكين والملعقة والطبق والفنجان فوق الرف المصنوع من الحصى وكذلك النظارة المكبرة وبعض الأعشاب المبللة.

وضعوه فى مواجهة ملجئه الذى صنعه بيده وأمسكوا به ليقف وقد تخلوا عن أدبهم وعطفهم، تدفقت الدموع فوق وجهه فسألوه: هل قمت بعمل هذا الملجأ؟

أومأ «ك» برأسه، فقالوا له: هل تعيش هنا بمفردك؟

أومأ برأسه مرة ثانية فأمسك به الجندى ووضع ذراعه بقوة فوق ظهره، تألم «ك» فقال له الجندى: الحقيقة، نحن نريد الحقيقة.

أجاب «ك»: إنها الحقيقة.

وصلت الشاحنة أيضا وكان الهواء محملا بالأصوات العالية والخشنة والصيحات والزعيق والنبرات المهتاجة، وكان الجنود محتشدين لرؤية «ك» والملجأ الذى شيده بنفسه.

صاح أحدهم قائلا: انتشروا، أريدكم أن تبحثوا فى كل مكان بالمنطقة، نحن نتطلع إلى الممرات والأنفاق والجحور، إننا نفتش عن أى موقع للتخزين.

توقف عن الصياح وكان يرتدى زيا مموها كبقية زملائه، لكنه لم يكن يعلق شارة أو علامة يستطيع «ك» من خلالها معرفة هويته، كانت عيناه تتحرك فى كل اتجاه بلا توقف وبدا أنه لا يتحدث إلى شخص بعينه حين أضاف قائلا: أنت ترى نوعية أولئك الناس، وتعتقد بعدم وجود شىء مع أن الأنفاق البالية موجودة طوال الوقت تحت قدميك، انظر حول مكان كهذا وسوف تقسم بعدم وجود أحياء لكنك إذا ما استدرت فى اللحظة نفسها فستراهم خارجين من باطن الأرض، اسأله عن المدة التى أمضاها هنا.

نظر إلى «ك» ورفع صوته مستطردا: أنت، منذ متى وأنت تعيش هنا؟

قال «ك» دون أن يعرف إذا ما كان يكذب كذبة جيدة وفى صالحه أم كذبة سيئة وفى غير صالحه: منذ العام الماضى.

قال الجندى: وإذن فمتى سيأتى أصدقاؤك وزملاؤك، متى سيعودون مرة ثانية؟

هزَّ « ك» كتفيه فقال الضابط للجندى وهو يبتعد قليلا: اسأله مرة أخرى، لا تتوقف عن سؤاله، لا بد أن تعرف موعد عودتهم واسأله عن آخر مرة كانوا فيها هنا وتأكد أولا أنه ليس أبكم ويستطيع الكلام وهل هو أحمق وأبله كما يبدو أم لا؟

أمسك الجندى بمؤخرة عنق «ك» بين سبابته وإبهامه وأجبره على السير حتى ركع على ركبتيه وأصبح وجهه ملامسا للأرض، ثم قال: أسمعت ما قاله الضابط؟ أخبرنى إذن، أخبرنى عن حكايتك.

خلع قبعته وضغط بقوة على وجه «ك» فتمددت أنفه وشفتاه فى الأرض، واستطاع عندئذ أن يتذوق التربة المبللة وراح يتنهد، رفعوه من الأرض وساعدوه على النهوض، لكنه لم يستطع أن يفتح عينيه، فسأله الجندى مرة أخرى: أخبرنا عن أصدقائك، أين هم ومتى سيعودون؟

هزَّ « ك» رأسه فضربه الجندى ضربة قوية فى بطنه أصابته بالإغماء.

ظلوا طوال فترة المساء يبحثون عن مخازن الطعام والأسلحة التى كانوا يعتقدون أنها مخبأة فى هذا المكان، فبدءوا أولا بتمشيط

المنطقة المحيطة بالخزان ثم واصلوا بحثهم عند النهر، عثروا على جهاز وسماعات للأذن وصندوق أسود، وكان «ك» يراقب أحدهم وهو يتحرك ببطء عبر حافة ضفة النهر وفوق الرمال ويقلب الأرض بسلاحه؛ حيث اكتشف كثيرا من قرع العسل، واصل الرجل الشاب حمل قرع العسل حتى استطاع أن يصنع منه كومة كبيرة بالقرب من حافة الحقل.

بعد رؤية تلك الكمية من قرع العسل ازداد يقينهم بوجود مستودعات مخبأة للمؤن والذخيرة حتى إن أحدهم قال: وإلا فلماذا يتركون هذا الحيوان هنا؟

سمعه «ك» بسهولة ولاذ بالصمت.

كانوا يأملون فى سماع إجابات قاطعة منه، لكنه كان يعانى من ضعف شديد وواضح، فقدموا له كوبا من الشاى لاستجوابه مرة أخرى، شرب الشاى، ثم قالوا له بطريقة لائقة: أنت مريض، انظر إلى نفسك، ألا ترى الكيفية التى يعاملك بها أصدقاؤك؟ إنهم لا يبالون بما يحدث لك، أتريد الذهاب إلى بيتك؟ سنساعدك فى العودة إلى بلدك وسنمنحك الفرصة لبداية حياة جديدة.

ساعدوه فى الجلوس بجوار السيارة الجيب، خلع أحدهم القبعة وألقى بها فوق ركبتيه، ثم قدموا له شريحة من الخبز الأبيض الطرى، فسارع بالتهام قطعة كبيرة تبعها برشفة من الشاى، وعندئذ

قال شخص آخر: اتركوه وشأنه حتى ينتهى من تناول شريحة الخبز.

مسح «ك» فمه بطرف أكمامه، وكانوا يتحلقون حوله على شكل دائرة، فانتابه إحساس بأنهم لا يعرفون ما يريدون ولا يدركون ما يجب عليهم القيام به.

قال «ك»: أنا لست كما تعتقدون، لقد كنت نائما وجئتم لإيقاظى، هذا كل ما فى الأمر.

بدا من ملامحهم أنهم لم يفهموا شيئا.

قاموا بتوزيع أنفسهم داخل بيت المزرعة وفى المطبخ أشعلوا الموقد الخاص بهم، وسرعان ما تسللت إلى أنف «ك» رائحة الصلصة، علّق شخص ما المذياع فى الخطاف، وكان الجو مثيرا للقلق فأصابه التوتر.

قادوه إلى حجرة النوم عند نهاية الممر ووضعوه فوق قطعة من القماش المشمع وفوقها بطانية، قدموا له كوبا من اللبن الدافئ وقرصين من الدواء قالوا: إنه أسبرين وفى وقت لاحق وبعد أن حل الظلام أحضر له أحد الصبية طبقا من الطعام، شاهد «ك» قطعتين من السجق وسط كمية كبيرة من الصلصة وكمية من البطاطا المهروسة فهزّ رأسه واستدار ناحية الحائط لكن الصبى ترك الطبق بجانبه وقال: ربما تغير رأيك.

لم يضايقه أحد بعد ذلك، ولم يستطع أن ينعم بقسط وافر من النوم؛ بسبب رائحة الطعام المجاور له، فنهض فى النهاية ووضع الطبق فى ركن الحجرة بعيدا عنه، سمع كلاما وبعض الضحكات من حوله رغم الظلام المحيط به.

فى الصباح التالى وصلت الشرطة قادمة من مقاطعة الأمير ألبرت بصحبة بعض الكلاب للبحث عن الأنفاق والمؤن المخبأة، وفى الحال استطاع الكابتن «أوسيزون» التعرف على «ك» حيث قال: كيف لى أن أنسى وجهها كهذا؟ لقد هرب هذا المهرج من معسكر (جاكالسدريف) فى ديسمبر الماضى واسمه «مايكل».

ضرب «ك» بحذائه فى ضلوعه وأضاف: إنه ليس مريضا لكنه دائما يبدو كذلك.

استطرد موجهها حديثه إلى «ك»: هاى مايكل.

عادوا به إلى الخزان حيث شاهد الكلاب وهى تتجول عبر ضفة النهر وحول قطعة الأرض التى زرعها، كانوا يجرون الكلاب بسلسلة وكانت الكلاب تنبح بقوة، ولم يستطيعوا فى النهاية التوصل إلى أى شىء سوى بعض الجحور الصغيرة التى تختفى بداخلها القنافذ والأرانب الوحشية.

صفع الكابتن «أوسيزون» «ك» على جانب رأسه وقال: ما هذا أيها الحمار؟ هل تمزح معنا؟

عادت الكلاب إلى الشاحنة وأصابهم اليأس وفقدوا رغبتهم فى البحث، ثم وقف الجنود الصغار فى الشمس وراحوا يتبادلون الأحاديث ويشربون القهوة.

جلس «ك» كعادته واضعا رأسه بين ركبتيه وعلى الرغم من أنه كان فى حالة من الصفاء فإنه لم يستطع التخلص من الدوخة التى أصابته، كانت تتدلى من فمه خيوط من اللعاب ولم يكن قادرا على التحكم فيه أو إيقافه، قال لنفسه: سوف تغسل الأمطار كل بذرة فى هذه الأرض وستساعد الشمس فى جفافها والرياح فى تطهيرها قبل عودة الموسم من جديد.

فكر وأضاف: ذلك يربطنى بهذه القطعة من الأرض وكأنها وطنى الذى لا أستطيع مغادرته، هل لا أستطيع الرحيل من هنا حقا؟ ومع ذلك ينبغى علينا جميعا أن نغادر أوطاننا ونغادر أمهاتنا أم أننى مجرد طفل أنتمى لسلالة الأطفال الذين لا يستطيعون المغادرة، وإذا ما رحلوا فى يوم ما فلا بد لهم أن يعودوا للموت فى بيوتهم وهم يضعون رءوسهم بين أحضان أمهاتهم جيلا بعد جيل.

حدث انفجار كبير تبعه فى الحال انفجار آخر فاهتزت الأرض وصاحت الطيور وتصدعت التلال، حدَّق «ك» حواليه بانتباه فقال الجندى وهو يشير إليه: انظر.

لم يضايقه أحد بعد ذلك، ولم يستطع أن ينعم بقسط وافر من النوم؛ بسبب رائحة الطعام المجاور له، فنهض فى النهاية ووضع الطبق فى ركن الحجرة بعيدا عنه، سمع كلاما وبعض الضحكات من حوله رغم الظلام المحيط به.

فى الصباح التالى وصلت الشرطة قادمة من مقاطعة الأمير ألبرت بصحبة بعض الكلاب للبحث عن الأنفاق والمؤن المخبأة، وفى الحال استطاع الكابتن «أوسيزون» التعرف على «ك» حيث قال: كيف لى أن أنسى وجهها كهذا؟ لقد هرب هذا المهرج من معسكر (جاكالسدريف) فى ديسمبر الماضى واسمه «مايكل».

ضرب «ك» بحذائه فى ضلوعه وأضاف: إنه ليس مريضا لكنه دائما يبدو كذلك.

استطرد موجهها حديثه إلى «ك»: هاى مايكل.

عادوا به إلى الخزان حيث شاهد الكلاب وهى تتجول عبر ضفة النهر وحول قطعة الأرض التى زرعها، كانوا يجرون الكلاب بسلسلة وكانت الكلاب تنبح بقوة، ولم يستطيعوا فى النهاية التوصل إلى أى شىء سوى بعض الجحور الصغيرة التى تختفى بداخلها القنافذ والأرانب الوحشية.

صفع الكابتن «أوسيزون» «ك» على جانب رأسه وقال: ما هذا أيها الحمار؟ هل تمزح معنا؟

عادت الكلاب إلى الشاحنة وأصابهم اليأس وفقدوا رغبتهم فى البحث، ثم وقف الجنود الصغار فى الشمس وراحوا يتبادلون الأحاديث ويشربون القهوة.

جلس «ك» كعادته واضعا رأسه بين ركبتيه وعلى الرغم من أنه كان فى حالة من الصفاء فإنه لم يستطع التخلص من الدوخة التى أصابته، كانت تتدلى من فمه خيوط من اللعاب ولم يكن قادرا على التحكم فيه أو إيقافه، قال لنفسه: سوف تغسل الأمطار كل بذرة فى هذه الأرض وستساعد الشمس فى جفافها والرياح فى تطهيرها قبل عودة الموسم من جديد.

فكر وأضاف: ذلك يربطنى بهذه القطعة من الأرض وكأنها وطنى الذى لا أستطيع مغادرته، هل لا أستطيع الرحيل من هنا حقا؟ ومع ذلك ينبغى علينا جميعا أن نغادر أوطاننا ونغادر أمهاتنا أم أننى مجرد طفل أنتمى لسلالة الأطفال الذين لا يستطيعون المغادرة، وإذا ما رحلوا فى يوم ما فلا بد لهم أن يعودوا للموت فى بيوتهم وهم يضعون رءوسهم بين أحضان أمهاتهم جيلا بعد جيل.

حدث انفجار كبير تبعه فى الحال انفجار آخر فاهتزت الأرض وصاحت الطيور وتصدعت التلال، حدَّق «ك» حواليه بانتباه فقال الجندى وهو يشير إليه: انظر.

تحول لون بيت الـ (فيساجى) إلى سحابة من اللون الرمادى والبرتقالى وغطاه التراب، وكأن الزوبعة قد قذفت به بعيدا وحين انقشع الضباب بعد لحظة بدا البيت مدمرا ولم يعد سوى هيكل، كان الجدار الخلفى والمدخنة وثلاثة من الأعمدة التى كانت تستند إليها الشرفة ولوح من ألواح السقف تطير جميعها فى الهواء، ثم وقعت على الأرض وأحدثت صخبا عنيفا، انتهى صدى الأصوات الصاخبة فتساءل «ك»: هل نحن فى الجحيم أم أننى أهذى وأتخيل أشياء لا وجود لها؟

حدث مزيد من الانفجارات بعد لحظة فخيل له أن المبانى الملحقة قد تلاشت، ثم فكر قائلا: لم يعد ثمة مكان للـ (فيساجى) يمكنهم الاختباء فيه.

عادت السيارة الجيب للسير فوق المرج العشبى، وكانوا من حوله يستعدون للرحيل غير أن جنديا واحدا كان يواصل عمله، كان الجندى ينزع عناقيد الأعشاب ويقوم بتجميعها فى صف واحد، نهض «ك» ووقف على قدميه وقد ساوره القلق وقال للجندى وهو يترنح: ماذا تفعل؟

لم يرد الجندى على سؤاله وبدأ فى عمل حفرة صغيرة، ثم وضع مفرشا بلاستيكيا فوق التراب، كانت تلك هى الحفرة الثالثة التى

قام بحفرها، وشاهد «ك» بعض كومات من الرمل الملفوف فى مفارش بلاستيكية بجوار آخرين فسأل مرة ثانية: ماذا تفعل؟

ارتبك «ك» من منظر الجندى الغريب وهو يقلِّب التربة بطريقة عشوائية فقال له: دعنى أفعل ذلك بدلا منك فأنا معتاد على هذا العمل.

أزاحه الجندى جانبا وراح يواصل عمله فى عمل الحفرة الثالثة، ثم سار ثمانى خطوات وفرد مفرشا آخر من البلاستيك، وبينما كان يحفر بالمجرفة فى الأرض جلس «ك» القرفصاء وراح يغطى الأعشاب بيديه وقال: أرجوك يا صديقى.

انتصب الجندى واقفا وهو غاضب بشدة وقام شخص ما بسحب «ك» من قفاه فقال الجندى: دعه يبتعد عن طريقى.

وقف «ك» بجوار المضخة وراح يراقب ما يحدث وعندما حفر خمس حفرات بسط الجندى حبلا طويلا أبيض لتحديد المساحة، ثم أحضر اثنان من زملائه صندوقا من الشاحنة ووضعوا فيه الألغام، وبينما كانوا يضعون كل لغم على حدة فى الصندوق بدأ الجندى الأول فى غرس الحشائش، ثم ملأ كفة يديه بالتراب، وراح يرش فوق الأرض، ويضغط على التراب؛ لتسوية السطح، وراح أخيرا يزيل البصمات بالمكنسة اليدوية، ثم عاد للخلف زاحفا على يديه وركبتيه.

قال شخص ما من خلف «ك»: ابتعد عن الطريق، اذهب وانتظر عند الشاحنة.

كان ذلك الشخص هو الضابط واستطاع «ك» أن يسمع تعليماته وهو يضيف : اربط اثنين فى العامود وضع الآخر تحت الرصيف وعندما تبدءون فى التحرك فإننى أريد أن تأخذوا كل شىء.

قاموا بربط كل شىء ووضعه فوق الشاحنة وكانوا على وشك الرحيل، كان «ك» فوق الشاخنة وسط الجنود عندما أشار شخص ما إلى كومة من قرع العسل كانوا قد تركوها بجانب الحقل، فصاح الضابط من داخل السيارة الجيب قائلا: فلتأتوا بتلك الكومة وتضعوها فى الشاحنة.

نزلوا من الشاحنة ثم صعدوا مرة ثانية محملين بقرع العسل، انطلقت الشاحنة عبر الطريق الملىء بالوحل خلف السيارة الجيب وأمسك «ك» بالشريط المربوط فوق رأسه وشعر بالجنود المجاورين له وهم يحاولون تثبيت أجسادهم؛ خوفا من ملامسته، هبَّت الرياح وامتلأ الجو بالرمال فلم يعد «ك» قادرا على الرؤية.

مال بجسده واقترب من الجندى الشاب حتى أصبح فى مواجهته ثم قال له: هل تعرف أن صبيا يختبئ فى ذلك البيت؟

لم يفهم الجندى فاضطر «ك» أن يعيد السؤال فقال أحدهم: ماذا يقول؟

أجابه الجندى الشاب: إنه يقول: إن صبيا يختبئ فى البيت.

● أخبره أنه ميت الآن قل له: إنه فى الجنة.

وصلوا بعد لحظات إلى طريق جانبى وبدأت الشاحنة فى الانطلاق بسرعة أكبر، وكان الجنود فى حالة من الاسترخاء حين لاح فى الأفق الطريق الطويل المستقيم المؤدى إلى مقاطعة الأمير ألبرت.

الفصل الثانى

جاء من السجن مريض جديد ودخل عنبر المستشفى، كان رجلا عجوزا وهزيلا، قالوا: إن صحته تدهورت أثناء التدريبات البدنية، أحضروه إلى العنبر وكان يعانى من صعوبة التنفس ومن ضربات قوية فى القلب، وكانت علامات سوء التغذية بادية بوضوح تام على جسده، كما كانت الشقوق تغطى بشرته والقروح تنتشر بكثرة فوق يديه وقدميه، وكانت لثته تنزف ومفاصله بارزة ولم يكن وزنه يزيد قط عن أربعين كيلو جراما. وقالوا: إنهم جاءوا به من أحد الأماكن فى (كارو) حيث كان يدير مركزا يضم مجموعة من الجنود المختصين بالعمليات القتالية.

سألت الحراس الذين أحضروه: لماذا تركوا شخصا بمثل حالته يمارس التدريبات البدنية؟

قالوا: لقد جاء مع مرضى جدد عن طريق الخطأ ولما كانت عمليات التجهيز والعلاج تأخذ وقتا طويلا، فلقد أراد الجراح

المناوب أن يشغلهم بعمل أى شىء، حتى لا يشعروا بملل الانتظار وهكذا طلب منهم الجرى فى المكان والقيام ببعض التمارين الرياضية.

قلت متسائلا: ألم يستطع أن يلاحظ عجز هذا الرجل؟

أجابوا: إنه لم يكن يشكو من أى شىء واعترف أنه لا يعانى من شىء وأنه على ما يرام، إن جسده نحيل وهكذا هو دائما.

قلت لهم: ألا تعرفون الفرق بين رجل نحيل وبين الهيكل العظمى؟

هزوا أكتافهم ثم راحوا يتعاملون معه كمريض يدعى «مايكلز»، لكنه أصر أنه لا يعانى من أى شىء وإنما يريد فقط شيئا للصداع، وقال أيضا: إنه ليس جائعا رغم أنه فى الحقيقة لم يكن قادرا على الوقوف.

أخبرهم أنه فى الثانية والثلاثين من عمره رغم أن ما يبدو عليه ينبئ أنه رجل عجوز، ربما كان كذلك بالفعل، لقد جاء من (كيب) ويعرف حلقة سباق الخيل منذ نشأتها.

قال: كان بمقدورى أن أصبح فارسا فى حلقة السباق أيضا.

وأضاف: لقد عملت بستانيا وحين طردونى مضيت للبحث عن عمل آخر فى الريف واصطحبت أمى معى.

سألته: وأين أمك الآن؟

هزَّ رأسه وأجاب: لقد أشعلوا فيها النار وكان شعرها يحترق حول رأسها.

قال ذلك دون مبالاة وكأنه كان يتحدث عن حالة الطقس حتى ساورنى الشك تجاهه، وقلت فى نفسى: لا بد أنه شخص لا ينتمى إلى عالمنا! لقد قبضوا عليه ووضعوه فى السجن باعتباره واحدا من المتمردين لكنه كان يعرف بالكاد أن الحرب قائمة.

....

انتابته لحظات من البهجة والسعادة فانتهزت الفرصة للقيام بفحص فمه فأبصرت شقا بسيطا، لكن أعلى باطن الفم كان سليما ثم سألته: هل سبق وأن حاولت تقويم حالتك من قبل؟

لم يكن يعرف فقلت له: إن العملية شىء بسيط حتى لمن هم فى مثل عمره، وأضفت متسائلا: هل توافق على مثل تلك العملية إذا استطعنا الترتيب لها؟

أجاب قائلا: إننى هكذا دائما ولم أكن طيلة حياتى طامحا فى اجتذاب الفتيات.

شعرت برغبة فى إخباره أن بمقدوره اجتذاب الفتيات بسهولة إذا وافق على إجراء العملية؛ لأنه عندئذ سيتكلم مثل الآخرين لكننى لم أقل شيئا؛ لأننى لم أشأ أن أكون سببا فى إيذائه.

أشرت إليه بالتوجه إلى «نويل» وقلت: هو لم يستطع أن يدير عملية رشق السهام بأقل كثيرا من إدارته لمركز تجمع الجنود، إنه شخص ذو إمكانيات عقلية ضعيفة ولا يتمتع بالذكاء ولقد وجد نفسه بالصدفة وسط أجواء الحرب ولم تكن لديه القدرة على الخروج منها، كان ينبغى أن يقوم بصنع السلال وتجميع الخرز فى بيئة تتمتع بالحماية وليس فى معسكر لإعادة التأهيل.

أحضر «نويل» السجل وقال بناء على ما هو مكتوب: إن «مايكلز» يقوم بإشعال الحرائق وهو هارب من معسكر العمل، كان يدير حديقة مزدهرة فى مزرعة مهجورة وعندما تم أسره كان يساند حرب العصابات، هذه هى قصة «مايكلز».

هززت رأسى وقلت: لقد ارتكبوا خطأ، لقد خلطوا بينه وبين «مايكلز» آخر، إن «مايكلز» هذا أحمق ومعتوه ولا يعرف حتى مجرد إشعال عود من الثقاب، إذا كان «مايكلز» هذا يدير حديقة مزدهرة فلماذا يتضور من الجوع؟

عدت إلى العنبر وسألت «مايكلز»: لماذا لم تأكل؟ إنهم يقولون: إنك كنت تمتلك حديقة فلماذا لم تكن تأكل وتهتم بصحتك؟

أجاب: لقد أيقظونى أثناء نومى وبدا أننى كنت غافلا عما يحدث وأنا لا أحتاج إلى الطعام فى نومى.

ثم قال: إن اسمه «مايكل» وليس «مايكلز».

....

ضغط «نويل» علىَّ للإسراع بعملية التحول وكانت توجد ثمانية أسِرَّة فى المستشفى، بينما كان عدد المرضى ستة عشر فقاموا بتسكين ثمانية منهم فى حجرة الوزن القديمة، وسألنى «نويل» عن إمكانية الإسراع فى معالجتهم وإطلاق سراحهم فأجبت أنه ليس من الصواب إطلاق سراح مريض يعانى من الإسهال والذهاب به إلى المعسكر إلا إذا كنت ترغب فى انتشار الوباء.

قال: بالطبع أنا لا أرغب فى ذلك، لكننا شاهدنا فى الماضى حالات كثيرة كانت تدعى المرض وأنا أريد التخلص من مثل تلك الحالات.

كان برنامجه هو الذى يحدد مسئوليته والواجب الذى يتحتم عليه القيام به، أما أنا فإن حالة المرضى هى التى تحدد مسئوليتى.

وضع يده فوق كتفى وقال: أنت تقوم بعمل جيد وأنا لا أناقش ذلك وإنما كل ما أطلبه هو ألا يخطر ببالهم أننا نتعامل معهم برفق ودون حزم.

التزم كلانا بالصمت لحظة رحنا نراقب خلالها الذباب فوق زجاج النافذة، ثم قلت: لكننا نتعامل معهم كذلك بالفعل.

قال: ربما نكون كذلك وربما نتآمر قليلا وربما نخشى إذا جاء يوم الحساب أن يأتى شخص ما ويطالب بإقالتنا؛ لأننا كنا نعامل المرضى برفق وبطريقة لطيفة.

أضاف قائلا: من يدرى؟ غير أن ذلك ليس هو ما أتحدث بشأنه، إننى أتحدث عن أعدادهم الكثيرة فها أنت فى هذه اللحظة تستقبل عددا كبيرا فى العيادة الخاصة بك فى حين أن أحدا لا يخرج.

استطرد وقال متسائلا: هل تنوى القيام بعمل شىء ما حيال تلك الأعداد الكبيرة من المرضى؟

خرجنا من مكتبه فأبصرنا لافتات برتقالية وبيضاء وزرقاء مرفوعة فوق سارية العلم فى منتصف الممر، وكانت الفرقة الموسيقية المكونة من خمسة أشخاص تعزف الموسيقى، وستمائة رجل كانوا يقفون بأقدامهم العارية فى حالة من الغضب، كنا نحاول فى العام الماضى مساعدتهم على الغناء لكننا توقفنا عن ذلك الآن.

....

انتابت «مايكل» حالة من السعادة والبهجة جعلته يخرج فى الهواء الطلق؛ بحثا عن نسمة هواء نقية فى ذلك الصباح، مررت بجواره؛ حيث كان جالسا فوق الأعشاب مصوبا وجهه نحو الشمس كما تفعل السحلية أثناء ابتهاجها بالشمس، وسألته: كيف ترى الحال فى المستشفى؟

بدا كثير الكلام على غير المتوقع وقال: إننى سعيد لعدم وجود مذياع، فى المكان الآخر الذى كنت أقيم فيه كان المذياع لا يتوقف طوال الوقت.

اعتقدت فى البداية أنه يشير إلى معسكر آخر، لكننى اكتشفت أنه يعنى تلك المؤسسة البائسة التى أمضى فيها طفولته، فقلت له: كانت الموسيقى تصدح طوال فترة ما بعد الظهر، وفى المساء أيضا وحتى الساعة الثامنة، إنها ضرورية كالزيت الذى يضعونه فوق كل شىء، إنها تساعدك على الإحساس بالهدوء والسكينة وإلا فإنك دونها قد تتشاجر مع الآخرين وقد تلقى بالمقاعد من النوافذ، إن الموسيقى تساعدك على تنقية الهواء داخل صدرك.

لم تصدر منه أية إشارة تؤكد لى أنه فهم كلامى، لكنه ابتسم ابتسامة فى غير موضعها، وقال: الموسيقى تصيبنى بالقلق والاضطراب، لقد اعتدت على القلق ولم أستطع فى يوم ما أن أفكر فى شئونى أو أفكارى الخاصة.

قلت: وما تلك الأفكار التى كنت ترغب فى التفكير بها؟

أجاب قائلا: كثيرا ما فكرت فى الطيران وكانت رغبتى فى الطيران لا تتوقف، كنت أبسط ذراعى وأحلم أننى أطير محلقا فوق الأسوار وبين البيوت وفوق رءوس الناس دون أن يتمكنوا من رؤيتى، لكننى لم أكن أستطيع عمل ذلك حين كانوا يبدءون فى تشغيل الموسيقى.

صمت قليلا ثم ذكر اسم المقطوعات الموسيقية التى تصيبه بقلق أكثر.

نقلته إلى سرير بجوار النافذة بعيدا عن الصبى ذى الكاحل المكسور الذى يضمر له كراهية خاصة لا يعلم سببها سوى الله، كما أنه لا يتوقف عن مضايقته طوال الوقت، إنه الآن بجوار النافذة وبمقدوره إذا وقف أن يرى السماء وقمة سارية العلم.

قلت له بطريقة لطيفة: عليك أن تأكل أكثر قليلا حتى يمكنك الخروج إلى التنزه.

إنه فى الحقيقة فى احتياج إلى العلاج الطبيعى لكن تلك الخدمة ليست متوفرة لدينا، إنه مثل أحد ألعاب الأطفال المصنوعة من العصى المربوطة ببعضها البعض بشرائط من المطاط، إنه فى احتياج إلى نوع معين من التغذية وبعض التدريبات الرياضية الخفيفة إلى جانب العلاج الطبيعى، وبعد ذلك يمكنه العودة إلى حياة المعسكر ويأخذ فرصته فى السير إلى الأمام وإلى الخلف فى مضمار السباق، كما أنه يستطيع عندئذ أن يهتف بشعارات الحرب ويقوم بتحية العلم ويمارس عمليات حفر الخنادق ثم ردمها مرة ثانية.

....

كانوا يتحدثون فى المطعم عن الصعوبة التى يواجهها الأطفال عندما يعيشون داخل الشقة، إنهم يفقدون بالقطع الحديقة الكبيرة وحيواناتهم الأليفة، قالت المرأة ذات الوجه المزدهر: يتملكنى البكاء عندما أفكر فيما تركناه خلفنا.

عندما كانت تحلم ببيتها المهجور كان يتراءى لها رجل غريب مستلقيا باسترخاء فوق سريرها دون أن يخلع حذاءه، وكانت تراه فى حلم آخر وهو يفتح الثلاجة ويبصق فوق الآيس كريم، أضافت وقالت: لا تقل لى إنك لا تشعر بالمرارة.

كانت ترافقها امرأة شابة ممشوقة، ساورنى الشك تجاهها عندما أبصرت شعرها الممشط إلى الخلف مثلما يفعل الرجال.

هل يؤمن أحد بما نقوم بعمله هنا؟ أشك فى ذلك، قدموا لنا مضمارا قديما للسباق، وكمية من الأسلاك الشائكة، وطلبوا أن نحدث تغييرا فى أرواح الرجال، ليسوا خبراء فى الروح لكنهم يفترضون بحذر أن الروح على اتصال بالجسد، جعلنا الأسرى يسيرون ذهابا وإيابا كما استخدمناهم من مخزون الفرقة النحاسية وعرضنا عليهم أفلاما للشباب فى زى نظيف وهم يتظاهرون؛ ليعلموا كبار القرية كيفية القضاء على البعوض، وفى نهاية العملية نضمنهم طاهرين، ثم نحشدهم فى كتائب لحمل المياه وحفر المراحيض، فى المسيرات العسكرية الكبيرة كان يوجد دائما صحبة من الكتائب العمالية يسيرون أمام الكاميرات بين كل الدبابات والصواريخ وقوات المدفعية؛ لإثبات أننا قادرون على تحويل الأعداء إلى أصدقاء، لكنهم كانوا يسيرون وهم يحملون المجارف فوق أكتافهم وليس البنادق كما لاحظت.

....

بعد عطلة يوم الأحد عدنا إلى المعسكر وقدمت نفسى عند البوابة وكأننى مقامر يدفع رسم الدخول، وكانت علامة (سياج) فوق البوابة الرئيسية، وكانت اللافتة فوق البوابة المؤدية إلى المستشفى تقول:

(الأعضاء والموظفون فقط).

هل يعتقدون أن الطريق سوف يتم فتحه فى يوم ما؟ وهل لا يزال بعض الناس يقومون بتدريب خيول السباق فى مكان ما على أمل أن العالم سيستقر بعد انتهاء حالات الهرج والمرج ويعود كما كان؟

....

كنا حوالى اثنى عشر مريضا، وكانت حالة «مايكل» كما هى ومن الواضح أنه كان يعانى من تفسخ فى الجدار المعوى.

رقد «مايكل» متوجها ببصره إلى أعلى ناحية النافذة والسماء، وكانت أذناه بارزتين من رأسه المكشوفة، ابتسم ابتسامته المعهودة، وعندما جاءوا به كان يحمل حزمة من الورق البنى قام بوضعها تحت وسادته، تناول حزمة الورق وضمها فوق صدره فسألته: ماذا تحوى هذه الحزمة؟

فتح حزمة الورق وقال: إنها بذور قرع العسل.

قلت بطريقة متعاطفة: ينبغى أن تعود لعملك فى البستان بعد انتهاء الحرب.

ثم أضفت متسائلا: هل ستعود إلى (كارو)؟ هل تعتقد أنك ستعود؟

نظر حواليه بحذر فقلت مستطردا: إن (بينينسولا) تتمتع بتربة خصبة ومروج خضراء متموجة، وسيكون شيئا جميلا أن ترى العمل فى البساتين والحدائق يعود من جديد فى (بينينسولا).

لم يقل شيئا فتناولت حزمة الورق من يده وطويتها تحت الوسادة حفاظا عليها، وبعد ساعة وجدته نائما وكان فمه ملتصقا بالوسادة كالأطفال.

بدا كالحجر الصغير أو الحصاة النائمة التى تدير شئونها منذ فجر التاريخ، لكنهم أمسكوا بها فجأة وراحوا يقذفون بها من يد إلى أخرى بطريقة عشوائية، كان يشعر بما حواليه بالكاد، لقد عاش أجواء تلك المؤسسات والمعسكرات والمستشفيات من قبل ولا أستطيع حقا التفكير فيه على أساس أنه رجل رغم أنه أكبر منى بكل الحسابات.

....

استقرت حالته وأصبح قادرا على التحكم فى الإسهال وكان معدل النبض منخفضا وكذلك ضغط الدم، شعر بالبرد فى الليلة الماضية رغم أن الجو كان دافئا وعلى أية حال فقد كان يمتلك زوجا

من الجوارب، وعندما حاولت فى الصباح أن أتودد إليه نهرنى وقال: هل تعتقد أننى سأموت إذا تركتنى؟ لماذا تريدنى أن أصبح بدينا؟ ولماذا تقلق بشأنى؟ وهل أنا بمثل تلك الأهمية؟

لم أكن مستعدا للجدل وحين حاولت الإمساك بمعصمه رفع ذراعه ودفعنى بقوة، أصابتنى تلك القوة بالدهشة وقلت له: لماذا أنت مهم يا «مايكل»؟ هكذا سألتنى والإجابة على سؤالك هى أنك لست مهما لكن ذلك لا يعنى تجاهلك، نحن لا نتجاهل أى شخص.

راح يحدِّق فى السقف وكأنه رجل عجوز يتحاور مع الأرواح، ثم قال: لقد كانت أمى تعمل طوال حياتها، كانت تنظف أرضيات الناس وتطهو لهم الطعام وتغسل أطباقهم وملابسهم القذرة، وكانت تقوم بتنظيف الحمام وتركع على ركبتيها لتطهير المرحاض، لكنها وبعد أن تقدم بها العمر وأصابتها الأمراض لم يتذكرها أحد من أولئك الناس وبدا كأنهم لا يعرفونها، وبعد وفاتها قاموا بإشعال النيران فى جسدها، ثم أعطونى كيسا من الرماد، وقالوا لى: ها هى أمك ويجب أن تأخذها بعيدا عن هنا ، إنها لم تعد نافعة لنا.

كان الصبى ذو الكاحل المكسور يسمع كل شىء، لكنه كان يتظاهر بالنوم فقلت مخاطبا «مايكل»: نحن نقوم بعمل ما يجب علينا عمله تجاهك وأنت لا تتمتع بمعاملة خاصة فاطمئن من هذه الناحية، وعندما تصبح فى حال أفضل وتتحسن حالتك ستكون فى انتظارك

كثير من الطوابق التى يجب أن تقوم بتنظيفها وكثير من المراحيض التى يجب عليك تطهيرها، وبالنسبة إلى أمك فأنا متأكد بأنك لم تخبرنى بالقصة كاملة وأنا على يقين بأنك تعرف ذلك.

إنه رغم ذلك على حق لأنه فى الحقيقة يشغل مساحة كبيرة من تفكيرى فمن هو إذن قبل كل شىء؟ لدينا عدد هائل من اللاجئين القادمين من الريف؛ بحثا عن الأمان فى المدن من جهة، ومن جهة أخرى لدينا عدد من الناس من أولئك الذين سئموا العيش بأعداد كبيرة فى حجرة واحدة ضيقة ولا يستطيعون الحصول على ما يكفيهم من الطعام، فاضطروا إلى الرحيل من المدن، وزحفوا إلى الريف المهجور على أمل العيش بطريقة أكثر إنسانية، إن «مايكل» إذن ليس سوى واحد من جماهير الدرجة الثانية، إنه فأر استطاع القفز والهرب من سفينة مزدحمة موشكة على الغرق، لكنه لم يستطع أن يحيا بعيدا عن أرضه فعرف الجوع وكان من حسن حظه أنهم شاهدوه وقبضوا عليه فلماذا ينبغى عليه أن يشعر بالانزعاج والاستياء؟

....

كان «نويل» يتلقى مكالمة هاتفية من شرطة الأمير ألبرت، لقد تعرضت إمدادات المياه إلى هجوم فى الليلة الماضية وانفجرت المضخة وجزء كبير من الأنابيب، وبينما كانوا فى انتظار المهندسين كان عليهم التعامل مع مياه الآبار، كانت الخطوط البرية معطلة

أيضا، وكان من الواضح أن السفن الصغيرة فى طريقها إلى الغرق، بينما كانت السفن الكبيرة تشق طريقها بصعوبة فى الظلام وهى تئن من حمولتها الزائدة من البشر.

انتهزت الشرطة الفرصة للتحدث مع «مايكل» عن المسئولين عن ذلك الانفجار، الذين اعتبرتهم أصدقاء له حين كان يعيش فى الجبال، طلبوا منا أن نسأله بالتناوب بعض الأسئلة المحددة فاعترضت قائلا لـ «نويل»: ألم يستجوبوه من قبل؟ وما الداعى لاستجوابه مرة ثانية؟ إنه مريض جدا ولا يقوى على السفر كما لا يمكن الوثوق به على أية حال.

سألنى «نويل»: هل هو مريض إلى درجة أنه لا يستطيع التحدث إلينا؟

أجبت قائلا: ليس مريضا جدا لكنك لا يمكن أن تستخلص منه شيئا مفيدا.

قام «نويل» بإخراج أوراق «مايكل» مرة أخرى وطلب منى رؤيتها، ثم قمنا باصطحابه إلى المتجر وهو يرتدى بيجامته ويضع البطانية فوق كتفيه، كانت العلب الملونة والصناديق الكرتونية مرصوصة بجوار الحائط، وخيوط العنكبوت منتشرة فى كل الأركان والتراب يملأ الأرضية ولم نجد مكانا للجلوس، وقف «مايكل» فوق قدميه الهزيلتين بشكل متقاطع معنا وضم البطانية فوق صدره، فقال «نويل» وهو يشعل سيجارة: أنت فى ورطة، لقد أساء أصدقاؤك

التصرف فى الأمير ألبرت، لقد تسببوا فى إزعاج السلطات ونريد القبض عليهم، وعليك أن تتحدث إليهم فنحن لا نعتقد أنك قدمت لنا كل المساعدة اللازمة وها أنت الآن تملك فرصة أخرى للمساعدة، نريدك أن تخبرنا عن أصدقائك وعن المكان الذى يختبئون فيه، كيف يمكننا مقابلتهم؟

لم يتحرك «مايكل» خطوة واحدة ولم يتوقف عن النظر إلينا.

قلت: «مايكل»، بعضنا غير متأكد أنك تعمل مع المتمردين وإذا استطعت إقناعنا أنك لا تعمل لحسابهم فإنك سوف تنقذنا من كثير من المتاعب وستنقذ نفسك من البؤس والشقاء، أخبرنى إذن وأخبر الضابط عما كنت تفعله حقا فى تلك المزرعة عندما قبضوا عليك، إن كل ما نعرفه هو المكتوب فقط فى تلك الأوراق القادمة من شرطة الأمير ألبرت، وفى الحقيقة فإن كل ما هو مكتوب لا يعنى شيئا، أخبرنا بالحقيقة إذن وقل لنا الحقيقة كاملة وبعدها يمكنك العودة إلى النوم ولن نزعجك بعد ذلك.

انحنى بشكل ملحوظ ولف البطانية حول رقبته وراح يحدِّق فى كلينا.

قلت: هيا يا صديقى، لن يؤذيك أحد، أخبرنا فقط بما نريد أن نعرفه.

ساد الصمت لحظة طويلة ولم يتحدث «نويل» فتحملت وحدى المسئولية كاملة وقلت: تعال يا «مايكل»، اليوم لم ينته بعد والحرب لم تزل قائمة.

تحدث «مايكل» أخيرا وقال: أنا لست فى حرب.

غضبت بشدة وقلت متسائلا: أنت لست فى حرب؟ بالطبع أنت فى حرب يا رجل سواء كنت تحبها أم تكرهها، هذا معسكر وليس منتجعا لقضاء الإجازات أو مكانا للنقاهة، إنه معسكر لإعادة تأهيل الناس من أمثالك ثم إجبارهم على العمل، أنت فى طريقك لتتعلم كيفية ملء الزكائب بالرمل وحفر الآبار والجحور يا صديقى حتى ينكسر ظهرك، وإذا لم تتعاون معنا ستجد نفسك فى مكان أسوأ من هذا، سوف تذهب إلى حيث تقف طوال اليوم فى الشمس وتأكل قشر البطاطس وأكواز الذرة وإذا لم تقو على الاستمرار وفقدت حياتك فسوف يحذفون اسمك من القائمة وهكذا ستكون نهايتك، هيا إذن، تعال وتكلم فالوقت يمضى وأخبرنا عما كنت تفعله حتى يمكننا تسجيله وإرساله إلى الشرطة فى الأمير ألبرت، إن الضابط هنا رجل مشغول ولا يحب تضييع الوقت، لقد جاء لإدارة هذا المعسكر الجميل بعد خروجه على المعاش لمساعدة من هم أمثالك من الناس وهكذا يجب أن تتعاون معنا.

بلَّل شفتيه بلسانه الشبيه بالسحلية، ثم قال وهو يواصل الانحناء: كل ما فى الأمر أننى لست متحدثا بارعا.

قلت: لا نريدك أن تكون بارعا فى الكلام أو متحدثا لبقا ولا يهمنا أن تكون عاجزا عن التعبير فنحن لا نريد منك شيئا سوى أن تخبرنا بالحقيقة.

ابتسم ابتسامة ماكرة.

قال «نويل»: ماذا كنت تزرع فى البستان الذى كنت تملكه؟

● كان بستانا للخضراوات.

● من الذى كان يستهلك تلك الخضراوات؟ ولمن كنت تقدمها؟

● لم تكن ملكية خاصة بى لكنها كانت تنبت من الأرض.

● لقد سألتك عن الأشخاص الذين كنت تقدم لهم نتاج زراعتك.

● لقد أخذ الجنود كل شىء.

● هل قاومت الجنود حين استولوا على خضراواتك؟

هزَّ كتفيه وأجاب: إن ما ينمو فى الأرض هو ملك لنا جميعا؛ لأننا جميعا أطفال تلك الأرض.

قلت معترضا: لقد دفنت أمك فى تلك المزرعة، أليس كذلك؟ ألم تخبرنى بأنها دفنت هناك؟

تجمد وجهه كالحجر وقلت ضاغطا عليه: لقد أخبرتنى بقصة أمك لكن الضابط لم يسمع بها، أخبر الضابط إذن بقصة أمك.

لاحظت للمرة الثانية مدى الحزن والكرب الذى ينتابه حين يصبح مضطرا إلى الحديث عن أمه، حرَّك قدميه فوق الأرض وراح يلعق شفتيه المشقوقتين فسأله «نويل» قائلا: أخبرنا عن أصدقائك

الذين جاءوا فى منتصف الليل وأحرقوا المزارع وقتلوا النساء والأطفال، ذلك بالضبط هو ما أريد سماعه.

قلت: أخبرنا عن والدك فلقد تحدثت كثيرا عن أمك، لكنك لم تتحدث قط عن والدك، ماذا حدث لوالدك؟

أغلق فمه بطريقة توحى بالعناد ثم راح يحدّق بسخط وعندئذ سارعت بسؤاله: هل لديك أطفال يا «مايكل»؟ وهل لا يملك رجل فى مثل عمرك زوجة وأبناء؟ هل يعيشون فى مكان ما؟ ولماذا أنت وحيد دائما؟ وماخططك للمستقبل؟ أتريد أن تنتهى حياتك وأنت وحيد هكذا؟ ألا تعتقد أنها ستكون حياة تعيسة وبائسة؟

سادت لحظات من الصمت الكثيف، ظل الصمت يرن فى أذنى وكان من نوع الصمت الذى نختبره فى أعماق المناجم وفى الأقبية والملاجئ والأماكن الخالية من الهواء، ثم قلت: لقد جئنا بك إلى هنا يا «مايكل»؛ لكى تتكلم، لقد قدمنا لك سريرا مناسبا للنوم وطعاما وفيرا، وكان بمقدورك الاستلقاء بمنتهى الأمان طوال اليوم والتمتع بمراقبة الطيور وهى تحلق فى السماء، لكننا كنا نتوقع أشياء فى المقابل، لقد حان الوقت الذى يجب أن تتكلم فيه يا صديقى خاصة وأنك تملك ما يجب قوله من الأخبار وإننا جاهزون للاستماع، فلتبدأ إذن فى سرد قصتك ولتكن البداية كما تشاء، أخبرنا عن أمك وقل لنا بعض التفاصيل عن والدك واحكِ لنا عن وجهات نظرك فى الحياة، وإذا لم تكن راغبا فى إخبارنا عن أمك وأبيك

ووجهات نظرك فى الحياة فعليك أن تخبرنا عن مشروعك الزراعى الأخير وعن أصدقائك ممن كنت تتعامل معهم فى الجبال الذين كانوا يأتون هنا للزيارة وشراء الطعام من حين لآخر، قل لنا يا «مايكل» كل ما نريد أن نعرفه وعندئذ سوف نتركك وشأنك.

توقفت عن الكلام فراح «مايكل» يحدِّق بإمعان ثم استطردت قائلا : تكلم يا «مايكل»، لن تجد صعوبة فى التكلم، تكلم الآن فلقد رأيت بنفسك كيف أننى ملأت الحجرة بالكلمات بسهولة شديدة، إننى أعرف كثيرا من الناس ممن يملكون القدرة على الكلام طوال اليوم دون أن يشعروا بالتعب وبمقدورهم إغراق العالم كله بالكلام.

رمقنى «نويل» بنظرة خاطفة، لكننى لم أتوقف عن إصرارى فى الضغط عليه، فقلت مستطردا : اجعل لنفسك هدفا فى الحياة يا رجل وإلا فإن حياتك ستنتهى وكأنك لم تكن موجودا، ستكون مجرد رقم فى طابور طويل بعد أن تنتهى الحرب ولا شىء آخر، هل تريد أن تكون واحدا من الموتى أو الهالكين؟ لا بد أنك راغب فى العيش، أليس كذلك؟ تكلم إذن وارفع صوتك بالكلام وقل لنا كل شىء عن حياتك وأعدك أننا سنستمع لك جيدا، لن تجد فى العالم كله رجلين متحضرين ومهذبين مثلنا على استعداد لسماع قصتك طوال النهار والليل.

غادر « نويل» الحجرة دون أن يخبرنى فطلبت من «مايكل» أن يبقى فى مكانه ولا يتحرك، حتى أعود، ثم سارعت باللحاق بـ "نويل».

أوقفت «نويل» فى الممر المظلم وتوسلت إليه قائلا: لن تصل معه إلى شىء أبدا وأنا متأكد أنك تعرف ذلك، إنه ساذج ومغفل وليس حتى ساذجا مثيرا للاهتمام، إنه مجرد روح بائسة، كما أنه شخص مغلوب على أمره من أولئك الذين تم السماح لهم بالهيام فى ساحة المعركة؛ أعنى ساحة معركة الحياة.

ناشدت «نويل» أن يستمع لى جيدا فأضفت قائلا: لدى رغبة جادة أن نتركه وشأنه ولا تحاول الضغط عليه حتى يتكلم...

● من الذى تحدث عن الضغط؟

● لا تحاول استنطاقه بأى طريقة لأنه فى الحقيقة لا يملك شيئا يقوله وإذا ما نجحت فى الوصول إلى داخل عقله وإدراك مشاعره العميقة فستكتشف أنه لا يعرف ما يقوم به من أفعال، لقد كنت أراقبه لعدة أيام؛ كى أتأكد من كلامى هذا، حاول إذن عمل شىء بخصوص التقرير، إنها عصابة كبيرة من المتمردين، ألا تعتقد ذلك؟ عشرون رجلا؟ ثلاثون رجلا؟ فليكن قد أخبرك أنهم عشرون ودائما هم الرجال أنفسهم، وأنهم يأتون إلى المزرعة كل أربعة أو خمسة أو ستة أسابيع، لكنهم لم يخبروه قط بموعد عودتهم فى كل مرة، ولتفترض أنه يعرف أسماءهم لكنه لا يعرف سوى الاسم الأول لكل واحد منهم، ستقوم عندئذ بعمل قائمة بأسمائهم وبالأسلحة التى كانت بحوزتهم، فلتقل أيضا أنهم كانوا يعيشون فى معسكر فى الجبال بمكان ما، لكنهم لم يخبروه قط عن مكانهم وأخبروه فقط

أنه فى مكان ما فى الأعالى يصلون منه إلى المزرعة بعد يومين من السير على الأقدام، وإذا فكرت أنهم ينامون فى كهوف بصحبة نسائهم وأطفالهم فذلك يكفى واكتب ذلك فى التقرير ثم قم بإرساله، حان الوقت لتركهم وشأنهم وعدم التفكير فيهم؛ كى نتفرغ لمواصلة أعمالنا.

وقفنا بالخارج وسط أشعة الشمس تحت سماء الربيع الزرقاء فقال «نويل»: أنت تريدنى إذن أن أكذب فى كتابة التقرير وأوقع باسمى عليه!

قلت: ليس ذلك كذبا يا «نويل» وإنما ما قلته لك هو الحقيقة التى لا تستطيع أن تحصل على أكثر منها إذا ما حاولت الاستمرار فى استجوابه.

● ولكن ماذا لو أن تلك العصابة لا تعيش أبدا فى الجبال؟ ما الذى سيكون عليه الوضع لو أنهم يعيشون حول الأمير ألبرت ويقومون بمهامهم فى هدوء وفى وضح النهار، وبعد أن ينام الأطفال يستخرجون بنادقهم من تحت البلاط، ثم يتجولون فى الظلام ويقومون بعمليات التفجير وإشعال الحرائق وإرهاب الناس؟ هل فكرت فى ذلك الاحتمال؟ ولماذا أنت متحمس جدا لحماية «مايكل»؟

● أنا لست متحمسا لحمايته يا «نويل»، هل تريد أن تقضى بقية اليوم فى معرفة الحكاية من رجل أبله وبائس لا يعرف مؤخرته من

كوعه، رجل لا يتحكم فى سرواله حين تزوره أمه فى المنام بشعرها المحترق، رجل يؤمن أن الأطفال الصغار يجدونهم تحت الشجيرات ذات الأغصان المتشابكة؟ علينا أن نفعل الصواب يا «نويل»، أؤكد لك أن لا شىء هناك وإذا قمت بتسليمه إلى الشرطة فإنهم سيصلون للنتيجة نفسها، لا شىء هناك والعقلاء من الناس لا يعيرون تلك القصة أدنى اهتمام، قلت لك: إننى كنت أراقبه لعدة أيام وأكاد أجزم لك أنه ليس من عالمنا، إنه يحيا فى عالم خاص به وحده.

عدت وخاطبت «مايكل» قائلا: لقد أنقذتك ببلاغتى يا «مايكل» سوف تحكى للشرطة عن قصة مقنعة، وبدلا من أن تعود إلى الأمير ألبرت وأنت مقيد فوق ظهر الشاحنة وسط رائحة البول، فسوف تستطيع النوم فوق ملاءات نظيفة،وأنت تستمع إلى هديل الحمام فوق الأشجار، ويمكنك أن تغفو وتغرق فى أفكارك الخاصة، أتمنى أن تشعر بالامتنان فى يوم ما، لقد عشت ثلاثين عاما فى ظلام المدينة وكان ذلك حدثا استثنائيا خرجت منه سليما، كان بقاؤك على قيد الحياة مثل الحفاظ على حياة بطة ضعيفة وصغيرة وكنت شبيها بطائر وليد يرفرف فى العش، لا أوراق ثبوتية ولا نقود ولا عائلة ولا أصدقاء ولا حتى إدراك بكينونتك، أنت أكثر غموضا من الغموض ذاته، أنت معجزة بكل المقاييس.

....

كان اليوم الأول من أيام الصيف الدافئة وكان يوما صالحا للذهاب إلى الشاطئ، وبدلا من الكشف على المريض الجديد الذى يعانى من الحمى الشديدة والشعور بالدوار والتقيؤ والورم الليمفاوى قمت بعزله فى الحجرة القديمة وأرسلت عينات من الدم والبول للتحليل، وقبل ذلك بنصف ساعة كنت مارا بالقرب من حجرة البريد فلاحظت أن الطرد لا يزال موجودا وكان من اليسير على الجميع أن يلاحظ تلك الشارة الحمراء وطابع البريد السريع فوق الطرد.

قال الموظف المختص: إن سيارة البريد لم تأت اليوم.

قلت له: لماذا لم ترسله بالدراجة مع مبعوث مخصوص؟

أجاب: لا يوجد مبعوث.

قلت: إن الأمر لا يتعلق بسجين واحد لكنه يتعلق بصحة المعسكر كله.

كان جالسا إلى مكتبه فهزَّ كتفيه وهو يتصفح مجلة نسائية وقال: وفيم العجلة؟

خلف السياج الغربى والطوب المصنوع من الطين وخلف الأسوار الشائكة كان شجر البلوط المنتشر عبر شارع (روزميد) قد تحوَّل فى الأيام القليلة الماضية إلى اللون الأخضر الزمردى الكثيف، وكانت حوافر الجياد بادية فى الشارع، وفى الاتجاه الآخر كانت أصوات

فرقة الكورال الموسيقية القادمة من الكنيسة فى (واينبرج)، والتى يمكن سماعها كل يوم أحد تغنى بقيادة عازف الأكوردين للمساجين، بينما كانوا فى طريقهم إلى المبنى رقم «د» لتناول وجباتهم المتواضعة من الفاصوليا وصلصة اللحم، كانت الموسيقى تساعد فى رفع معنوياتهم، كما كان القس يقلل من معاناتهم، وربما لذلك لم يكن هناك نقص فى عدد القساوسة وهكذا لم يكن ينقصهم شىء.

قال «نويل»: لا يمكن أن تستمر الحرب إلى الأبد، لا بد أن تنتهى فى يوم ما كما ينتهى كل شىء.

قلت: ومع ذلك فعندما تتوقف طلقات النيران ويهرب الحراس، ويمضى الأعداء عبر البوابات دون أن يعترضهم أحد فإنهم سيأملون فى رؤية قائد المعسكر وهو يسدد طلقة من الرصاص إلى رأسه، بينما يكون جالسا إلى مكتبه، ذلك ما سوف يأملونه على الرغم من كل شىء.

لم يقل «نويل» أى شىء وكأنه لم يسمع شيئا.

....

أطلقت سراح «مايكل» بالأمس، وذكرت فى بيان إطلاق السراح إعفاءه من التدريبات البدنية لمدة أسبوع على الأقل، وفيما بعد وحين كنت خارجا من المدرج ذات صباح شاهدت «مايكل» فى ميدان السباق وهو يمارس بصعوبة مع بقية المساجين تمارينهم البدنية،

كان عاريا حتى خصره وبدا كالجمجمة وهو يجرجر قدميه خلف أربعين من الأجساد القوية، أخبرت الضابط المناوب باحتجاجى واعتراضى فأجابنى قائلا: عندما يفقد قدرته على الاستمرار فإنه سيتوقف.

قلت معترضا: لن يتوقف لكنه سيموت، إن قلبه هو الذى سيتوقف.

قال: لقد أخبرك ببعض الحكايات وأرجوك ألا تصدق كل ما يخبرك به أولئك التافهون، إنه لا يعانى من شىء فلماذا أنت مهتم به على أية حال؟

استطرد وهو يشير إلى «مايكل»: انظر، عيناه مغلقتان ويتنفس بعمق ووجهه لا يوحى بشىء.

ربما أكون فعلا قد صدقت كثيرا من الحكايات التى أخبرنى بها، وربما تتمثل الحقيقة ببساطة فى حاجته لأن يأكل أقل من الآخرين.

....

كنت مخطئا حين ساورنى الشك بخصوص «مايكل» فها هو يعود بعد يومين مستندا إلى اثنين من الحرّاس، كان غائبا عن الوعى حين اتجهت «فيليستى» نحو الباب وسألت: ماذا حدث له؟

تظاهروا بعدم المعرفة وقالوا: اسألى الضابط «ألبريشت».

كانت يداه وقدماه باردتين كالثلج وكانت نبضات قلبه ضعيفة جدا، لفَّتْ «فيليستى» البطاطين حول جسده الهزيل مع بعض زجاجات الماء الساخن، ثم قمت أنا بحقنه وبعد فترة وجيزة أطعمته بالجلوكوز واللبن من خلال الأنبوبة.

شرح «ألبريشت» الحالة قائلا: إنها حالة عصيان وعدم التزام بالأوامر، لقد رفض «مايكل» الاشتراك فى الأعمال والأنشطة المقررة، فعاقبوه بعمل مزيد من التدريبات الشاقة مثل القفز وهو جالس القرفصاء، لكنه انهار بعد القفزة السادسة ولم يستطع أن يستعيد وعيه.

قلت له متسائلا: وما العمل الذى رفض القيام به؟

● لقد رفض أن يغنى.

● يغنى؟ إنه ليس شخصا سويا كما أنه لا يستطيع الكلام بطريقة صحيحة فكيف تتوقع منه أن يغنى؟

أجاب بلا مبالاة: لو أنه حاول لما أصابه الضرر.

● وكيف تعاقبونه بممارسة التدريبات الجسدية الشاقة فى حين أنكم ترونه ضعيفا وهزيلا كما الطفل الرضيع؟

أجاب: تلك هى المسئولية المفروضة علينا.

....

ما إن استرد «مايكل» قليلا من صحته واستعاد وعيه من جديد حتى سارع بشد أنبوبة الجلوكوز واللبن من أنفه ولم تتمكن «فيليستى» من إيقافه؛ لأنها جاءت متأخرة، وها هو يرقد الآن بجوار الباب تحت كومة البطاطين كالجثة رافضا الطعام، دفع زجاجة الغذاء بعيدا بذراعه النحيلة وقال: ليس ذلك هو نوع الطعام المناسب لى.

سألته بطريقة ساخرة: وما نوع الطعام المناسب لك؟ ولماذا تتعامل معنا بهذه الطريقة؟ ألا ترى أننا نحاول مساعدتك؟

رمقنى بنظرة هادئة وخالية من أى اهتمام أيقظت الغضب بداخلى فقلت: هناك مئات من الناس يموتون من الجوع كل يوم وأنت لا تريد أن تأكل، قل لى لماذا؟ هل أنت صائم؟ أم أنه صوم احتجاجى؟ وما الشىء الذى تحتج من أجله؟ هل تريد أن تنعم بحريتك؟ إذا أطلقنا سراحك وتركناك للشارع وأنت فى مثل تلك الحالة فسوف تموت فى خلال أربع وعشرين ساعة، أنت تستطيع العناية بنفسك لكنك لا تعرف كيف تفعل ذلك، أنا و«فيليستى» فقط فى العالم كله اللذين نهتم بك كثيرا ونحاول مساعدتك وليس ذلك؛ لأنك شخص متميز أو حميم، وإنما لأن طبيعة عملنا تحتم علينا الاهتمام بك، لماذا إذن لا تتعاون معنا؟

سمع جميع من فى العنبر حديثنا فحدثت ضجة كبيرة، وكان الولد الذى اشتبهت فى إصابته بالالتهاب السحائى الذى أمسكته

بالأمس متلبسا بوضع يده فوق تنورة «فيليسيتى» واقفا فوق السرير لرؤية ما يحدث وهو يبتسم ابتسامة عريضة.

قال «مايكل» متذمرا: لم أطلب قط أى معاملة خاصة.

استدرت من أمامه وخرجت قائلا: أنت لم تطلب قط أى شىء، لكنك أصبحت كالطائر العملاق القابض على رقبتى، وذراعاك النحيلتان تلتفان حول رأسى، كما أنك تمثل عبئا ثقيلا فوق كاهلى.

بعد لحظات عاد الهدوء إلى العنبر فعدت وجلست على طرف سريرك، ثم انتظرت فترة طويلة حتى فتحت عينيك، وقلت: أنا لن أموت. لكننى لا أستطيع تناول الطعام هنا، لا أستطيع تناول طعام المعسكر، هذا كل ما فى الأمر.

قلت مخاطبا «نويل»: لماذا لم تكتب طلبا يفيد بإطلاق سراحه، سوف أصطحبه الليلة إلى البوابة، وسأضع بعض النقود فى جيبه، ثم سأتركه؛ ليرحل، وعندئذ سيتصرف مع نفسه بطريقة مختلفة، عليك أن تكتب الطلب وسأذكر فى التقرير أنه يعانى من التهاب رئوى حاد ومن سوء التغذية، وهكذا نستطيع أن نشطبه من قائمة المحتجزين ونتخلص من التفكير فيه للأبد.

قال «نويل»: إننى حقا فى حيرة من أمر اهتمامك به، لا تطلب منى أن أتلاعب فى الأوراق فلن أفعل ذلك حتى لو أنه فى طريقه إلى الموت وحتى إذا تعمد تجويع نفسه حتى الموت، دعه يموت، إنه أمر بسيط جدا.

قلت: ليست مسألة موت ولا يتعلق الأمر بكونه يريد أن يموت، إنه فقط لا يحب الطعام الذى نقدمه هنا، لا يحبه على الإطلاق، ربما لا يعجبه سوى خبز الحرية.

ساد بيننا صمت مثير للحيرة، ثم استطردت قائلا: وكلانا أيضا لا يحب طعام المعسكر.

قال «نويل»: أنت شاهدته حين جاءوا به إلى هنا، لقد كان كالهيكل العظمى، وكذلك حين كان يعيش بمفرده فى تلك المزرعة حرا طليقا كالطائر وكان يتناول خبز الحرية كان كالهيكل العظمى.

قلت : ربما هو رجل نحيل جدا بطبيعته.

....

كان العنبر مظلما وكانت «فيليستى» نائمة فى حجرتها، حملت مصباحا يدويا ووقفت فوق سرير «مايكل»، ثم قمت بهزه حتى استيقظ، وضع يده فوق عينيه فانحنيت واقتربت منه حتى شممت رائحة الدخان نفسه التى تلازمه دائما رغم حرصه الدائم على الاغتسال، وقلت له هامسا: ثمة شىء أريد قوله لك يا «مايكل»، إذا لم تأكل فإنك حتما ستموت. نعم ستموت وقد يستغرق موتك وقتا طويلا وسيكون وقتا مريرا وشاقا، لكنك فى النهاية ستموت حتما وعندئذ لن أستطيع عمل أى شىء لإنقاذك ولتعلم أنه بمقدورى أن أربطك بإحكام وأثبت رأسك بحزام، ثم أضع الأنبوبة داخل

حنجرتك لإجبارك على الطعام، لكننى لن أفعل ذلك؛ لأننى أتعامل معك كرجل حر وليس كطفل أو حيوان، إذا أردت إذن التخلص من حياتك فافعل ذلك لأنها حياتك وليست حياتى.

رفع يده من فوق عينيه ثم تنحنح وبدا أنه على وشك الكلام، لكنه اكتفى بهز رأسه وارتسمت فوق وجهه ابتسامة طفيفة بدت فى ضوء المصباح اليدوى من نوع الابتسامات الكريهة، فقلت له هامسا: ماذا تريد من أنواع الطعام؟ وأى نوع من الطعام أنت مستعد لتناوله؟

أزاح بيده المصباح اليدوى جانبا، ثم استدار وعاد إلى النوم.

....

فى الصباح بدأ طابور طويل من الرجال الحفاة فى السير لمسافة تقدر باثنى عشر كيلو مترا، كانوا فى طريقهم إلى الذهاب إلى فناء محطة السكك الحديدية، وكان يتقدمهم أحد الطبالين تحت حراسة مسلحة، لكن حوالى ستة منهم لم يمتثلوا للأوامر فوضعوهم فى محبس مؤقت لحين إرسالهم إلى (مولديرسروبس)، كما عاد إلى المستشفى ثلاثة آخرون من أولئك الرجال الحفاة كان «مايكل» من بينهم؛ لأنهم كانوا عاجزين عن السير.

كانت رائحة الصابون المشبع بحمض الكاربوليك تملأ الجو، وساد نوع من الهدوء المريح، فشعرت ببعض الراحة وقدر غريب من

السعادة فهل سينتابنى الشعور نفسه عندما تنتهى الحرب ويتم إغلاق المعسكر؟ ربما لا يغلقون المعسكر فمثل هذا المعسكر والمعسكرات الأخرى ذات الأسوار العالية لها استخدامات أخرى وسيكون لكل العاملين على حراسة الضعفاء والعجزة الحق فى الحصول على إجازة نهاية الأسبوع، كانت خدمات السكك الحديدية قد تدهورت وأصبحت أسوأ مما كانت عليه مما نتج عنه تأخير وصول حصة أنابيب التغذية، وكان من المفترض وصول حصة شهر نوفمبر، سمع «نويل» من مصدر موثوق أن الحرب كانت مشتعلة الأسبوع الماضى فى (دوآر) فحدثت أعطال كثيرة فى الطريق.

....

اشتريت قطعة من الجوز من أحد الباعة الجائلين فى الطريق الرئيسى وقمت بتقطيعها إلى شرائح، ثم وضعتها فى المحمصة للشواء، وقلت لـ «مايكل» بعد أن ساعدته على الاستناد إلى الوسادة: إنها ليست قرع العسل لكن لها الطعم نفسه تقريبا.

تناول قضمة ورحت أراقبه وهو يضعها فى فمه، ثم قلت: هل تعجبك؟

أشار برأسه.

كنت قد قمت برش قليل من السكر فوق شريحة الجوز، غير أننى لم أتمكن من العثور على القرفة، تعمدت أن أغادر بعد لحظة حتى لا يشعر بالإحراج، وعندما عدت كان نائما وكان طبق الجوز

فارغا بجواره، لكننى افترضت أن «فيليستى» حين تأتى للتنظيف فى المرة القادمة فإنها ستجد الجوز وقد غطته الحشرات ملقى تحت السرير، ياللأسف.

سألته بعد حين: ما الذى حثك على الأكل؟

لم يقل شيئا وظل صامتا لفترة طويلة فاعتقدت أنه استسلم للنوم، لكنه تنحنح بعد ذلك، وقال: لم يهتم أحد من قبل بطعامى ولذلك فإننى أتساءل عن سبب اهتمامك.

أجبت قائلا: لأننى لا أرغب فى رؤيتك وأنت تتضور من الجوع حتى الموت؛ لأننى لا أريد أن أرى أى شخص هنا وهو يموت من الجوع.

أعتقد أنه لم يسمع إجابتى وتحركت شفتاه المشققتان بطريقة تنبئ عن خوفه من فقدان بعض الأفكار التى تدور فى ذهنه، فقلت لنفسى متسائلا: ماذا أعنى أنا بالنسبة إلى ذلك الرجل؟ وما الفرق لديه إذا كنت حيا أو ميتا؟

ثم قلت له: قد تسألنى أيضا عن السبب الذى من أجله لا نطلق النار على المساجين، إنه السؤال نفسه...

حرَّك رأسه من جانب إلى آخر، ثم فتح عينيه ورمقنى بنظرة زائغة، فلم أستطع الاستطراد فى حديثى مع أننى كنت راغبا فى قول المزيد، وبدا واضحا أن المناقشة أو الجدل مع شخص ينظر

إليك بمثل تلك النظرة وكأنه قادم لتوه من المقبرة هو أمر أحمق ومثير للضحك.

ظل كلانا يحدِّق فى الآخر لحظات طويلة، ثم وجدت نفسى أتحدث، ولكنه كان حديثا هامسا، فكرت أثناء حديثى فى الاستسلام ونسيان أمره تماما، لكننى عُدت وتساءلت مرة أخرى عما أعنيه أنا بالنسبة إلى ذلك الرجل.

كان قلبى يدق حين قلت له: لم أطلب منك أن تأتى إلى هنا، كل شىء كان على ما يرام قبل مجيئك وكنت سعيدا ولذلك فإننى أتساءل: لماذا أنا؟

أغلق عينيه مرة ثانية وكان حلقى جافا فتركته وذهبت إلى الحمام وشربت، ثم وقفت مدة طويلة مستندا إلى الحوض وقد غمرنى الندم والأسف ورحت أفكر فى المتاعب القادمة، عدت إليه حاملا كوبا من الماء، وقلت: إذا كنت لا ترغب فى الطعام فأنت حر ولكن يجب أن تشرب.

ساعدته فى النهوض من رقدته ثم تناول جرعة قليلة من الماء.

....

عزيزى «مايكل»:

الإجابة عن سؤالك كالتالى: لأننى أريد معرفة حكايتك، أريد معرفة كيفية اشتراكك فى الحرب وأنت لست جنديا، أنت يا

«مايكل» تمثل صورة هزلية وأنت مهرج ورجل متبلد وعديم الحيوية، ما عملك فى هذا المعسكر؟ نحن لا نستطيع عمل شىء لإنقاذك من فكرة الانتقام لما حدث لأمك التى تزورك بشعرها المحترق فى أحلامك (هل فهمت قصة أمك بشكل صحيح؟ على أية حال فلقد فهمتها على هذا النحو)، وما المطلوب منا لكى نعيد تأهيلك ونعمل على إصلاحك؟ هل يكون ذلك بأن تعمل فى صنع السلال أو قص الأعشاب مثلا؟ أنت شخص تافه يا «مايكل»، وغريب لمن هم على شاكلتك أن يقفوا فى مواجهة حيوانات العالم المفترسة بمفردهم، أنت كالحشرة التى سقطت وسط كمية كبيرة من الخراسانة المسلحة، إنك ترفع قدميك النحيلتين وتتقدم ببطء محاولا الاندماج فى شىء ما لكنك لا تجد شيئا، لماذا تغادر الأدغال دائما يا «مايكل» حيث هى المكان الذى تنتمى إليه؟ كان ينبغى عليك أن تبقى طوال حياتك متشبثا بالأدغال والشجيرات التى لا يمكن وصفها وتبقى فى ركن هادئ من البستان المجهول وتنعم بالسلام، ويكون بمقدورك عندئذ أن تفعل كل ما تفعله الحشرات للحفاظ على حياتك كأن تقضم ورقة هنا وهناك وتأكل اليرقات الغريبة وتشرب من قطرات الندى، يجب أن تتخلص من حكاية أمك الكابوسية، وتبدأ حياة جديدة مستقلة، لقد أخطأت خطأ كبيرا يا «مايكل» عندما لم تستطع نسيان حكاية أمك، وظللت تفكر فيها دائما وهربت من المدينة المحترقة، بحثا عن الأمان فى الريف؛ لأننى حين أفكر فيك

وأنت تحمل أمك وتلهث مختنقا من الدخان محاولا تجنب طلقات الرصاص فإننى أفكر أيضا فيها وهى قابعة فوق كتفيك فتجعلك غير قادر حتى على التفكير مما جعلك تخطط الآن للحاق بها، إننى أتساءل يا «مايكل» عن عدم رؤيتك لى حين تفتح عينيك عن آخرهما، إنك لا ترى جدران المستشفى البيضاء والأسِرَّة الفارغة، ألا ترى «فيليستى» بطرحتها البيضاء؟ قل لى ما الذى يمكنك أن تراه؟ هل هى أمك التى تراها بتلك الهالة من اللهب حول شعرها وهى تشير لك بإصبعها المعقوف وتبتسم ابتسامة عريضة كى تلحق بها؟ هل يفسر ذلك لا مبالاتك وعدم اهتمامك بالحياة؟

الشىء الآخر الذى أرغب فى معرفته هو نوع الطعام الذى كنت تتناوله فى البرية الذى جعلك غير قادر على تذوق كل أنواع الطعام الأخرى، أنت لم تتحدث عن أى نوع من الطعام سوى قرع العسل حتى إنك تحمل بذور قرع العسل معك فهل لا يعرفون فى (كارو) سوى قرع العسل؟ وهل يجب أن أصدق أنك بقيت على قيد الحياة لمدة عام كامل دون أن تأكل شيئا غير قرع العسل؟ إن الجسد البشرى غير مؤهل لذلك يا «مايكل»، قل لى عن شىء آخر كنت تأكله، هل كنت تصطاد؟ هل صنعت لنفسك رمحا وبعض السهام للصيد؟ هل تناولت الجذور وحبات التوت؟ هل أكلت الجراد؟ تقول أوراقك إنك كنت تعيش على غذاء ينزل من السماء فهل كان ذلك الغذاء يهبط من السماء خصيصا لك؟ وهل كنت تقوم بتخزين ذلك

الغذاء فى علب تحت الأرض من أجل أصدقائك؛ لكى يشاركوك إياه فى الليل؟ هل لهذا السبب كنت لا تقبل طعام المعسكر؟ هل لأنك كنت مدللا بطعام السماء ذى المذاق الخاص؟

يجب أن تختفى يا «مايكل» فأنت لا تبالى بنفسك على الإطلاق، يجب أن تمضى بعيدا وتذهب للاختباء فى حفرة عميقة مظلمة حتى تنتهى كل متاعب الحياة ومشاكلها، هل تعتقد أنك روح مجهولة ولا يمكن رؤيتها أم أنك مجرد زائر فى كوكبنا؟ هل أنت مخلوق لا يمكن أن تطالك قوانين الدولة؟ حسنا، إن قوانين الدولة رابضة فى قبضة يدك، إنها القوانين التى تربطك الآن فى السرير تحت منصة مضمار (كينيلورث) القديم وإذا لزم الأمر فإنهم سيلقون بك وسط القاذورات، إن القوانين يا «مايكل» ليس لها قلب وأتمنى أن تعى ذلك، كما أنهم لن يرحموك لنحافتك وعجزك، لا مكان للأرواح الكونية إلا ربما فى القارة القطبية الجنوبية أو فى أعالى البحار.

إذا لم تحاول توفيق أوضاعك فإنك ستموت يا «مايكل» ولا تعتقد أنك ستنتهى هكذا ببساطة، لا تتصور أنك ستتحول إلى روح يمكنها أن تطير فى الأثير، لقد اخترت طريقة مؤلمة وبائسة للموت، إنها طريقة مخجلة ومؤسفة يا «مايكل»، أنت تمضى بسرعة نحو الموت ولتعلم أن قصتك ستموت معك للأبد إلا إذا عدت إلى رشدك واستمعت لى، اسمعنى إذن يا «مايكل» فأنا الشخص الوحيد الذى يمكنه إنقاذك وأنا الوحيد الذى يراك على حقيقتك، إننى الوحيد

الذى يهتم بك وأنظر إليك كحالة إنسانية بعيدا عن أى تصنيفات وأراك روحا لم تتأثر بأى مذهب أو عقيدة، روحا خارج التاريخ وروحا ترفرف بأجنحتها من داخل تابوت حجرى صلد وتتذمر من خلف قناع أخرق، أنت شخص رائع يا «مايكل» وذو قيمة كبيرة وفريد من نوعك، أنت مخلوق قادم من العصور السحيقة مثل أسماك الكويلاكانس، لقد تعثرنا جميعا واصطدمنا بحافة بوتقة التاريخ لكنك وحدك الذى يتبع تلك الطريقة البلهاء، هل ينبغى علينا أن نقدرك ونحتفل بك؟ وهل يتوجب علينا أن نضع ملابسك فى المتحف ونضع معها أيضا كيس بذور قرع العسل الذى تحمله ومعه ملصق مع تثبيت لوحة معدنية فوق جدران حلبة السباق إحياء لذكرى إقامتك هنا؟ لا، إنها ليست الطريقة التى ستسير عليها الأمور فالحقيقة أنك ستمضى نحو الهاوية وستفنى بطريقة غامضة وسيدفنونك فى حفرة دون اسم فى أحد أركان حلبة السباق ولن يتذكرك أحد غيرى إلا إذا استسلمت أخيرا وفتحت فمك لتتكلم، أرجوك يا «مايكل» وأتوسل إليك أن تتكلم.

صديق

....

بعد كثير من الشائعات قالوا أخيرا كلمة واضحة ومحددة عن القادمين هذا الشهر، كانت الدفعة الرئيسية واقفة فى (ريديرسبورج) فى طابور انتظارا لنقلها، أما بالنسبة إلى القادمين

من (كيب الشرقية) فلن تأتى أبدا، ولم يعد لدى معسكر الجنود فى (أويتنهاج) ما يكفى من الجنود للفصل بين المساجين الذين يشكلون خطرا وبين المساجين العاديين، وكان كل المعتقلين فى هذا القطاع تحت حراسة مشددة إلى حين صدور أوامر أخرى.

مضى يوم العطلة فى المعسكر ببطء شديد، وكانوا قد اتفقوا على إقامة مباراة فى لعبة الكرة والمضرب غدا بين العاملين فى المعسكر وفريق آخر، كانت المباراة حماسية ومليئة بالكر والفر، وكان «نويل» هو كابتن الفريق رغم أنه لم يمارس اللعبة منذ ثلاثين عاما كما قال، حتى إنه لم يستطع أن يجد الملابس الرياضية المناسبة له.

حضر «نويل» للتفتيش ولم يكن موجودا فى العنبر سوى اثنين من المساجين أحدهما «مايكل» وحالة أخرى كانت مصابة بارتجاج فى المخ، تحدثنا بصوت خفيض عن «مايكل» رغم أنه كان نائما وقلت مخاطبا «نويل»: كنت لا أزال قادرا على إنقاذه إذا كنت قد استخدمت الأنبوبة، لكن الأمر يصبح كريها حين تحاول إجبار شخص ما على العيش فى الوقت الذى يكون فيه رافضا للعيش، أعرف أن القوانين واللوائح تقيدنى، تلك القوانين التى تنص على عدم إكراه المريض على الأكل وعدم محاولة الإنقاذ وإطالة العمر.

سألت «نويل»: كم من الوقت مضى عليه وهو فى هذه الحالة؟

ربما أسبوعان.

قلت له: وربما ثلاثة.

قال: إنها نهاية هادئة على الأقل.

قلت بسرعة: لا، إنها نهاية مؤلمة ومفجعة.

سألنى: ألا تستطيع أن تحقنه بنوع معين من الحقن؟

أجبت: أتقصد القضاء عليه؟

قال: لا، أنا لا أعنى القضاء عليه، ولكننى أقصد شيئا يساعده على الموت بطريقة أسهل.

رفضت الفكرة وقلت: لا أستطيع تحمل مثل تلك المسئولية، بينما ما زالت الفرصة قائمة لتغييرأفكاره.

....

أقيمت المباراة وفاز الفريق الآخر، قفز ضاربو المضرب لتجنب ضربة إرسال فوق العشب غير المنبسط. وكان «نويل» يلعب ببدلة السباق البيضاء المخططة باللون الأحمر الفاتح فبدا كالأب فى حفلة رأس السنة، سألته: أين تعلمت لعبة المضرب؟

أجاب: فى (موريسبيرج) عام ١٩٣٠ بملعب المدرسة أثناء استراحة الغذاء.

أقاموا حفلا صاخبا فى الليل بعد انتهاء المباراة وحددوا موعد مباراة العودة فى فبراير فى مدينة (سيمون).

....

سيطر اليأس على «نويل» بعدما سمع اليوم أن (أوتينهاج) ليست سوى البداية، وأن التمييز بين معسكرات التأهيل ومعسكرات الاعتقال لم يعد ساريا وأنهم أغلقوا أحد تلك المعسكرات الأربعة وبقى منها ثلاثة بينها معسكر (كينيلورث) ستتحول إلى معسكرات اعتقال.

قلت متسائلا: هل تعنى يا «نويل» أنك ستقوم باعتقال الجنود هنا فى (كينيلورث) والزج بهم خلف الأسوار والأسلاك الشائكة مع عدد قليل من كبار السن والصبية؟

أجاب قائلا: لقد وضعوا فى اعتبارهم عيوب معسكر (كينيلورث) وسوف يقومون بعمل بعض التعديلات على الإضاءة وأبرج الحراسة قبل أن يعيدوا افتتاحه.

أخبرنى «نويل» أنه يفكر فى الاستقالة، إنه فى الستين من عمره ولقد خدم وقتا طويلا من حياته، كما أن لديه ابنة أرملة كثيرا ما ضغطت عليه للعيش معها فى خليج جوردون، قال لى: أنت فى حاجة لرجل قوى لإدارة معسكر شاق كهذا وأنا لست ذلك الرجل.

لم أستطع الاختلاف معه، كان «نويل» على حق.

....

عندما وصلت «فيليستى» فى الصباح لاحظت عدم وجود «مايكل» فوق سريره، لا بد أنه هرب فى الليل، لم تعلن «فيليستى»

عن غيابه فقد خطر بذهنها أنه لم يهرب لكنه ذهب إلى الحمام، لم تكن الحراسة كافية فى المعسكر باستثناء أولئك الجنود المكلفين بحراسة البوابة الرئيسية وبوابة العاملين، لم تكن هناك دوريات تحيط بالحدود الخارجية وكانت البوابة مغلقة، فلم نعد نفكر فى أمر «مايكل»، ربما يكون قد خرج بعد أن تسلق الجدار (الله وحده يعلم كيف يستطيع التسلق بحالته المزرية) وفر بعيدا ولكن الأسلاك الشائكة كانت سليمة، لا بد إذن أنه تسلل من خلال أى شىء؛ لأن جسده نحيل ولا يتعدى كونه شبحا أو طيفا.

وقع «نويل» فى مأزق، فالإجراءات المحددة تتطلب كتابة تقرير عن حالة الهرب، وتمريره إلى الشرطة المدنية، غير أن مثل تلك الحالة سيترتب عليها القيام بتحقيق شامل وستتدخل وزارة الخارجية بلا شك، وسيقف كل طاقم الموظفين فى الممرات الليلية ولن تتوقف الدوريات الراجلة وإذا لم يحدث ذلك فإنهم سيلفقون تقريرا بالوفاة وينسون أمر «مايكل».

ناشدت «نويل» قائلا: أرجوك أن تنسى قصة «مايكل» تماما فلقد رحل المغفل المسكين كالكلب المريض ليلقى حتفه فى مكان ما، دعه يموت فى أى مكان ولا تحاول إعادته وإجباره على الموت هنا على مرأى من أعين الغرباء.

ابتسم «نويل» فقلت: أنت تبتسم، لكننى أقول الحقيقة فالناس من أمثال «مايكل» مرتبطون بأشياء لا أفهمها أنا ولا تستطيع أنت

أن تفهمها أيضا، إنهم يسمعون نداء الرب فيطيعون، ألم تسمع عن الأفيال؟

استطردت قائلا: على «مايكل» ألا يعود أبدا إلى هذا المعسكر، كان وجوده هنا خطأ، وفى الواقع أن حياته كلها منذ البداية وحتى النهاية كانت خطأ، وعلى الرغم من إدراكى بقسوة ووحشية ما سوف أقوله فإننى سأقوله، كان لا ينبغى أبدا أن يولد شخص ما ويتم الزج به فى العالم بتلك الطريقة التى حدثت مع «مايكل» وكان من الأفضل بالنسبة إلى أمه أن تخنقه عندما شاهدت شكله ثم تضعه بعد ذلك فى صندوق القمامة، والآن أرجوك أن تتركه وشأنه، سأكتب شهادة الوفاة وعليك أن تصدِّق على توقيعى وسوف يضعها الموظف فى الملف دون حتى أن ينظر إليها وهكذا تكون نهاية قصة «مايكل».

قال « نويل»: إنه يرتدى البيجاما الكاكى الخاصة بالمعسكر وسوف تقبض الشرطة عليه وتسأله عن المكان الذى كان فيه، ولا شك أنه سيخبرهم بأنه جاء من معسكر (كينيلورث)، وعندما يقومون بمراجعة الملفات لن يجدوا أى تقرير يفيد بالهرب، عندئذ فلنذهب إلى الجحيم.

أجبته قائلا: لم يكن يرتدى بيجاما المعسكر؛ لأنه ترك بيجامته فوق السرير وليتنى أعرف ما يرتديه الآن، أما فيما يتعلق باعترافه

أنه قادم من معسكر (كينيلورث)، فإنه لن يفعل ذلك لسبب بسيط جدا وهو أنه لا يريد العودة إلى (كينيلورث)، سوف يخبرهم بواحدة من قصصه الأخرى فبمقدوره مثلا أن يقول لهم: إنه قادم من بستان الجنة. سيضع أمامهم كيس بذور قرع العسل، ويقوم بهزه، ثم سيبتسم لهم، وعندئذ سيضعونه فى السيارة ويسارعون لإيداعه مستشفى المجانين. لقد استمعت يا «نويل» إلى آخر كلماته بالإضافة إلى أنك تعرف أن وزنه كان خمسة وثلاثين كيلو، أنت تعرف أنه مجرد جلد على عظم فهو لم يتناول أى طعام طيلة أسبوعين كاملين، لقدْ فقد جسده القدرة على استيعاب المواد الغذائية العادية حتى إننى مندهش لكونه كان قادرا على الوقوف والمشى، إن تسلقه للجدار كان معجزة ولا أدرى كم استغرق من الوقت فى تسلق الجدار، سيموت ذات ليلة فى العراء بعد تعرضه لعوامل الجو وسيتوقف قلبه.

قال «نويل»: عن أى شىء تتحدث؟ هل تحقق أحد من أنه لا يرقد فى مكان ما خارج الأسوار، لا بد أنه سقط فى الناحية الأخرى أثناء محاولته تسلق الجدار.

انتصبت واقفا فأضاف: وإذا أردت التحقق من كل شىء وبكل الطرق فعليك بذلك ويمكنك استخدام سيارتى.

لم أستخدم السيارة، لكننى قمت بجولة حول المعسكر على أقدامى، كانت الأعشاب الضارة تنمو بغزارة حول محيط المعسكر، وحين مررت بجوار الجدار الخلفى بذلت مجهودا كبيرا فى العبور، لم أشاهد أى شخص ولم أجد أى قطع فى الأسلاك، عدت فى خلال نصف ساعة إلى المكان الذى بدأت منه، كانت دهشتى كبيرة حين رأيت المعسكر من الخارج صغيرا، الذى يبدو بالنسبة إلى قاطنيه هو العالم بأسره وبدلا من العودة إلى «نويل» وإخباره بما رأيت رحت أتجول فى شارع (روزميد) تحت ظلال أشجار البلوط محاولا الاستمتاع بهدوء منتصف النهار، مر بجوارى رجل عجوز كان يقود دراجة لا تتوقف عن إصدار أصوات مزعجة، رفع الرجل يده للتحية وفكرت لو أننى تتبعته ومضيت قدما فى الشارع وفى خط مستقيم حتى أصل إلى الشاطئ عند الساعة الثانية فسألت نفسى: هل هناك ما يستدعى عمل ذلك، هل ثمة سبب محدد يفرض علىَّ الذهاب إلى الشاطئ؟ ولماذا لا يتم تقويض الأوامر والإخلال بالنظام اليوم وليس غدا أو فى العام القادم؟ وما أعظم الفوائد التى ستعود على الجنس البشرى إذا أمضيت فترة ما بعد الظهر فى المستوصف أو إذا ذهبت إلى الشاطئ وخلعت ملابسى ورقدت بملابسى الداخلية؛ لأتنسم رحيق الربيع الجميل ولكى أنعم بدفء الشمس وبمراقبة لهو الأطفال ومرحهم فى الماء، ثم لشراء الآيس كريم من الكشك المجاور لساحة الانتظار إذا كان الكشك

لا يزال موجودا فى مكانه، ما الذى حققه «نويل» أخيرا بالعمل المتواصل فوق مكتبه فى رصد الداخل والخارج؟ أليس من الأفضل له أن يغفو قليلا؟ وربما ستتضاعف السعادة فى العالم كله إذا قمنا بالإعلان عن أن هذا المساء إجازة للجميع، ثم سارعنا بالذهاب إلى الشاطئ؛ القائد والطبيب والقس والحراس والموجهون وأولئك الذين يمسكون بالكلاب للحراسة مع ستة من الحالات الخطرة فى مبنى الاعتقال، ربما نلتقى هناك ببعض الفتيات فما السبب الذى من أجله قمنا بالحرب إن لم يكن من أجل زيادة نسبة السعادة فى العالم ؟ أم أننى لا أتذكر جيدا؟ فهل هى حرب أخرى التى كنت أفكر فيها؟

ذكرت فى التقرير أن «مايكل» غير موجود خارج الأسوار وأنه لا يرتدى ملابس المعسكر الكاكى التى يمكن أن تتسبب فى إدانتنا، إنه يرتدى ملابس العمل البسيطة المزركشة وهكذا نستطيع أن ننكره دون أن نشعر بالقلق.

كان الإرهاق واضحا فوق وجه «نويل» وبدا فى تلك اللحظة رجلا عجوزا فقلت: هل بمقدورك أن تذكرنى أيضا بالسبب الذى من أجله نقاوم هذه الحرب؟ لقد أخبرتك ذات مرة منذ زمن بعيد عن السبب فى مناهضة تلك الحرب ولكن يبدو أننى نسيت الآن.

قال «نويل»: نحن نناهض هذه الحرب لكن الأقليات لديها ما تقوله بخصوص مصائرها.

تبادلنا بعض النظرات الخالية من أى معنى وأدركت أنه لن يستطيع مشاركتى أفكارى مهما كانت حالتى المزاجية.

قال: أعطنى شهادتك المكتوبة ولكن لا تكتب التاريخ، فليكن مكان كتابة التاريخ شاغرا.

بينما كنت جالسا إلى مكتب الممرضة فى المساء لا أجد شيئا أفعله، وكان العنبر مظلما، خطر بذهنى فجأة أننى أبدد حياتى بتلك الطريقة التى أعيش بها من يوم إلى آخر فى حالة من الانتظار وشعرت أننى سجين لتلك الحرب، خرجت ووقفت فى مضمار السباق الخالى وأنا أحدِّق فى السماء، كانت السماء صافية بعد أن هبَّت الرياح وتمنيت أن أتخلص من روح الضجر والقلق وأن يعود الهدوء القديم، إن الزمن الذى تستغرقه الحروب هو زمن ضائع؛ لأنه زمن الانتظار كما قال «نويل» ذات مرة، نحن لا نفعل شيئا فى المعسكر سوى الانتظار ونمضى فى الحياة للوفاء بالضروريات فقط فى حين نضع آذاننا فوق سطح الجدار؛ لنستمع إلى أصوات الحرب من خلفه على أمل حدوث التغيير، إننى ما زلت أتساءل بشأن «فيليستى» وأقول: هل فكرت فى نفسها ذات مرة أنها تعيش فى حرمان وفى أنها شخص خارج الزمن؟ هل تدرك أنها ما زالت تتنفس لكنها ميتة فى الوقت نفسه الذى يمضى فيه التاريخ فى اختيار مساره دون اعتبار لأحد؟ «فيليستى» بحكم عملى معها

ومعرفتى بها لا تدرك شيئا عن التاريخ سوى ما تعلمته فى الطفولة كالسؤال مثلا عن العام الذى تم فيه اكتشاف جنوب أفريقيا وربما تستطيع أن تجيب قائلة: فى العام ١٦٥٢.

أعتقد أن «فيليستى» لا تدرك أن الأيام تتسرب من بين أيادينا وسط جبهات القتال وبين المواقع الحربية، وكذلك فى المصانع وفى الشوارع وفى الغرف المخصصة للمجالس الإدارية وفى مكاتب مجالس الوزراء، تتسرب الأيام فى البداية بشكل غامض، ثم تجنح نحو لحظة من التجلى والوضوح يظهر التاريخ من خلالها فى ثوب المنتصر، وإذا كنت قد أخطأت فى معرفة «فيليستى» فهى على الأقل لا تفكر فى نفسها على أنها منبوذة والوقت الذى تمضيه داخل المعسكر ووقت الانتظار ووقت الحرب بالنسبة إليها مجرد أوقات، وكذلك تلك الأوقات التى تقوم فيها بغسل الملاءات وكنس الأرضيات فى حين أننى منشغل بالعلاقات الصغيرة والتافهة التى تحدث فى المعسكر فهل أنا أستخف بقدر «فيليستى»؟ إن أولئك الذين يعيشون كالموتى ولا يدركون ما يدور حولهم يعانون أكثر من أولئك المشغولين بالتساؤلات.

على الرغم من الارتباك والحيرة التى نعانى منهما، فإننى وجدت نفسى أفكر، وأتمنى أن يأتى أحد رجال الشرطة وهو ممسك بمؤخرة رقبة «مايكل» كالدمية الخرقاء ويقول: يجب أن تشددوا الحراسة على أولئك الأوغاد.

إن «مايكل» بخياله الجامح ورغبته فى العمل على ازدهار الصحراء وإغراقها بحبات قرع العسل لهو شخص مختلف عن أولئك المشغولين جدا والأغبياء جدا الذين لا يتوقفون عن متابعة حركة التاريخ.

....

وصلت فى الصباح قافلة من الشاحنات فجأة ودون سابق إنذار، كانت الشاحنات تقل أربعمائة سجين جديد وقد توقفت فى البداية عند (ريديرسبورج) لمدة أسبوع، ثم عند الشريط الشمالى لـ (بوفورت الغربية).

كنا طوال الوقت نمارس مختلف أنواع الألعاب هنا وكنا نمضى الوقت مع صديقاتنا، ونتناقش بطريقة فلسفية عن أمور الحياة والموت والتاريخ، وكان أولئك الرجال ينتظرون فى شاحنات الماشية المصطفة فى جانب الطريق تحت لهيب شمس نوفمبر، وكانوا ينامون متكدسين فوق بعضهم البعض فى صقيع ليالى الجبال والمرتفعات، وكانوا يسمحون لهم بالخروج مرتين فى اليوم للترويح عن أنفسهم، وكانوا يقتاتون على العصيدة التى يصنعونها فوق نار خشب الشجيرات بالقرب من الطريق فقط، كما كان العنكبوت ينسج خيوطه بين عجلات الشاحنة التى ينامون فيها.

قال «نويل»: إنه سيرفض استلام هذه الدفعة من المساجين حتى شمَّ رائحتهم، وشاهد مقدار التعب والعجز الذى يعانون منه، وعرف

لو أنه اختلق الصعاب ووقف عقبة فى طريق استقبالهم فإنهم سيعودون ببساطة إلى ساحات السكك الحديدية وسيقودونهم كالقطيع إلى الشاحنات نفسها حيث يمكنهم انتظار الموت.

لم يستطع «نويل» أن يرفض استلامهم فبدأنا جميعا نعمل طوال اليوم دون أن يتوفر لنا وقت للراحة، ورحنا نعالجهم، ونزيل القمل عنهم، كما قمنا بإحراق ملابسهم، وأجبرناهم على ارتداء زى المعسكر، ثم أطعمناهم وزودناهم بجرعة من الدواء، فصلنا بعد ذلك المرضى عن الذين يتضورون من الجوع وكان العنبر والجناح الملحق به مزدحما عن آخره، وكان بعض المرضى الجدد يعانون من حالة الضعف نفسها التى يعانى منها «مايكل» والذى أعتقد أنه قارب على الموت.

قال لنا المساجين: إن عشرين حالة وفاة على الأقل حدثت فى الطريق، وقد تم دفنهم فى مقابر غير معروفة فى الواحة، راجع «نويل» الأوراق فسألته: لماذا لم تطلب مستندات الدخول؟

أجاب: سيكون ذلك ضياعا للوقت؛ لأنهم سيقولون إن الأوراق لم تأت بعد، إن الأوراق لا تأتى أبدا معهم ولا أحد يريد أن يتحمل المسئولية ويعرِّض نفسه للمساءلة، ثم من الذى قال إن وفاة عشرين من أربعمائة هو معدل مرفوض؟ الناس تموت، يموت الناس طوال الوقت، إنها الطبيعة البشرية ولا تستطيع إيقاف ذلك.

لم نستطع أنا و«فيليستى» بصراحة أن نواجه ذلك العدد الكبير من مرضى الإسهال والالتهاب الكبدى، وبالطبع فلقد كان عسيرا علينا التعامل مع أولئك الذين يعانون من الفيروسات الدودية المتنقلة فوافق «نويل» على وجوب تجنيد اثنين من المساجين للعمل على مساعدتى.

كانت تقارير الترقيات الخاصة بمعسكر (كينيلورث) فى طريقها إلى العرض على الجهات الأمنية، وكان محددا للأول من مارس موعدا للتغيير وستكون حركة التغيير والتبديل كبيرة وسوف تشمل إصلاح المدرجات والمنصات والأكواخ حتى يتمكنوا من تسكين خمسمائة سجين جديد، اتصل «نويل» بالبرج؛ ليشكو من التقصير فى الرد على ملاحظاته، فطلبوا منه أن يهدئ من روعه وأخبروه أن كل شىء سيكون على ما يرام، ثم طلبوا منه أن يعمل الرجال على تطهير الأرض وتسويتها، وقالوا أيضا: إذا كانت الأرض مليئة بالأعشاب فعليهم أن يحرقوها وكذلك عليهم إزالة الأحجار من الطريق.

ثم أضافوا قائلين: تمنياتنا لك بحظ سعيد.

ساورنى إحساس أن «نويل» بدأ فى تناول الشراب أكثر من المعتاد، وربما كان ذلك الوقت هو الأفضل لكلينا الذى نستطيع خلاله أن نهجر المعتقل، وليقم المساجين بحراسة بعضهم البعض، وليعالج المرضى بعضهم البعض، وربما يتوجب علينا الاقتداء بـ «مايكل» والذهاب فى رحلة إلى أحد أحياء المدينة الهادئة كتلك المناطق المجهولة فى (كارو) مثلا، حيث نستطيع أن نؤسس بيتا.

فكرت بينى وبين نفسى قائلا: ها هما رجلان يهربان من الأوساط المكبلة بالقيود ومن العادات التقليدية، غير أن عدم القبض عليهما مثلما فعل «مايكل» لهو أمر فى غاية الصعوبة، لكننا نستطيع أن نبدأ بالتخلى عن ملابسنا الرسمية وارتداء الملابس البالية، ووضع بعض القاذورات تحت أظافرنا، ثم المضى قدما نحو الطريق على الرغم من أننا مهما حاولنا فإننا لن نستطيع أبدا أن نبدو مثل حالة «مايكل» التى يعجز المرء عن توصيفها.

حين أتذكر «مايكل» يتراءى لى دائما أن شخصا ما كان يعبث بحفنة من التراب، وبعد أن بصق عليها صنع منها ذلك الرجل البدائى، لكنه أخطأ فى شيئين أولهما الفم، ثم دون شك محتويات الرأس بعد أن أسقط من حساباته كل الأحاسيس الجسدية المتعلقة بالجنس الآخر.

قلت لنفسى: سامحنى يا «مايكل»؛ لأننى لم أستطع أن أفهمك جيدا ولأننى كنت أعاملك بتلك الطريقة، لم أستطع أن أعرفك على حقيقتك إلا فى الأيام الأخيرة، وسامحنى أيضا؛ لأننى أحاول أن أفعل مثلك وأتتبع خطاك كما أعدك أننى لن أثقل عليك، لن أكون عبئا عليك كما كانت أمك وإلا فإننى سأكون قد ارتكبت عملا طائشا، لن أطلب منك الاعتناء بى ولن أحملك مسئولية إطعامى لكن احتياجى يتمثل فى شىء بسيط جدا، نحن نعيش فى بلد كبير وشاسع حتى يخيل لك بوجود مكان لكل شخص، أخبرنى إذن يا

«مايكل» عن الأشياء التى تعلمتها عن الحياة هنا ولا تصلح للحياة خارج المعتقلات والمعسكرات، أعرف أن هناك مناطق ومساحات أخرى تقع بين معسكرات الاعتقال، لكنها لا تنتمى إلى تلك المعسكرات ولا إلى مناطق التجمعات مثل بعض الجزر فى وسط المستنقعات وبعض الأماكن القاحلة التى قد يرى الإنسان أنها ليست أسوأ من المكان الذى يعيش فيه، إننى أتطلع لمثل تلك الأماكن؛ لكى أستقر بها وربما إلى حين أن تتحسن الأمور أو للأبد، لن أعتمد الخرائط والطرقات دليلا لى؛ لأننى لست أحمق بما يكفى ولذلك وقع اختيارى عليك لترشدنى إلى الطريق.

قد أخطو بعد ذلك للاقتراب منك أكثر حتى أصل إلى المسافة التى تستطيع من خلالها أن ترى بعينى، كنت أسأل نفسى منذ اللحظة التى وصلت فيها يا «مايكل» قائلا: هل استيقظت من غفوتى وبدأت فى تتبعك؟

عرفت أنك لا تنتمى إلى عالم المعسكر وأن طبيعتك لا تتناسب مع الحياة داخله، ويجب أن أقر أننى فى البداية كنت أنظر إليك كشخص مثير للهزل، لكننى فى الحقيقة طلبت بإلحاح من الرائد «رينسبرج» إعفاءك من الالتزام بقوانين المعسكر ونظامه؛ لأننى كنت أعتقد أن انضمامك لنظام إعادة التأهيل قد يكون مثل محاولة تعليم الفأر أو السحلية على النباح والتسول والإمساك بالكرة، ومع مرور الوقت بدأت أدرك ببطء مدى جديتك فى المقاومة، أنت لست

بطلا ولم تدع ذلك يوما كما أنك لست بطلا للصيام فأنت لم تقاوم فى الواقع قط، وعندما طلبنا منك أن تقفز لم تتردد وعندما كررنا طلبنا قفزت مرة ثانية، لكننا حين طلبنا ذلك للمرة الثالثة؛ فقد وقعت على الأرض فى حالة من الانهيار، لقد فشلت فى المرة الثالثة؛ لأنك لم تجد أسبابا مقنعة لإطاعتنا، ساعدناك عندئذ على الوقوف واكتشفنا أن وزنك لا يتعدى وزن كيس من الريش، ثم قدمنا لك الطعام وقلنا لك: فلتأكل، لا بد أن تأكل لتصبح قويا وتستطيع أن تقف على قدميك.

لم ترفض يا «مايكل» وأعرف أنك حاولت بجدية وقد خضعت لإرادتك، هكذا كنت أرى، وكان جسدك رافضا للطعام الذى نقدمه لك حتى أصبحت أكثر نحافة وذبولا، سألت نفسى بعد ذلك: لماذا لا يأكل هذا الرجل بينما هو يتضور جوعا؟

ثم بدأت أفهم الحقيقة بعدما ظللت أراقبك يوما بعد يوم، أدركت أنك تصرخ فى السر، كنت تطلق الصرخات داخلك غير واع لنفسك طالبا نوعا مختلفا من الطعام، كنت تتمنى نوعا من الطعام لا يقدمونه فى المعسكر فتعلمت أن الجسد لا يرفض الحياة ولا يتناقض مع نفسه، كما تعلمت أيضا أن الانتحار ليس فعلا يقوم به الجسد ضد نفسه لكنه فعل للإرادة ضد الجسد.

عرفت فيما بعد أن جسدك لا يغير من طبيعته، لكنه يمضى نحو الموت، وحين وقفت لعدة ساعات عند مدخل باب العنبر وأنا أراقبك

وأحاول فهم ذلك اللغز الذى هو أنت عرفت أنك لا تريد أن تموت غير أنك كنت تمضى نحو الموت بخطى سريعة، كنت كالأرنب النحيل الملتصق بجسد ثور كبير، ومن المؤكد أنك كنت تشعر بالاختناق، لكنك كنت تتضور من الجوع أيضا وسط كل ذلك الكم من لحم الثور.

من مكان ما فى منتصف المسافة خلفنا سمعت صوت رجل يسعل ولا يتوقف عن البصاق، ثم شممت رائحة خشب محترق، لكننى استطعت بعينى المتيقظة أن أراك وكنت أنا الوحيد الذى يراك كما أنت وليس كما يبدو عليك، وساورنى شعور بأنك لست مجرد مريض ولست مجرد حالة عرضية من حالات الحرب، كنت ترقد فوق سريرك تحت النافذة مستظلا بأضواء الشموع، وكانت عيناك مغلقتين، لكنك لم تكن بالضرورة نائما، كنت أنا أقف عند مدخل الباب وأنا أتنفس بهدوء وأستمع إلى تأوهات بقية النائمين، شعرت أيضا بأن هواء كثيفا وظلاما دامسا وزوبعة سوداء عاتية تزمجر فوق جسدك، هززت رأسى بقوة علّنى أطرد منها ما أشعر به، لكن ذلك لم يحدث فقلت لنفسى: ذلك ليس خيالا.

إن «مايكل» يعنى شيئا وما يعنيه ليس شيئا خاصا بالنسبة إلي وإذا كان كذلك فإنه نوع من الاحتياج، كنت فى حاجة لأن أصدق، وربما كان هو الحنين والتوق الشديد لمعرفة «مايكل» ومعرفة قصته، هل هو ذلك الرجل النحيل جدا ذو الشفة المعقوفة؟ وهل هو حقا كما يبدو عليه أم أنه شىء آخر غريب؟

ها أنذا الآن مجبر على اللحاق بك للوقوف عند كعبيك؛ لكى أصيح قائلا قبل أن أمضى لحال سبيلى: سامحنى يا «مايكل» وأرجوك أن تتحلى بقدر من الصبر فأنا أريد أن أخبرك بأهميتك عندى وبما تعنيه بالنسبة إلىّ.

كانت إقامتك فى المعسكر مجرد حكاية رمزية، كان هروبك من المعسكر دون إحداث أى تلف بالأسلاك الشائكة هو ما جعلنى أستغرق كثيرا فى التفكير حتى إننى قلت: لا بد أنه محترف فى القفز.

قد لا تكون محترفا فى القفز يا «مايكل» لكنك تجيد فن الهرب، إنك واحد من أعظم الهاربين وأنا لا أتردد فى رفع قبعتى لك.

فى تلك الأثناء وبعد تفكير طويل فى محاولة تفسير الهرب كان ينبغى أن ألتقط أنفاسى؛ كى أتحدث عن آخر الموضوعات ألا وهو البستان الذى كنت تعمل فيه، دعنى أخبرك بمعنى قدسية البستان وفتنته الذى يزدهر فى قلب الصحراء ولا يتوقف عن إنتاج مختلف أنواع الطعام الذى يساعد البشر على مواصلة الحياة، إن البستان الذى تتوجه إليه الآن لا يوجد فى مكان بعينه لكنه موجود فى كل مكان ما عدا المعسكرات، فالمكان الذى تنتمى إليه الآن يحمل اسما آخر يا «مايكل» حيث لا تشعر أنك متشرد، إنه مكان خارج الخريطة ولا توجد طرق للوصول إليه وأنت الوحيد الذى يعرف الطريق.

أزعم أننى لا أتخيل ولكنها الحقيقة التى تتمثل فى أنك استخدمت كل قوتك ومهاراتك فى الهرب وكان من الواضح أنك كنت تجرى لتتخلص من الرجل الذى يصيح خلف ظهرك، ذلك الرجل ذو الرداء الأزرق الذى يبدو مضطهدا ومجنونا فهل يكون مثيرا للدهشة أن يهرول الأطفال خلفنا من أجل التسلية ويندفعون ناحيتى من كل الجهات ويضايقوننى بإلقاء العصى والحجارة لأجد نفسى مضطرا فى النهاية إلى التوقف لضربهم وأنا أهتف بأعلى صوتى وأردد كلماتى الأخيرة الموجهة إليك، بينما تكون أنت غارقا ومتشابكا فى الأدغال وتجرى بسرعة لا يتوقعها المرء من شخص لا يأكل، هل أنا على صواب؟ هل استطعت أن أفهمك؟ إذا كنت على صواب فعليك أن ترفع يدك اليمنى أما إذا كنت مخطئا فارفع يدك اليسرى.

الفصل الثالث

شعر «مايكل ك» بضعف فى ركبتيه بعد رحلة طويلة من المشى، فتح عينيه بصعوبة فى ضوء الصباح المشرق وجلس فوق مقعد بجوار ملعب الجولف الصغير فى (السى بوينت) مواجها للبحر؛ طلبا للراحة ومن أجل استعادة قواه، كان الجو هادئا واستطاع أن يسمع صوت الموج فوق الصخور وهمسات المياه المرتدة، تبوّل أحد الكلاب تحت قدميه وراح يتشمم قدميه، بينما كانت تمر من أمامه ثلاث فتيات يرتدين الشورت القصير والملابس الداخلية فقط وكن يجرين جنبا إلى جنب وهن يتبادلن الحديث، انتشرت رائحة جذابة بعد مرور الفتيات، وكان من اليسير سماع صوت جرس بائع الآيس كريم قادما من الطريق المؤدى إلى الشاطئ، اقترب الصوت فى البداية، ثم تراجع، وعندئذ تنهد «ك»، ثم مال برأسه جانبا ولم يكن يعرف ما إذا كان قد نام أم لا؟ لكنه حين فتح عينيه شعر أنه فى حالة جيدة تسمح له بمواصلة السير.

كانت النوافذ الموازية لطريق الشاطئ مغلقة وكانت السيارات نفسها موجودة فى أماكن الانتظار نفسها غير أنها اكتست الآن بمزيد من الصدأ وكانت العجلات مهترئة ومحترقة ومقلوبة على جوانبها بجوار سور الشاطئ، مضى فى طريقه عبر المتنزه وكان مدركا لعريه داخل بدلة العمل الزرقاء وأنه الوحيد من كل المتشردين الذى لا يرتدى حذاء، لكن ذلك لم يكن لافتا للنظر؛ لأن وجهه هو الذى كان يلفت الانتباه أولا وليس قدميه.

تسلَّق صبى صغير قضبان الجهاز الأسود بصعوية بحذائه وكفيه الملطختين بالسخام، ثم مضى فى طريقه فوق الأعشاب الخضراء وعبر الطريق تحت أشعة الشمس حتى وصل إلى مدخل صالة (كوت دا أزور) المظلم حيث هدأ قليلا، ثم زحف على كعبيه بمحاذاة الجدار وراح يفكر ويقول: كل شىء على ما يرام، سوف يأخذنى الناس للتسول.

تذكر قلنسوته التى فقدها التى كان ينبغى عليه أن يضعها بجواره ليضع الناس فيها الصدقات حتى تكتمل الصورة.

جلس أمام الباب عدة ساعات دون أن يأتى أحد ولم يشأ أن ينهض ويجرب الدخول؛ لأنه لم يكن يعرف ما يتوجب عليه القيام به، وفى منتصف النهار وبعدما شعر بالبرودة تتسلل إلى عظامه ترك المبنى مرة أخرى، وذهب إلى الشاطئ ونام بعمق تحت الشمس الدافئة وفوق الرمال البيضاء.

شعر بالعطش وانتابته حالة من الارتباك حين استيقظ، وكان جسده تحت بدلة العمل الزرقاء متشيئا بالعرق، اكتشف دورة عمومية عند الشاطئ، لكن الصنابير لم تكن تعمل وكانت أحواض المراحيض مليئة بالتراب.

كان «ك» واقفا عند الحوض وهو يفكر فيما سيفعله بعد ذلك حين شاهد فى المرآة ثلاثة أشخاص يدخلون خلفه، كانت من بينهم امرأة ترتدى فستانا أبيض ضيق، وتضع باروكة شقراء فوق رأسها وتحمل زوجا من الأحذية ذات لون فضى وكعب عال أما الآخران فكانا رجلين، توجه الرجل الأطول مباشرة ناحية «ك» وأمسك بذراعه وقال: أتمنى أن تكون قد انتهيت من مهمتك هنا؛ لأن هذا المكان مغلق.

ثم قام بإخراجه إلى حيث ضوء الشاطئ المتلألئ وصفعه فوق وجهه وأضاف: هناك كثير من الأماكن التى يمكنك الذهاب إليها.

جلس «ك» فوق الرمال وكان الرجل الطويل يرتدى قبعة مائلة إلى أحد جانبى رأسه ويقف بجوار باب دورة المياه ولا يتوقف عن مراقبته.

كان بعض السباحين يتجولون بمحاذاة الشاطئ خارج المياه، لكن امرأة واحدة كانت تقف فوق الأمواج الضحلة بعد أن رفعت تنورتها إلى أعلى وباعدت بين قدميها، كانت تؤرجح الطفل الرضيع بين

ذراعيها إلى اليمين وإلى اليسار لكنه كان يصرخ، وكانت صرخاته مزيجا من الخوف والسعادة فى آن واحد.

أشار الرجل الواقف عند المدخل إلى المرأة الواقفة فى الماء وقال: هذه أختى وتلك أيضا أختى، لدي كثير من الأخوات، نحن عائلة كبيرة.

شعر «ك» برعشة فى رأسه وتمنى لو أنه كان يمتلك قبعة أو قلنسوة ثم أغلق عينيه.

خرج الرجل الآخر من دورة المياه وسارع بالذهاب إلى ساحة التنزه ولم يقل شيئا.

كانت أشعة الشمس تلامس سطح مياه البحر الخالى من الناس، وعندئذ فكر «ك» قائلا: سأنتظر حتى تصبح الرمال باردة، ثم سأفكر فى الذهاب إلى مكان آخر.

وقف الرجل الطويل بجواره، وراح يضربه فى ضلوعه ضربات خفيفة بطرف حذائه، وكانت أختاه تقفان خلفه وواحدة منهما تربط طفلها فوق ظهرها والأخرى تحمل الباروكة والحذاء فى يديها وتسير عارية الرأس، اكتشف الرجل الطويل فتحة فى جانب بدلة العمل التى يرتديها «ك» ففتحها بإصبع قدمه وكشف عن فخذ «ك» العارى، ثم قال مخاطبا الرجل الغريب الآخر والسيدتين: انظروا لهذا الرجل، إنه عار.

ضحكوا وهم يرددون: رجل عار، رجل عار.

ضرب «ك» فى ضلوعه مرة ثانية وقال: متى تناولت الطعام آخر مرة يا رجل؟

ثم خاطب من معه مستطردا: فلنقدم له شيئا يساعده على البقاء حيا.

أخرجت الأخت التى تحمل الطفل الرضيع زجاجة من النبيذ من داخل حقيبتها كانت ملفوفة فى ورقة بنية اللون فجلس «ك» وراح يشرب منها.

قال الرجل الغريب: من أين أنت إذن؟

أشار بإصبعه الطويل إلى بدلة العمل التى يرتديها «ك» وأضاف: هل تعمل لصالح أولئك الناس؟

أوشك «ك» على الإجابة على أسئلته، لكن معدته تقلصت فجأة، ثم تقيأ ما شربه من النبيذ فوق الأرض وشعر بالعالم يدور من حوله فأغلق عينيه.

قال الرجل الغريب وهو يضحك ويربت بيده فوق كتف «ك»: هاى، ذلك ما يحدث حين يشرب المرء وتكون معدته خاوية، دعنى أخبرك أننى حين رأيتك للوهلة الأولى قلت لنفسى: إن ذلك الرجل يعانى من سوء التغذية وإنه فى حاجة ماسة وضرورية لوجبة كبيرة.

ساعد «ك» على الوقوف وقال: تعال معنا لنقدم لك شيئا لا يجعلك نحيفا بشدة هكذا.

سارا معا عبر ساحة التنزه حتى وقفا تحت مظلة أحد مواقف الحافلات وعندئذ أخرج الرجل الغريب قطعة من الخبز من داخل حقيبته وعلبة من اللبن المجفف، ثم ظهر من مكان بارز فى جيبه شىء أسود نحيل سارع برفعه فى وجه «ك»، ضغط على شىء ما فتحول ذلك الشىء الأسود إلى سكين وراح يعرضه على الجميع وهو يصفر بدهشة، ثم بدأ فى إطلاق الضحكات وهو يضرب ركبتيه ببعضهما البعض ويشير إلى «ك» فى اللحظة نفسها التى فتح فيها الطفل الرضيع عينيه عن آخرهما وهو جالس فوق كتف أمه وراح يضحك أيضا ويضرب الهواء بقبضة يده.

قطع الغريب شريحة كبيرة من الخبز ورش فوقها اللبن المكثف على شكل دوائر، ثم قدمها إلى «ك» الذى سارع بالتهامها أمام الجميع.

عبروا الممشى وأبصر «ك» صنبورا تقطر منه المياه فانفصل عنهم، وراح يشرب من الصنبور بنهم، وكأنه كان يشرب للمرة الأولى فى حياته، انسحب عند نهاية الممشى بعدما شعر بالتعب فجلس القرفصاء، ثم عاوده الإحساس بالدوار حتى إنه استغرق وقتا طويلا فى الإمساك بأكمام بدلة العمل.

غادروا المنطقة السكنية وبدءوا فى تسلق منحدرات التل المنخفضة، وكان «ك» فى مؤخرة المجموعة فتوقف لحظة لالتقاط أنفاسه، ثم توقفت بعده الأخت التى تحمل الرضيع، وقالت وهى تشير إلى الطفل الرضيع وتبتسم: ثقيل!

عرض «ك» عليها أن يحمل حقيبتها نيابة عنها لكنها رفضت وقالت: إنها لا تشكل عبئا، إنها لا شىء وأنا معتادة على ذلك.

عبروا من خلال فتحة فى السور، تلك الفتحة التى تشير إلى حدود الغابة، كان الغريب والأخت الأخرى يسيران فى المقدمة عبر مسار متعرج مؤدّ إلى التل، ومن تحتهما بدأت أضواء (السى بوينت) فى الظهور وكانت ألوان البحر والسماء القرمزية تملأ الأفق.

وقفا تحت مجموعة أشجار من الصنوبر واختفت الأخت ذات الرداء الأبيض فى العتمة، ثم ما لبثت أن عادت بعد دقائق قليلة وهى ترتدى الجينز وتحمل كيسين منتفخين من البلاستيك، فتحت الأخت الأخرى قميصها وعرضت عليها إرضاع الطفل فارتبك «ك» ولم يعرف الاتجاه الذى يجب أن ينظر إليه، وفى تلك الأثناء فرش الرجل بطانية فوق الأرض، ثم أشعل شمعة وقام بلصقها فوق وعاء صفيحى، وبعد ذلك أخرج طعام العشاء؛ المكون من رغيف خبز ولبن مجفف وبعض من السجق وثلاث حبات من الموز، ثم أزاح السجق باتجاه «ك» وقال: من أجل هذا أنت تدفع المال.

فتح غطاء زجاجة النبيذ بعد ذلك ثم مررها على الجميع، تناول «ك» جرعة كبيرة وعاد لتناول جرعة أخرى وقال للرجل متسائلا: هل لديك ماء؟

هزَّ الرجل رأسه وأجاب: لدينا نبيذ.

وأشار إلى المرأة التى تحمل الطفل واستطرد قائلا: ولدينا نوعان من اللبن، لكننا لا نملك الماء يا صديقى وأنا آسف لعدم وجود ماء فى هذا المكان، لكننى أعدك بأن غدا سيكون يوما جديدا وأنك ستمتلك كل شىء تريده وسوف تصنع من نفسك رجلا جديدا.

لعب النبيذ برأس «ك» فشعر بدوار شديد بعدما تناول قطعة من الخبز باللبن المجفف ونصف موزة لكنه رفض تناول السجق.

استفاض الغريب فى الحديث عن (السى بوينت) حتى قال: هل تعتقد أنه أمر غريب أن ننام فوق الجبال كالمتشردين؟ نحن لسنا متشردين ونحن نمتلك الطعام ولدينا المال ونصنع حياتنا بطريقتنا الخاصة، هل تعلم المكان الذى اعتدنا العيش فيه؟ كنا نعيش فى (تلى مستر تريفيلر).

قالت الأخت التى ترتدى الجينز: (نورماندى).

ثم استطرد الغريب قائلا: جئنا إلى هنا بعد أن أعيانا التعب، وهذا هو منتجعنا الصيفى؛ حيث نأتى إلى التنزه.

ضحك وأضاف: وهل تعرف أين كنا نعيش قبل ذلك؟

أشار إلى الأخت وقال لها: قولى له عن المكان الذى كنا نعيش فيه.

قالت الأخت: (كليبرز).

● وهكذا يمكنك أن تدرك مدى سهولة أن تعيش فى (السى بوينت) إذا أدركت الطريق، والآن أخبرنى من أين جئت ومن أى بلد أنت؟ أنا لم أشاهدك من قبل.

أدرك «ك» أن دوره قد حان للحديث فقال: لقد أمضيت ثلاثة أشهر فى معسكر (كينيلورث) ولم أغادره إلا بالأمس فقط، كنت أعمل بستانيا منذ زمن بعيد، إلى أن وجدت نفسى مضطرا إلى ترك العمل واصطحاب أمى إلى الريف؛ حفاظا على صحتها، كانت أمى تعمل فى (السى بوينت) وكان لديها حجرة هنا مررنا عليها أثناء سيرنا فى الطريق.

شعر بألم فى معدته، لكنه حاول جاهدا السيطرة على آلامه واستطرد قائلا: لقد ماتت فى (ستيلينبوش) فدارت بى الدنيا، ثم عدت للاستقرار من جديد.

كان مدركا للمرأة التى تحمل الطفل وهى تهمس للرجل فتوقف لحظة قصيرة، ثم أضاف: لم أجد دائما الطعام اللازم لبقائى على قيد الحياة.

فتح غطاء زجاجة النبيذ بعد ذلك ثم مررها على الجميع، تناول «ك» جرعة كبيرة وعاد لتناول جرعة أخرى وقال للرجل متسائلا: هل لديك ماء؟

هزَّ الرجل رأسه وأجاب: لدينا نبيذ.

وأشار إلى المرأة التى تحمل الطفل واستطرد قائلا: ولدينا نوعان من اللبن، لكننا لا نملك الماء يا صديقى وأنا آسف لعدم وجود ماء فى هذا المكان، لكننى أعدك بأن غدا سيكون يوما جديدا وأنك ستمتلك كل شىء تريده وسوف تصنع من نفسك رجلا جديدا.

لعب النبيذ برأس «ك» فشعر بدوار شديد بعدما تناول قطعة من الخبز باللبن المجفف ونصف موزة لكنه رفض تناول السجق.

استفاض الغريب فى الحديث عن (السى بوينت) حتى قال: هل تعتقد أنه أمر غريب أن ننام فوق الجبال كالمتشردين؟ نحن لسنا متشردين ونحن نمتلك الطعام ولدينا المال ونصنع حياتنا بطريقتنا الخاصة، هل تعلم المكان الذى اعتدنا العيش فيه؟ كنا نعيش فى (تلى مستر تريفيلر).

قالت الأخت التى ترتدى الجينز: (نورماندى).

ثم استطرد الغريب قائلا: جئنا إلى هنا بعد أن أعيانا التعب، وهذا هو منتجعنا الصيفى؛ حيث نأتى إلى التنزه.

ضحك وأضاف: وهل تعرف أين كنا نعيش قبل ذلك؟

أشار إلى الأخت وقال لها: قولى له عن المكان الذى كنا نعيش فيه.

قالت الأخت: (كليبرز).

● وهكذا يمكنك أن تدرك مدى سهولة أن تعيش فى (السى بوينت) إذا أدركت الطريق، والآن أخبرنى من أين جئت ومن أى بلد أنت؟ أنا لم أشاهدك من قبل.

أدرك «ك» أن دوره قد حان للحديث فقال: لقد أمضيت ثلاثة أشهر فى معسكر (كينيلورث) ولم أغادره إلا بالأمس فقط، كنت أعمل بستانيا منذ زمن بعيد، إلى أن وجدت نفسى مضطرا إلى ترك العمل واصطحاب أمى إلى الريف؛ حفاظا على صحتها، كانت أمى تعمل فى (السى بوينت) وكان لديها حجرة هنا مررنا عليها أثناء سيرنا فى الطريق.

شعر بألم فى معدته، لكنه حاول جاهدا السيطرة على آلامه واستطرد قائلا: لقد ماتت فى (ستيلينبوش) فدارت بى الدنيا، ثم عدت للاستقرار من جديد.

كان مدركا للمرأة التى تحمل الطفل وهى تهمس للرجل فتوقف لحظة قصيرة، ثم أضاف: لم أجد دائما الطعام اللازم لبقائى على قيد الحياة.

ظهرت امرأة أخرى وسط ضوء الشمعة المتردد، وبدا أنه متأثر بمشاهدة الأختين وهما تشيران إلى بعضهما البعض وتتبادلان الهمسات؛ فأصابه الإحباط لإدراكه أن قصته لا تتعدى كونها حكاية تافهة وأنها لا تستحق الحكى، عاوده إحساسه الدائم بالعجز الذى لم يستطع يوما أن يتغلب عليه، وعرف أنه لا يجيد فن الحكى ولا يتقن شد الانتباه.

تخلص من حالة الغثيان التى أصابته، لكن جسده كان متصببا بالعرق، فشعر بالبرد، وبدأ يرتعش، ثم أغلق عينيه..

قال الرجل الغريب وهو يلكز «ك» فوق ركبته: أرى أنك نائم، لقد حان وقت النوم، غدا ستكون رجلا آخر وسوف ترى.

وضع يده فوق ركبة «ك» مرة أخرى واستطرد قائلا: أنت على ما يرام يا صديقى.

صنعا لنفسيهما سريرا من أوراق الصنوبر، بينما أخرج الآخرون ملابسهم من الحقائب والأكياس وفرشوها على الأرض، وكان معهم غطاء من البلاستيك السميك لم يترددوا فى تقديمه إلى «ك»؛ كى يلف نفسه به، وضع نفسه داخل الغطاء البلاستيكى فتصبب جسده بالعرق وأصابه الارتعاش وشعر بآلام فى أذنيه، استسلم للنوم فى النهاية، لكن نومه كان متقطعا وكانت إحدى المرات التى استيقظ فيها عندما عبر من فوقه ذلك الرجل الذى ما زال لا يعرف اسمه

وحجب عنه مشهد النجوم وقمم الأشجار فقال لنفسه: يجب أن أتكلم قبل فوات الأوان.

لكنه لم يفعل.

يد غريبة لامست حنجرته برفق وراحت تتحسس أزرار جيب بدلة العمل الفوقية، برز كيس البذور بوضوح من جيب البدلة، فلم يستطع «ك» أن يتظاهر بالنوم وراح يتأوه ويتقلب فى رقدته، ثم انسحب صاحب اليد الغريبة واختفى فى الظلام.

أمضى «ك» بقية الليل متطلعا إلى القمر وهو يعبر السماء من خلال أغصان الأشجار، ثم بدأ عند الفجر فى الخروج من الغطاء البلاستيكى وذهب حيث يرقد الآخرون، كان الرجل نائما بجوار المرأة صاحبة الطفل، وكان الطفل مستيقظا وهو يداعب أزرار قميص أمه، رمق الطفل «ك» بنظرات واثقة وخالية من الخوف.

هزَّ «ك» الرجل فى كتفه وقال له بصوت خفيض كى لا يستيقظ الآخرون: هل لى أن أستعيد كيسى؟

لم يقل الرجل شيئا، لكنه تنحنح، وأصدر صوتا كالشخير، ثم انقلب على جانبه الآخر.

عثر «ك» على الكيس على بعد ياردات قليلة، وبالبحث جاثما على يديه وركبتيه استطاع أن يسترد نصف البذور المبعثرة، فربطها فى بنطاله، وترك الباقى قائلا لنفسه: من المؤسف ألا ينبت شىء بجوار شجرة الصنوبر.

مضى بعد ذلك فى طريقه عبر مسار الطريق المتعرج ومرَّ فى الصباح المبكر بالشوارع الفارغة حتى وصل إلى الشاطئ، كانت الشمس لا تزال قابعة خلف التل وكانت الرمال باردة، فمضى فى سيره بين الصخور، وراح يرقب المد والجزر فشاهد القواقع وشقائق النعمان، تأمل القواقع وقال: إنها تعيش حياتها الخاصة.

شعر بتعب بعد طول تأمل، فعبر طريق الشاطئ حتى وصل إلى باب بيت أمه؛ حيث جلس لمدة ساعة كاملة مستندا إلى جدار الباب فى انتظار ظهور من يعيش خلف الباب، عاد إلى الشاطئ ورقد فوق الرمال وهو يستمع إلى دقات أذنه، وكان صوت الدم يجرى فى عروقه، والأفكار تتسارع فى رأسه، وانتابه شعور أن شيئا ما بداخله على وشك التلاشى، شيئا ما لم يستطع إدراكه، لكنه شعر أيضا أن ما كان يجده صعبا فى السابق قد أصبح يسيرا، وبدا أن الشعور الأول والثانى قد امتزجا معا.

كانت الشمس تحتل قمة السماء ولم يكن يعرف عدد الساعات التى مرت ففكر قائلا: لا بد أننى نعسان! وربما أكون أسوأ من ذلك، قد أكون مفقودا أو غائبا عن الوعى وربما أيضا أكون غير موجود.

لم يعد وحيدا عند الشاطئ، فعلى بعد خطوات قليلة منه كانت فتاتان ترتديان البكينى راقدتين فى استرخاء، وهما ينعمان بحمام

الشمس ويضعان القبعات فوق وجهيهما، كما كان بعض الناس الآخرين منتشرين على طول الشاطئ.

ارتبك «ك» من شدة الحرارة فتعثر فى طريقه أثناء الذهاب إلى دورة المياه العمومية، كانت المياه لا تزال مقطوعة، فسحب ذراعيه خارج البدلة وقام بتعرية نفسه حتى الخصر، ثم جلس مقرفصا فوق كومة من الرمال فى محاولة للخلاص من فضلاته.

كان لا يزال جالسا فى موضعه حين دخل الرجل الطويل بصحبة رجل آخر، فحاول أن ينهض ويغادر المكان لكن الرجل احتضنه وقال: صديقى مستر تريفيلر، كم أنا سعيد لرؤيتك، لماذا تركتنا مبكرا فى الصباح؟ ألم أخبرك أن اليوم سيكون يومك الكبير؟

أخرج من جيب سترته زجاجة من البراندى واستطرد قائلا: انظر ما أحضرته لك.

تعجب «ك» لاحتفاظ الرجل بأناقته ونظافته رغم أنه يعيش فى الجبال، ثم واصل الرجل حديثه قائلا: سنقيم حفلا الليلة.

ثم أضاف هامسا: وستلتقى بكثير من الناس.

تناول جرعة من البراندى ثم ناول «ك» الزجاجة، سارع «ك» باحتساء جرعة كبيرة، فشعر بالتراخى، وأصيب رأسه بالخدر، وراح يسبح فى دوامة من الدوار.

سمع بعض الهمسات من حوله، ثم فك شخص ما آخر أزرار البدلة ودفع يده بهدوء إلى داخل جسده، وحين فتح «ك» عينيه

اكتشف أنها امرأة، كانت المرأة راكعة إلى جواره وتداعب بيدها عضوه الذكرى، دفع يدها بعيدا وحاول تحريك قدميه لكن الرجل قال: لا عليك يا صديقى، هذه هى (السى بوينت) وهذا هو اليوم الذى تحدث فيه كل الأشياء الممتعة، عليك بالاسترخاء واستمتع بوقتك. وضع الرجل زجاجة البراندى فوق الرمال بجوار «ك» ثم رحل.

سأل «ك» المرأة قائلا: منْ أخاك؟ وما اسمه؟

أجابت المرأة: اسمه ديسمبر.

كانت هى المرة الأولى التى تبادل معها الحديث، ولم يكن متأكدا أنه سمعها بطريقة صحيحة، ثم أضافت المرأة قائلة: ذلك هو اسمه الرسمى كما هو مدون فى البطاقة وغدا قد يكون له اسم آخر وبطاقة أخرى للتمويه على الشرطة.

انحنت فوقه وتلتهمه، حاول دفعها بعيدا بيديه، لكن أصابعه توقفت عند شعر الباروكة الخشن، فاستسلم لحالة الدوار التى أصابت رأسه ولذلك الإحساس الغريب.

كانت المرأة أصغر مما تبدو عليه وكانت لا تزال راقدة فوق كومة من الرمال بجواره ممسكة به وكانت شفتاها مبللتين.

قال لها وهو يفكر فى الرجل الذى ينتظر بالخارج: هل هو حقا أخوك؟

ابتسمت واستندت إلى كوعها وراحت تقبله بحرارة.

بعد الانتهاء من المضاجعة شعر بضرورة أن يقول شيئا من أجله ومن أجلها، غير أنه الآن عاجز تماما عن التعبير، وقد بدأت الكلمات فى الهرب منه، فقد حالة السلام التى انتابته بعد احتساء البراندى فتناول الزجاجة وشرب منها ثم ناولها للمرأة.

لاحت فى الأفق بعض الأشكال، ففتح عينيه وشاهد الفتاة وهى ترتدى حذاءها وكان الرجل واقفا بجوارها، وقال بصوت كأنه قادم من بعيد: عليك أن تنام يا صديقى؛ لأننى سأعود فى الليل وأصحبك معى للذهاب إلى الحفلة، أعدك بذلك، سيكون الحفل عامرا بالطعام وسترى بنفسك نوع الحياة فى (السى بوينت).

اعتقد «ك» أنه رحل مع المرأة لكن الرجل سرعان ما عاد وانحنى فوقه وهمس فى أذنه بالكلمات الأخيرة: من الصعب أن تكون طيبا مع شخص لا يريد شيئا، ولا يجب أن تخشى من قول ما تريد لأنك إذا قلت ما تريد؛ فسوف تحصل عليه، تلك هى نصيحتى لك يا صديقى النحيل.

ربت فوق كتف «ك» ومضى.

أصبح بمفرده أخيرا وكان يرتعش من البرد، شعر بجفاف فى حلقه وكانت قصته مع المرأة تحتل زاوية كبيرة فى رأسه، ربط أزرار بدلته وخرج من دورة المياه قاصدا الشاطئ؛ حيث كانت الشمس فى

طريقها للغروب وكانت الفتيات اللاتى يرتدين البكينى يجهزن أنفسهن للرحيل، مضى فى طريقه نحو الشاطىء، لكنه اكتشف أن السير فوق الرمال الآن قد أصبح أكثر صعوبة مما كان، ففقد اتزانه أثناء السير وانقلب على جانبه، سمع رنين جرس بائع الآيس كريم فحاول الإسراع للحاق به، لكنه تذكر فجأة أنه لا يملك مالا، وفى لحظة خاطفة أدرك أنه مريض ولم يعد قادرا على التحكم فى درجة حرارته، كان جسده باردا وساخنا فى آن واحد - إذا كان ذلك أمرا ممكنا - سقط مغشيا عليه وحين وقف مستندا - إلى السياج مرت بجواره فتاتان، لم تتوقف الفتاتان عن التحديق فيه كما لم يتوقف هو عن النظر إليهما، وقد ساورته رغبة عارمة فى أن يشق بأصابعه جسد الفتاتين الطرى.

أغلق عينيه وهو يشرب من صنبور خلف (ساحل آزور)، ثم راح يفكر فى المياه الباردة وهى تسقط من الجبل وتملأ الخزان، ثم تمر عبر الأنابيب تحت الأرض وفى الظلام حتى تصل إليه وتروى ظمأه، أفرغ ما فى معدته وشرب مرة أخرى وبدا واضحا بعد ذلك أنه لا يدرك ولا يشعر بوقع أقدامه فوق الأرض، عبر من خلال آخر ضوء للنهار إلى الممر المظلم، ثم أدار مقبض الباب دون تردد.

إنها الحجرة التى كانت أمه تعيش فيها، فوضى كبيرة من قطع الأثاث فى كل مكان، واستطاع أن يرى من خلال الظلام عشرات من المقاعد المصنوعة من الصلب وهى مرصوصة من الأرض حتى

السقف وعددا من مظلات الشاطئ الملفوفة وبعض الطاولات البيضاء المثقوبة من عند المنتصف، وكانت ثلاثة تماثيل من الجص الملون ملقاة بجوار الباب وتمثال آخر لغزال بعيون بنية وقزم برتقالى اللون يرتدى سترة دون أكمام، وثمثال آخر لمخلوق بأنف خنزير يعرفونه باسم (بينوشيو)، كان التراب الأبيض يغطى كل شىء.

قادته الرائحة إلى اكتشاف الركن المظلم خلف الباب وحين تحسس طريقه عثر على بطانية فوق ورق من الكرتون المسطح، ارتطمت قدماه بزجاجة فارغة فتدحرجت الزجاجة بعيدا، وكانت رائحة مزيج من النبيذ والسجائر تنبعث من البطانية بالإضافة إلى رائحة عرق قديم، لفَّ البطانية حوله ورقد وما إن استقر فى رقدته حتى بدأت دقات أذنه تعاوده من جديد، قال لنفسه: ها أنذا قد عدت.

انطلقت صفارة الإنذار الأولى معلنة عن بدء حظر التجوال، ولم يستطع «ك» أن ينام فقد داهمته - رغما عنه - ذكرى المرأة وهى تنحنى فوقه بشعرها الفضى وتداعبه فى مناطق حساسة من جسده، ثم فكر قائلا: لقد أصبحت جزءا من أعمال الخير كما كان يحدث فى كل مكان أذهب إليه حيث كان الناس يحاولون تقديم الصدقات لى، كل تلك السنوات وما زلت أبدو كاليتيم، إنهم يعاملوننى مثلما يعاملون الأطفال فى (جاكالسدريف) حيث يقدمون لهم الأطعمة؛ لأنهم صغار جدا ولا يشعرون بالذنب من أى شىء

ولأنهم لا ينتظرون من الأطفال شيئا سوى إشارة تفيد بالشكر، لكنهم يريدون منى أنا المزيد، يريدون سماع كل شىء عن المعسكرات التى عشت فيها، كما لو أننى ببغاء أو فأر أبيض أو حمار، لو أننى كنت قد تعلمت فن الحكى بدلا من جمع البطاطس وتقشيرها، لو أنهم جعلونى أمارس فن الحكى وسرد الكثير من قصة حياتى كل يوم وهم واقفون أمامى كأعواد الخيزران إلى أن أنتهى من عرض قصتى دون أن أتعثر، لتعلمت عندئذ كيفية إدخال البهجة إلى أنفسهم، وكنت أخبرتهم عن الحياة داخل السجون والمعسكرات التى كنت أرتادها يوما بعد يوم وسنة بعد سنة؛ حيث كانت جبهتى تلتصق بالأسلاك الشائكة وأنا أحدِّق إلى بعيد وأحلم بحياة لم أختبرها من قبل، كنت سأحكى لهم أيضا عن الحراس وعن الأسماء التى كانوا يسموننى بها وعن اللحظات التى كانوا يضربوننى فيها فوق ضلوعى لإجبارى على تنظيف الأرضيات، أعرف أنهم بعد سماع قصتى سيهزون رءوسهم وسوف يغضبون ويتأسفون، ثم سيمدوننى بالطعام والشراب، أما النساء فسوف يأخذننى إلى مضاجعهن ويداعبننى فى الظلام فى حين أن الحقيقة تتمثل فى كونى بستانيا، نعم، لقد عملت بستانيا فى قسم البساتين التابع لبلدية مدينة كيب تاون أولا ثم لنفسى بعد ذلك، إن أمثالى ممن يعملون فى الحدائق والبساتين يمضون أوقاتهم بوضع أنوفهم فى الأرض.

رقد «ك» فوق قطعة من الكرتون، لكنه كان قلقا وقد أثاره ذلك

الاكتشاف وتلك الحقيقة المتمثلة فى كونه بستانيا فراح يردد مرة أخرى بصوت عال: أنا بستانى ولكن من ناحية أخرى أليس غريبا أن ينام البستانى فى المراحيض وسط ضربات أمواج البحر المتلاحقة؟

فكر لحظة، ثم أضاف محدثا نفسه: إننى مثل دودة الأرض التى تقوم ـ بطريقة ما ـ بعمل البستانى نفسه، وربما أكون كالحيوان الذى يأكل الحشرات، إنه أيضا يقوم ـ بطريقة ما ـ بعمل البستانى نفسه كما أنه لا يجيد فن الحكى ولا يعرف كيفية سرد القصص؛ لأنه يحيا فى سكون ولا يعرف الكلام رغم أن كلا من ذلك الحيوان ودودة الأرض يعيشان بين شقوق الأرضيات الإسمنتية.

حاول أن يستريح فبدأ فى تدليك كل أجزاء جسده على حدة كما كان يفعل من قبل، وقال: أنا على الأقل لست ماهرا وها قد عدت إلى (السى بوينت) محملا بالحكايات والقصص التى تحكى عن ضربهم الدائم لى فى المعسكرات حتى أصبح جسدى نحيلا وأصبحت رأسى فارغة، كنت صامتا وغبيا فى البداية وسأبقى صامتا وغبيا إلى النهاية فلا شىء يدعو للخجل كونك إنسانا بسيطا، إنهم يعتقلون البسطاء قبل اعتقال أى شخص آخر ولديهم الآن معسكرات للأطفال الذين هرب آباؤهم وأمهاتهم، ومعسكرات للبلهاء والمرضى وأخرى لذوى الرءوس الكبيرة وذوى الرءوس الصغيرة، ومعسكرات لأولئك الذين لا يملكون أى نوع من الدعم

وكذلك للمطاردين من الأرض ومعسكرات أخرى لأولئك الذين يعيشون على مياه المجارى، لديهم أيضا معسكرات لفتيات الشوارع وللجهلاء الذين لا يستطيعون حتى جمع أبسط العمليات الحسابية، ولأولئك الذين فقدوا أوراقهم فى مدنهم وقراهم، وكذلك لديهم معسكرات للذين يعيشون فى الجبال ويقومون بنسف الكبارى فى الليل، وربما كانت الحقيقة فى أن كل تلك المعسكرات هى فى حد ذاتها سبب كاف لأن تكون خارجها، خارج كل المعسكرات فى وقت واحد وربما يكون ذلك إنجازا كبيرا فى الوقت الحالى، كم من الناس فى تلك المعسكرات ممن يمكن اعتبارهم غير مسجونين ولا هم فى الوقت نفسه يقفون حراسا على البوابات؟

لم يكن الخطأ الذى ارتكبته هو امتلاكى لكثير من البذور ولكونى كنت أحتفظ بأكياس البذور فى كل جيوبى؛ بذور قرع العسل وبذور الكوسة والفول والجزر والشمندر، وكذلك بذور البصل والطماطم والسبانخ، لم أكن أحتفظ بالبذور فى جيوبى فقط وإنما فى الحذاء وفى بطانة المعطف أيضا تحسبا لهجمات اللصوص وخوفا من فقدانها لأى سبب كان، لم يكن ذلك هو خطئي لكن الخطأ الحقيقى هو أننى قمت بزراعة كل البذور فى رقعة واحدة من الأرض، وكان ينبغى زراعتها فى مساحات كبيرة من الأرض عبر أميال من الواحة ومعرفة أماكنها حتى يتسنى لى المرور عليها لريها

بالماء خاصة، وأننى اكتشفت أثناء حياتى فى الريف وجود وقت كاف لعمل كل شىء.

استطرد وهو يفكر قائلا: هل هى تلك العبرة والمغزى من كل شىء؟ هل وجود وقت كاف لعمل كل شىء هو العبرة المستقاة من الحكاية كلها؟ وهل هكذا تأتى العبر من تلقاء نفسها من خلال مسار الأحداث؟

بدأ يفكر فى الحقل وفى المزرعة وفى أشواك الشجيرات الرمادية وفى التربة الصخرية وأصوات الرنين القادم من التلال وفى الجبال التى تبدو ألوانها بنفسجية وقرنفلية من بعيد، راح يفكر أيضا فى هدوء السماء الزرقاء الصافية، وفى لون الأرض الرمادى والبنى تحت أشعة الشمس حيث إذا ما نظرت بعناية فإنك سترى فجأة رءوسا من النباتات الخضراء اليانعة وأوراق قرع العسل وأغصان الجزر.

لم يبد مستحيلا مهما كان ذلك الرجل الذى تجاهل حظر التجوال أن يأتى وينام فى ركن كريه الرائحة (تخيل «ك» أنه رجل عجوز نحيل وذو ظهر محدودب ويحمل زجاجة فى جيبه ومن نوعية أولئك الناس الذين تتجاهلهم الشرطة)، قد يكون سئم الحياة على شواطئ البحر ويريد أن ينعم بإجازة فى المدينة إذا استطاع أن يجد مرشدا يدله على الشوارع، يمكنه مشاركة السرير نفسه مع ذلك المرشد العجوز الليلة كما حدث كثيرا من قبل، وفى الصباح ومع أول

ضوء للشمس يمكنهما الخروج للبحث عن الشواطئ المهجورة فى الشوارع الخلفية، وإذا حالفهما الحظ فإنهما سيصلان إلى الطريق السريع فى العاشرة ويمكنهما الوقوف لشراء البذور وشىء آخر أو شيئين على أن يتجنبوا الطريق المؤدى إلى (ستيلينبوش) لما هو معروف عنها بالمكان السيئ الحظ.

وإذا هبط الرجل العجوز من فوق العربة الكارو وفرد جسده، ثم نظر إلى مضخة المياه التى فجرها الجنود وسمعهم وهم يتذمرون بالشكوى لعجزهم فى الحصول على المياه، فقد يخرج عندئذ «مايكل ك» ملعقة صغيرة من جيبه ولفة طويلة من الحبال ويقوم بتنظيف العامود من الحصى، وبعد أن يقوم بثنى الملعقة حتى تصبح على شكل دائرة وربطها فى الحبل سيقوم بإنزالها مع العامود إلى أسفل الأرض وعندما يقوم برفعها سيجد الملعقة مليئة بالماء وعندئذ سيقول: يستطيع المرء أن يحيا.

المؤلف فى سطور:

ج.م. كويتزى:

- ولد «چون ماكسويل كويتزى» عام ١٩٤٠، وتلقى تعليمه فى كيب تاون، وقد بدأ الكتابة الإبداعية عام ١٩٦٩، وأهم أعماله حسب ترتيب صدورها كالآتى:

١ـ (بلاد الظلام Dusklands) جوهانسبرج ١٩٧٤.

٢ـ (فى قلب الوطن) لندن ١٩٧٧.

٣ـ (فى انتظار البرابرة) لندن ١٩٨٠.

٤ـ (عصر مايكل ك وحياته) لندن ١٩٨٣ (التى كانت سببا فى شهرته، واحتلاله مكانا مرموقا ومتميزا فى أوساط جنوب أفريقيا

- حصل على جائزة نوبل للآداب عام ٢٠٠٣، وحصل كذلك على جائزة «بوكر» مرتين عن رواية (العار Disgrace)، ثم عن هذه الرواية.

الأدبية، ولدى كل قراء الأدب فى العالم، التى حصل بموجبها على جائزة بوكر).

٥ - (العدو) لندن ١٩٨٦.

٦ - (عصر القوة) لندن ١٩٩٠.

٧ - (حاكم بطرسبورج) لندن ١٩٩٤.

٨ - (العار) لندن ١٩٩٩.

المترجم فى سطور:

سمير عبد ربه

- متفرغ تماما للكتابة والترجمة.
- له اهتمام خاص بالأدب الأفريقى.
- عضو اتحاد الكتاب المصرى وعضو نادى القلم.

من أهم ترجماته:

١ـ رواية (سنوات الطفولة) للكاتب النيجيرى «وول سوينكا» الحاصل على جائزة نوبل ـ مكتبة مدبولى ـ القاهرة ـ ١٩٩١.

٢ـ رواية (سهم الله) للكاتب النيجيرى «تشينوا أتشيبى» ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب ـ القاهرة ـ ١٩٩٢.

٣ـ مجموعة قصصية بعنوان: (الياقوتة) لكاتبة جنوب أفريقيا «نادين جورديمر» الحاصلة على جائزة نوبل ـ دار الهلال ـ القاهرة ـ ١٩٩٢.

٤ـ مسرحية (الحب والأسى) للكاتبة الصينية «باى فنجكسى» ـ الهيئة العامة لقصور الثقافة ـ القاهرة ـ ٢٠٠٢ ـ العدد (١١).

٥ـ رواية (العالم البرجوازى الزائل) للكاتبة «نادين جورديمر» من جنوب أفريقيا، والحاصلة على جائزة نوبل ـ المجلس الأعلى للثقافة ـ المشروع القومى للترجمة ـ القاهرة ـ ٢٠٠٢ ـ العدد رقم (٣٤٣).

٦ـ رواية (الموت فى الشمس) للكاتب التنزانى «بيتر بالانجيو» ـ المجلس الأعلى للثقافة ـ المشروع القومى للترجمة ـ القاهرة ٢٠٠٢ ـ العدد رقم (٣٤٤).

٧ـ مجموعة قصص أفريقية بعنوان: (نصوص قصصية: من روائع الأدب الأفريقى) لمجموعة من المبدعين الأفارقة ـ المجلس الأعلى للثقافة ـ المشروع القومى للترجمة ـ القاهرة ٢٠٠٢ ـ العدد رقم (٤٩١) ـ أعيد طبعها بمكتبة الأسرة ٢٠٠٥.

٨ـ رواية (طريق الجوع) للكاتب النيجيرى «بن أوكرى» الحاصل على جائزة بوكر ـ المركز القومى للترجمة العدد (١٢٣١) ـ القاهرة ٢٠٠٨.

٩ـ رواية «جاجوا نانا» للكاتب النيجيرى «سيبريان إيكوينسى» ـ الهيئة العامة لقصور الثقافة – تحت الطبع.

١٠ـ «السير فوق الماء» (القراءة ـ والكتابة ـ والثورة) للكاتب الأمريكى «ديريك جنسن» ـ المركز القومى للترجمة. العدد (٢١٥٩) القاهرة ٢٠١٣.

هذا بالإضافة إلى مجموعة قصصية واحدة مؤلفة بعنوان: (سماء لا تشرب الشاى) ـ دار البيادر ـ القاهرة ـ ١٩٩١، إلى جانب العديد من الأعمال المترجمة والقصص القصيرة والمقالات فى مختلف الصحف والمجلات المصرية والعربية.

التصحيح اللغوى: نعيمة عاشور
الإشراف الفنى: حسن كامل

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



أثناء قراءة هذه الرواية وبعد الانتهاء منها يجد القارئ قدرًا كبيرًا من المتعة بالنظر إليها على أنها عمل أدبى خالص، لكنها إلى جانب ذلك مليئة بالأفكار والقضايا الفلسفية التى ينبغى على القارئ أن يفكر فيها لاكتشاف قوتها وتميزها.

إن المتتبع لأعمال "كويتزى" يستطيع أن يدرك ببساطة أن الاضطهاد والظلم هما الموضوعان المتكرران فى كل رواياته ويمثلان الفكرة الأساسية لهذه الرواية، ورغم أن أحداث الرواية تقع فى جنوب أفريقيا، فإن العمل لا يتضمن ذلك صراحة، وإنما تحكى الرواية عن الاضطهاد العنصرى وعن المعاملة التى يلقاها "مايكل" وكأنه غريب وخانع وذليل.

إنها رواية "كويتزى" - الحاصل على جائزة نوبل - الأكثر تفردا وأظن أنها عمله الأدبى الأروع.

تصميم الغلاف: نيرڤانا